المباحث البلاغية

في

حاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوي

رسالة تقدّمت بها الطالبة

سارة علي ناصر العامري

إلى

مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية – جامعة ذي قار

وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير

في اللغة العربية وآدابها

بإشراف

الأستاذ المساعد الدكتورة

سعاد كريم خشيف الازيرجاوي

١٤٣٣هـ

٢٠١٢م

Ministry of Higher Education
& Scientific Research
Thi-Qar University
College of Education

Rhetorical Themes in Sheik Zada's Exegesis Regarding Al-Baidhawi'S Annotation

A Thesis Submitted to the Council of College of Education , Department of Arabic as a Partial Requirement to Obtain M.A. Degree in Arabic

By :
Sara Ali Nasir Al-Amiri

Under Supervision of:
Dr. Su'ad Kareem Khishayif

2012 AD 1433 A.H.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

صدق الله العلي العظيم

[آل عمران : ١٥٩-١٦٠]

إقرار المشرف

اشهد أن إعداد هذه الرسالة الموسومة بـ **(المباحث البلاغية في حاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوي)** التي تقدمت بها الطالبة **(سارة علي ناصر العامري)** ، جرى تحت إشرافي في كُليَّة التربية للعلوم الإنسانية – جامعة ذي قار ، وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها .

التوقيع:

المشرف : الأستاذ المساعد الدكتور

سعاد كريم خشيف الازيرجاوي

التاريخ: / /

بناء على التوصيات المتوافرة ، أرشح هذه الرسالة للمناقشة

التوقيع :

رئيس القسم : د. رافد مطشر سعيدان

اللقب العلمي : مدرس

التاريخ : / /

التوقيع :

رئيس لجنة الدراسات العليا

د. رياض شنته جبر

اللقب العلمي : أستاذ

التاريخ : / /

الإهداء

الى . . . خازن الكتاب المسطور

ووارث التوراة والأنجيل والزبور

عمود الدين

وباب حكمة رب العالمين

أبي الأحرار . . . وسيد الثوّار . . . وكعبة الأبرار . .

الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب χ

والى . . . أبي وأمي واخوتي أهدي ثمرة هذا الجهد

الباحثة

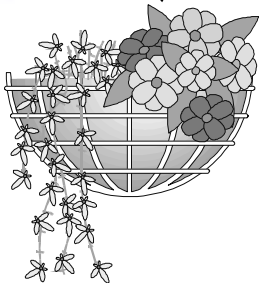

Abstract

The thesis deals with a scientist , an explainer and a great figure of Arabic language , Sheikh Zada , and his rhetorical effort in his exegesis in explanation of Al-Baidhawi's exegesis which is a summary of "Al-Kashaf Al-Zamkhashri" exegesis . He has put his explanation depending on these two scientists for the sake of "redressing" . He has uncovered and clarified many of the Koranic meanings and rhetorical categories and masterpieces .

His period ,which lies within the tenth century, represents a period of maturity and stability for the Arabic rhetoric from two sides (appreciation and putting down rules of rhetoric) . Through his explanation of the Koran rhetorically , he has given the Arabic eloquence the quality of renewal and life . The Koran has learned him unfamiliar rhetorical styles which take the learner away to wide horizons . The characteristic of renewal "Renovation" has appeared with him through the comparison the letter has made with the owners of rhetorical theorization , the rhetoricians specialized at the three sciences of rhetoric and their branches .

The thesis includes two sections . The first is entitled "Semantics" in Sheik Zada's exegesis . It deals with the Koranic predicative sentences and what stylistic arts occur to them . It has been studied in six chapters . The first one is "Predicate & Phraseology" , the second one is "Prepositive &Postpositive" , the third one is "To Make a Thing Definite or Indefinite" , the fourth one is "Mentioning & Omission" , the fifth one is "Apposition & Non-apposition" , the sixth one is "Abridgment , Prolixity and Parity" while the second section has been specialized for the study of rhetoric and the art of figures of speech including personification . It is titled " Rhetoric

and Figures of Speech in Sheikh Zada's Exegesis" . It contains two chapters discussing "Rhetoric" in Sheikh Zada's exegesis in which four subjects have been studied . They are (simile , real meaning & metaphor , allegory and metonymy) . The second chapter is for talking about "Rhetoric" in Sheikh Zada's exegesis where it contains the study of moral rhetorical figures .

This study or thesis has brought about many conclusions including : Sheikh Zada's view for the eloquence of the Koran is that it is miraculous and he has used the terms of eloquence ,after they had become mature, to clarify that inimitability.

In addition , his theoretical fundamentals of the three sciences of Arabic eloquence have been distinguished .The science of meanings "Semantics" concerns the study of well-organized structure and its relations . That's not for showing the grammatical and predicative relations but to show what purposes standing behind these relations . Since knowing context relations according to a grammatical system states that "Al-Inziyah"(which means multiplying changes of meanings) , that should be for a purpose linked with the original composition which the eloquent speaker wants to be reached through that that means. He has applied that on Koranic texts for showing the rules of Koranic predicative sentences and what they have of stylistic arts which takes the speaker away for the heaven of Koranic eloquence . Through that , he has become similar ,to some extent, to Al-Jarhani and Al-Zamkhashiri but he is more elaborate on the Koranic texts from the theorization rule-forming sides .

As for "rhetoric" , it has been specialized by Sheikh Zada for studying the rhetorical figures of speech in the Koran and the secret behind their being

wonderful . He has also looked into their rhetorical purposes . He didn’t pay much attention to the division and ramification of those figures which rhetoricians engaged themselves with .

On the other hand , the science of figures of speech has been specialized for studying the contrived meanings (wonderful senses) . He has justified using the figures of speech in the Koran on beautifying the rhetorical figures and clarifying them and we can't find such research with other rhetoricians and explainers .

المحتويات

الموضوع	الصفحة	
	من	إلى
المقدمة	١	٣
التمهيد : **حياة شيخ زادة وأثر نظرية الإعجاز في تطور مباحث البلاغة**	٤	١٦
المحور الأول : حياة شيخ زادة وآثاره العلمية	٤	٨
اسمه ولقبه / ولادته ونشأته ووفاته / ثقافته وآثاره العلمية	٤	٨
المحور الثاني : نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في تطور مباحث البلاغة إلى عصر شيخ زادة	٨	١٦
الباب الأول **علم المعاني في حاشية شيخ زادة**	١٧	١٨١
توطئة : المعاني في اللغة والاصطلاح	١٧	١٨
الفصل الأول : **الخبر والإنشاء**	١٩	٥٣
المحور الأول : الخبر في جهود شيخ زادة	١٩	٣٤
١-الخبر لغة واصطلاحاً	١٩	٢١
٢- اضرب الخبر	٢١	٢٨
٣-أغراض الخبر المجازية	٢٨	٣٢
٤-تقسيمات الجملة الإخبارية عند شيخ زادة	٣٢	٣٤
المحور الثاني : الإنشاء في جهود شيخ زادة	٣٥	٥٣
١- الإنشاء لغةً واصطلاحاً	٣٥	٣٦
٢- أساليب الإنشاء الطلبي ومعانيها المجازية	٣٦	٥٣

أ- الأمر	٣٦-٤١
ب- النهي	٤١-٤٤
ج- الاستفهام	٤٤-٥٠
د- النداء	٥٠-٥٣
الفصل الثاني : **التقديم والتأخير في حاشية شيخ زادة**	٥٤-٧١
توطئة : التقديم والتأخير في اللغة والاصطلاح	٥٤-٥٥
١-تقديم المسند إليه وأغراضه البلاغية	٥٥-٥٩
٢- تقديم المسند وأغراضه البلاغية	٥٩-٦٢
٣-تقديم المتعلقات وأغراضه البلاغية	٦٢-٦٩
٤-أنواع أخرى من التقديم	٦٩-٧١
الفصل الثالث : **التعريف والتنكير في حاشية شيخ زادة**	٧٢-١٠٣
توطئة : التعريف	٧٢-٧٣
المحور الأول : طرق التعريف وأغراضه عند شيخ زادة	٧٣-٩٢
١-التعريف باسم الإشارة وأغراضه البلاغية	٧٣-٨٣
٢-التعريف بـ(آل) وأغراضه البلاغية	٨٣-٩١
أ- التعريف بلام الجنس	٨٤-٨٩
ب- التعريف بلام العهد الخارجي	٨٩-٩١
٣- التعريف بالاسم الموصول وأغراضه البلاغية	٩١-٩٢
المحور الثاني : التنكير وأغراضه عند شيخ زادة	٩٣-١٠٣
توطئة : التنكير	٩٣-٩٤

- تنكير المسند إليه وأغراضه البلاغية	٩٤-٩٧
- تنكير المسند وأغراضه البلاغية	٩٧-٩٩
- التنكير في غير المسند والمسند إليه وأغراضه البلاغية	٩٩-١٠٣
الفصل الرابع : **الذكر والحذف في حاشية شيخ زادة**	١٠٤-١٢١
توطئة : الذكر والحذف	١٠٤-١٠٥
المحور الأول : الذكر	١٠٥-١١١
١- ذكر المسند إليه والمسند وأغراضه البلاغية	١٠٥-١٠٧
٢- الذكر في غير المسند والمسند إليه وأغراضه البلاغية	١٠٧-١١١
المحور الثاني : الحذف	١١١-١٢١
١- حذف المسند إليه وأغراضه البلاغية	١١١-١١٣
٢- حذف المسند وأغراضه البلاغية	١١٣-١١٧
٣- حذف المتعلقات وأغراضه البلاغية	١١٧-١٢١
الفصل الخامس : **الفصل والوصل في حاشية شيخ زادة**	١٢٢-١٤٦
توطئة : الفصل والوصل في اللغة والاصطلاح	١٢٢-١٢٣
المحور الأول : مواضع الفصل والوصل عند شيخ زادة	١٢٣-١٣٦
١- مواضع الفصل	١٢٣-١٣٣
٢- مواضع الوصل	١٣٣-١٣٦
المحور الثاني : الوصل بالحروف وأغراضه البلاغية عند شيخ زادة	١٣٧-١٤٦
١- الوصل بالواو	١٣٧-١٣٨
٢- الوصل بـ(ثمَّ)	١٣٨-١٤١

٣- الوصل بالفاء	١٤١-١٤٦
الفصل السادس: **الإيجاز والإطناب والمساواة في حاشية شيخ زادة**	١٤٧-١٨٠
المحور الأول : معنى الإيجاز وأنواعه	١٤٧-١٦٠
١- إيجاز الحذف وأغراضه البلاغية	١٤٨-١٥٨
٢- إيجاز القصر وأغراضه البلاغية	١٥٨-١٦٠
المحور الثاني : معنى الإطناب وأشكاله	١٦١-١٨٠
توطئة	١٦١-١٦٢
١- الاعتراض وأغراضه البلاغية	١٦٢-١٦٤
٢- التكرير وأغراضه البلاغية	١٦٤-١٦٧
٣- الإيضاح بعد الإبهام وأغراضه البلاغية	١٦٧-١٧٠
٤- عطف الخاص على العام وأغراضه البلاغية	١٧٠-١٧٤
٥- التذييل وأغراضه البلاغية	١٧٤-١٧٥
٦- وضع الظاهر موضع المضمر وأغراضه البلاغية	١٧٥-١٧٩
المحور الثالث : المساواة	١٧٩-١٨٠
الباب الثاني **عِلْمَا البيان والبديع في حاشية شيخ زادة**	١٨١-٢٩٠
الفصل الأول : **علم البيان في حاشية شيخ زادة**	١٨١-٢٥٤
توطئة : البيان في اللغة والاصطلاح	١٨١-١٨٢
المحور الأول : التشبيه عند شيخ زادة	١٨٢-١٩٤

١- أركان التشبيه	١٨٣-١٨٤
٢- أنواع التشبيه	١٨٤-١٩٤
أ- التشبيه البليغ	١٨٥-١٨٧
ب- التشبيه التمثيلي	١٨٧-١٩٤
المحور الثاني : الحقيقة والمجاز عند شيخ زادة	١٩٥-٢١٨
توطئة	١٩٥-١٩٨
١- الحقيقة والمجاز في اللغة والاصطلاح	١٩٨-١٩٩
٢- أقسام المجاز عند شيخ زادة	١٩٩-٢١٨
أ- المجاز العقلي وعلاقاته وأغراضه البلاغية	١٩٩-٢٠٨
ب- المجاز اللغوي (المرسل) وعلاقاته	٢٠٨-٢١٨
المحور الثالث : الاستعارة	٢١٩-٢٤٥
١- الاستعارة في اللغة والاصطلاح	٢١٩-٢٢١
٢- صور الاستعارة عند البلاغيين	٢٢١-٢٢٢
٣- صور الاستعارة عند شيخ زادة	٢٢٢-٢٤٥
المحور الرابع : الكناية والتعريض عند شيخ زادة	٢٤٥-٢٥٤
١- الكناية في اللغة والاصطلاح	٢٤٥-٢٤٧
٢- أقسام الكناية	٢٤٧
٣- الكناية القرآنية وأغراضها البلاغية عند شيخ زادة	٢٤٧-٢٥١
٤- التعريض عند شيخ زادة	٢٥١-٢٥٤
الفصل الثاني : علم البديع في حاشية شيخ زادة	٢٥٥-٢٩٠

توطئة : البديع في اللغة والاصطلاح	٢٥٥-٢٥٧
المحسنات المعنوية عند شيخ زادة	٢٥٧-٢٩٠
١- المشاكلة	٢٥٧-٢٦١
٢- الالتفات	٢٦١-٢٧٤
٣- التجريد	٢٧٤-٢٧٧
٤- اللف والنشر	٢٧٧-٢٧٩
٥- الاستخدام	٢٧٩-٢٨١
٦- المبالغة	٢٨١-٢٨٤
٧- الاستطراد	٢٨٤-٢٨٥
٨- العكس والتبديل	٢٨٥-٢٨٨
٩- التهييج والإلهاب	٢٨٨-٢٩٠
الخاتمة	٢٩١-٢٩٦
المصادر والمراجع	٢٩٧-٣٠٦
ملخص الرسالة باللغة الانكليزية	A-C

المقدمة

المقدمة

الحمْدُ للهِ الفَاشِي حَمْدُهُ والغَالِبِ جُنْدُهُ والمُتَعَالِي جَدُّهُ أحْمَدُهُ على نِعَمِهِ التُّوامِ وآلائِهِ العِظَامِ الذي عَظُمَ حِلْمُهُ فعفا وَعَدَلَ في كُلِّ ما قضَى وعَلِم ما يمضِي وما مضى ، الباعث رسوله المصطفى ، عَلم الهدى الذي أضاءت بنور وجهه وبفصاحة ضادهِ دياجي جزيرة العرب ، وعلى آله دعائم الإسلام وولائج الاعتصام وسلم تسليماً كثيرا .

أما بعد فإن البلاغة العربية تمثل مرحلة السمو والارتقاء التي وصلت إليها اللغة ، والشغفُ بها جزءٌ من الشغفِ بالقرآن الكريم إذ ارتبطت به في الأذهان، فأخذت تجذب الألباب والعقول حتى أسرتها بطوقٍ من الانبهار، لذلك كان اختياري لميدانها اختيار محبٍ لتحقيق التواصل وبغيتي منها الوقوف على جديدها في التعبير القرآني.

فأخذ الأمر يتحقق ، باختيار الدراسة لعلم من أعلام العربية وهو (شيخ زادة) ، الذي تمثل مرحلته وهي القرن العاشر ، مرحلة النضج والاستقرار للبلاغة من ناحيتين : التذوق والتقعيد ، وما يمكن ان يضيفه شيخ زادة على البلاغة العربية من جديد وفق منظور قرآني ، فكان المنهج لإظهار جهده قائماً على أساس المقارنة بين الجهد النظري للبلاغة عند العلماء مع الجهد التطبيقي للبلاغة متمثلاً به .

وقد انتظمت الرسالة لديّ وفق هذا المنهج في تمهيد ، وبابين تضمنا مجموعة فصول وخاتمة .

أما التمهيد فقد جاء في محورين : الأول تضمن الحديث عن حياة شيخ زادة وآثاره العلمية وتضمن المحور الثاني نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في تطور مباحث البلاغة إلى عصر شيخ زادة .

ثم خصصت الباب الأول للحديث عن (علم المعاني في حاشية شيخ زادة) فتكون من ستة فصول كان الفصل الأول الخبر والإنشاء ،والثاني التقديم والتأخير والثالث التعريف والتنكير والرابع الذكر والحذف والخامس الفصل والوصل أما الفصل السادس من هذا الباب فكان الإيجاز والإطناب والمساواة .

فيما خُصِصَ الباب الثاني لـ(علمي البيان والبديع في حاشية شيخ زادة) فتضمن فصلين الأول علم البيان وتكون من أربعة محاور هي (التشبيه والحقيقة والمجاز

والاستعارة والكناية) ، وتضمن الفصل الثاني الحديث في (علم البديع في حاشية شيخ زادة) وقد حوى فنون البديع كـ(المشاكلة والالتفات والتجريد واللف والنشر والاستخدام والمبالغة والاستطراد والعكس والتبديل والتهييج والإلهاب) .

ثم أوجزت خاتمة البحث أهم الأسس النظرية عند شيخ زادة كما بينت معالم منهجه التطبيقي العام وأهم موضوعاته البلاغية التي ناقشها وطريقتهُ فيها .

ومما يجدر الإشارة إليه ان تفاوت صفحات الرسالة في الكم لم يكن اضطراباً أو تخلخلاً في المنهج ، وإنما لكون شيخ زادة جعل جُلّ اهتمامه بعلم المعاني ، وهي نظرة أغلب علماء البلاغة والإعجاز بالنسبة لعلم المعاني ، إذ فسروا الإعجاز القرآني على أساس نظمهِ الذي يعد علم المعاني ميداناً لدراستهِ ، كما انهم جعلوه عَموداً للبلاغة ، كما ان كثرة فصوله بالنسبة إلى غيرهِ جعلت رحلة البحث فيه أطول من غيره.

وكان بيان آراء شيخ زادة وإظهار جهودهِ البلاغية عن طريق الرجوع إلى الجهود السابقة لمعرفة جديده في الدرس البلاغي لذلك كانت هناك مصادر معينة تحت أنظارنا في البحث بعضها بلاغية وأخرى تفسيرية ، فمن المصادر البلاغية التي اعتمدتها الرسالة دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للجرجاني (ت٤٧١هـ) ، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي (ت٦٠٦هـ) ، ومفتاح العلوم للسكاكي (ت٦٢٦هـ) ، والمثل السائر لابن الأثير (ت٦٣٧هـ) ، والإيضاح للقزويني (ت٧٣٩هـ) ، أما المصادر التفسيرية فهي كثيرة ، منها تفسير الكشاف للزمخشري (ت٥٣٨هـ) ، وتفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (ت٦٨٥هـ) ، وتفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود (ت٩٨٢هـ) ، والتحرير والتنوير لابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) .

أما الدراسات الحديثة في البلاغة فكثيرة هي من اعتمدتها الرسالة ، على سبيل المثال المعاني في ضوء أساليب القرآن والبيان في ضوء أساليب القرآن لعبد الفتاح لاشين ، والبلاغة والأسلوبية لمحمد عبد المطلب ، ومعجم المصطلحات البلاغية أحمد مطلوب ، والتعبير الفني في القرآن الكريم لبكري شيخ أمين .

ولم يكن الطريق مُعبَداً أمامي ، بدراسات تبين جانباً من بلاغة شيخ زادة ، لذلك كان واجباً عليَّ ان أظهرها جميعها في ميادينها الثلاثة (المعاني والبيان والبديع)

فنهضت لهذه المهمة ، وأرجو ان أكون قد وُفِقتُ لها بمنةٍ منه وتسديد .

وفي نهاية المطاف لابدّ من القول ، بأن الطريق في البحث كان طويلاً يحتاجُ المرءُ فيهِ إلى رفيقٍ صدوق ، يُقيل العثرات ويهدي إلى سبيل الصواب وقد كان ذلك الرفيق استاذتي المشرفة التي منحتني عنوان الرسالة ، متفضلة عليَّ بذلك ، كما انها أمدتني بالملاحظات التي قوّمت الرسالة ، ولم تبخل عليّ بالمنفعة العلمية ، وكذلك فأني مدينة بالكثير لأساتذتي في كليتي التربية والآداب ، الذين يسعون لتطوير الأجيال وتقدمهم العلمي .

وأخيراً فأن أيّ نص ما خلا النص القرآني لابدّ وان يعرض لهُ الزلل والخطأ ، إذ انه نتاج ذلك العاجز الذي إذا علِمَ شيئاً غابت عنهُ أشياءُ ، فإن كان الخطأ شيمة المبتدئين فأن شيمة العلماء إيضاحها وبيان صوابها والله الموفق نِعم المولى ونِعم النصير .

التمهيد

حياة شيخ زادة وأثر نظرية الإعجاز في تطور مباحث البلاغة

المحور الأول : حياة شيخ زادة وآثاره العلمية :

اسمه ولقبه

ذكر المترجمون لحياته لقباً واسماً محددين هما (محيي الدين محمد شيخ زادة) إلا انهم اختلفوا في اسم أبيه ولقبه تقديماً وتأخيراً فذكروا فيه آراء منها :

١-انه محيي الدين محمد ابن الشيخ العارف بالله تعالى مصلح الدين القوجوي[١].

٢-انه ((محيي الدين محمد بن مصطفى القوجوي الحنفي))[٢] .

٣-انه ((محمد بن محيي الدين بن مصطفى مصلح الدين القوجوي))[٣] .

٤-انه ((محمد بن مصلح الدين مصطفى القوجوي محيي الدين الحنفي المعروف بشيخ زادة))[٤] .

ويمكن ان نقول مما تقدم من آراء المترجمين ومما توحي به حاشيته في عنوانها انه : (محيي الدين) محمد بن مصطفى (مصلح الدين) القوجوي الحنفي المشهور بـ(شيخ زادة) .

ولادته ، ونشأته ، ووفاته

ذكرت المصادر ان حياته كانت بالقسطنطينية ، إذ كان مدرساً فيها ، فقد دَرّسَ بمدرسة خواجة خير الله بالقسطنطينية[٥] . وقد انتفع من علمه كما ذُكر الطلاب والعلماء على السواء ، ثم آثر العزلة فترك التدريس وأقبل على العلم والعبادة في بيته ومسجده .

وبين طاشكبري زادة (ت٩٦٨هـ) ، وهو معاصر لشيخ زادة حياته العامة في غير التدريس بقوله : ((وكان يروي التفسير في مسجده ويجتمع إليه أهل البلد ويستمعون كلامه ويتبركون بأنفاسه وانتفع به كثيرون))[٦] . وكان اجتماع الناس في مسجده

---

(١) ينظر : العقد المنظوم ، طاشكبري زادة : ٢٤٥/١ .

(٢) شذرات الذهب ، الحنبلي : ٢٨٦/٨ .

(٣) الاعلام ، الزركلي : ٩٩/٧ .

(٤) هدية العارفين ، اسماعيل باشا البغدادي : ٢٣٨/٦ .

(٥) ينظر : هدية العارفين : ٢٣٨/٦ ، والعقد المنظوم : ٢٤٥/١ ، وشذرات الذهب : ٢٨٦/٨ .

(٦) العقد المنظوم : ٢٤٥/١ .

لتواضعه ولتخشعه إذ وصفه طاشكبري زادة بقوله : ((كان متواضعاً متخشعاً مرضي السيرة محمود الطريق وكان محباً لأهل الصلاح))[١] . ولم يختص بتدريس العلوم الدينية فقط في تلك العزلة ، ولكن كما يظهر انها كانت مرحلة لتأليف الشروح والحواشي في الفقه وفروع الدين وفي التأليف البلاغي كما سيظهر في بيان آثاره العلمية ، وقد كانت وفاته بين (٩٥٠هـ)[٢] و (٩٥١هـ)[٣] عند أغلب المترجمين لحياته. ولعل سنة (٩٥٠هـ) أقرب لكون طاشكبري زادة هو الذي ذكرها وهو معاصر للشيخ زادة ومطلع على حياته .

ثقافته وآثاره العلمية

ذكرت المصادر التي ترجمت لحياته أنه مفسرٌ وعالمٌ رباني[٤] ، يروي التفسير في مسجده[٥] ، وكما هو معروف فان للمفسر ثقافة موسوعية لكل علوم اللغة والدين والبلاغة خصوصاً ، ووصفه بكونه مفسراً وعالماً ربانياً يدل على انه مستوعب لهذه العلوم ، وكذلك فإن مؤلفاته في صنوف علوم اللغة والتفسير تدل على موسوعية ثقافته فمن مؤلفاته التي ذكرها العلماء .

١-الحاشية على أنوار التنزيل وأسرار التأويل

وهي مجلدات أربعة في شرح تفسير البيضاوي المسمى بـ(أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ، الذي يعد من أعظم التفاسير إذ يقول الذهبي في وصفه : ((من أمهات كتب التفسير التي لا يستغنى عنها من يريد ان يفهم كلام الله تعالى ويقف على أسراره ومعانيه))[٦] . وهو مختصر لتفسير الزمخشري[٧] . لذلك كان محط اهتمام من قبل العلماء ، ومنهم شيخ زادة الذي شرح تفسيره وأبان وأوضح في أسرار النص القرآني فيه ، فكانت حاشيته كما يرى العلماء مكملة لتفسير الزمخشري والبيضاوي ومميزة بميزات

---

(١) المصدر السابق : ٢٤٥/١ .

(٢) ينظر : المصدر السابق : ٢٤٥/١ ، وشذرات الذهب : ٢٨٦/٨ .

(٣) ينظر : هدية العارفين : ٢٣٨/٦ ، والاعلام : ٩٩/٧ .

(٤) ينظر : العقد المنظوم : ٢٤٥/١ ، وشذرات الذهب : ٢٨٦/٨ ، والاعلام : ٩٩/٧ .

(٥) ينظر : شذرات الذهب : ٢٨٦/٨ .

(٦) ينظر : التفسير والمفسرون ، الذهبي : ٢٥٩/١ .

(٧) التفسير والمفسرون : ٢٥٤/١ .

، إذ يقول الحنبلي (ت١٨٠٩هـ) في وصفها انها ((جامعة لما تفرق من الفوائد في كتب التفسير))[١] . وقيل فيها أيضاً انها ((من أعظم الحواشي نفعاً وأكثرها فائدة وأسهلها عبارة كتبها على سبيل الإيضاح والبيان في ثمان مجلدات ثم اختصرها بعد ذلك في أربع مجلدات فعمت بركتها واستعملها العلماء وانتفع بها الطلاب وأفادوا ببركة زهده وورعه))[٢] .

ولعل هذه الدراسة يمكن ان تكشف عن مميزات هذه الحاشية بالمقارنة مع جهود المفسرين والبلاغيين وإظهار ما أشارت إليه هذه الحاشية من دقائق المعاني القرآنية وصنوف البيان وروائع البديع التي ملأتها ببركة علم هذا المفسر الجليل .

٢-شرح (مفتاح العلوم) في المعاني والبيان للسكاكي[٣] ، ومن خلال عنوان هذا الشرح يتضح ان ذائقته البيانية القرآنية كانت مستقاة من مؤلفات العلماء الكبار كالسكاكي ، وشرحه لمؤلفهِ يدل على سعة هذه الذائقة البلاغية لديه

٣-تعليقه على شرح الهداية لابن مكتوم وهو في الفروع[٤] . ولم أطلع عليه – على حد علمي – مطبوعاً .

٤-شرح فرائض السراجية للإمام (سراج الدين محمد بن محمود بن عبد الرشيد السجاوندي)[٥] . وهو غير مطبوع .

٥-شرح قصيدة البردة الموسوم بـ(الكواكب الدُرية في مدح خير البريّة)[٦] . وذكر صاحب الأعلام[٧] ، انها مطبوعة باستانبول .

٦-شرح (مشارق الأنوار النبوية من صحاح الأخبار المصطفوية) للإمام رضي

---

(١) شذرات الذهب : ٢٨٦/٨ .

(٢) طبقات المفسرين ، أحمد الادنروي : ٣٨٢/١ ، وينظر : الأعلام : ٩٩/٧ .

(٣) ينظر : هدية العارفين : ٢٣٨/٦ ، والعقد المنظوم : ٢٥٩/١ ، ٢٤٥/١ ، وشذرات الذهب : ٢٨٦/٨ ، والأعلام : ٩٩/٧ .

(٤) ينظر : هدية العارفين : ٢٣٨/٦ .

(٥) ينظر : العقد المنظوم : ٢٤٥/١ ، وهدية العارفين : ٢٣٨/٦ ، وشذرات الذهب : ٢٨٦/٨ .

(٦) ينظر : العقد المنظوم : ٢٤٥/١ ، وشذرات الذهب : ٢٨٦/٨ ، والأعلام : ٩٩/٧ .

(٧) ينظر : الأعلام : ٩٩/٧ حاشية رقم (٢) .

الدين حسن بن محمد الصاغاني (ت٦٥٠هـ)[١] ، وذُكِر في الأعلام[٢] انها مطبوعة في استانبول .

٧-شرح (الوقاية في مسائل الهداية) للإمام برهان الشريعة محمود بن صدر الشريعة الأول عبيد الله المحمودي[٣] . وهي في الفقه الحنفي ، ولم أطلع عليه مطبوعاً.

(١) ينظر : هدية العارفين : ٢٣٨/٦ ، والأعلام : ٩٩/٧ .

(٢) ينظر : الأعلام : ٩٩/٧ حاشية رقم (٢) .

(٣) ينظر : شذرات الذهب : ٢٨٦/٨ .

المحور الثاني : نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في تطور مباحث البلاغة إلى عصر شيخ زادة

القرآن الكريم نصٌّ معجز يخاطب فيه الخالق سبحانهُ وتعالى عباده بلسان قومٍ كانت مواطن البلاغة والبيان مواطنهم والفصاحة منابع ارتوائهم لا يُفطم لهم فطيم عن مشارب البلاغة ولا يشيب لهم كبير عن الفصاحة والبيان ، إذ يقول تعالى في وصف اللسان الذي نزل فيه القرآن : ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣] .

فنزل وفيه كل طرق الهداية المعجزة وأدواتها التي لا تحصى فهو من طرق الارتقاء اللغوي والبياني وأداتها معرفة لغة العرب كما ان فيه معاريج للروح تفتح للذهن البشري ما استغلق عليه من عالم الغيب كلما عجز عالم الحس عن البيان والتصوير كما انه من أدوات التواصل بين الخالق والمخلوق ، وانه نهج وتوجيه لمسار الحياة ، وعلى الرغم من انتشار هداياته كانتشار الضوء في النهار انتشاراً محسوساً وفوائده ملموسة ، إلا انه قوبِلَ بقومٍ لدٍ حاجوا فيه بجهلهم ، فواجههم النص القرآني بالتحدي فأخرس ألسنتهم ، لكونه : ((بلغ في روعة بيانه وبلاغته وتجديده في أساليب البيان إلى درجة جعلت منه حتى من وجهة نظر غير المؤمنين بربانيته حداً فاصلاً بين مرحلتين من تاريخ اللغة العربية وأساساً لتحول هائل في هذه اللغة وأساليبها ، وقد أحس العرب الذين حدّثهم النبي ﴿ﷺ﴾ بالقرآن بأنه لا يشبه إطلاقاً ما ألفوه من أساليب البيان وما نشأوا عليه وأتقنوه من طرائق التعبير))[١] .

وأدى الانبهار والافتتان بجمال النص المقدس ورقي مستواه البلاغي ، إلى جعل المؤمنين به ينقبون عن المعادن النفيسة والجواهر المرصعة فيه فبدأوا بلغته وتفسيرها ، فانطلقت الدراسة القرآنية وكانت بدايتُها مع ابن عباس[٢] (ت٦٨هـ) إذ كشف عن الألفاظ ذات المعاني التي لم تكن شائعة ، إذ كانت مستغلقة الفهم على من هم دون فصاحة اللفظ القرآني فأفصح عن دلالتها في سياقات وأساليب عربية تتضمنها ، ثم تطورت هذه المرحلة إلى التأليف في لغة القرآن من خلال مؤلفات حملت عنوان

(١) الإعجاز بين النظرية والتطبيق ، السيد كمال الحيدري : ١٦٦ .

(٢) ينظر : مسائل نافع بن الازرق ضمن (الإعجاز البياني للقرآن) ، عائشة عبد الرحمن : ٣٠٩ وما بعدها .

(معاني القرآن) للكسائي (ت١٨٩هـ) ، والأخفش (٢١٥هـ) ، وبعضهم ألف في لغات القرآن كالأصمعي (ت٢١٠هـ) ، وآخرون أطلقوا تسمية (غريب القرآن) على مؤلفاتهم كأبي عبيدة (ت٢١١هـ)[١] ، فكانت دراساتهم لغوية تتعلق بالألفاظ والمعاني وأثرها في بلاغة الكلام ، وهي لمحات كمُنَ فيها الإعجاز القرآني.

وبعدها نشأت حركة نقدية تبحث في جمالية الكلام البليغ وإرجاع الأفضلية فيه أما إلى اللفظ واما إلى المعنى[٢] ، وقد أثرت هذه الحركة على الدراسات القرآنية فأخذ بعض العلماء يناصر اللفظ والآخر يناصر المعنى ، نتجت أثرها فرقة من العلماء تناصر النظم لصد الجدل في قضية اللفظ والمعنى ، فجاء الجاحظ (ت٢٥٥هـ) بآراء تُرجع الإعجاز إلى ذات القرآن ونظمه وما اشتمل عليه من توخي العلاقات بين آياته بعضها ببعض والكلمات بعضها ببعض[٣] . وكان رأيه هذا بداية عصر جديد لبحث الإعجاز القرآني من خلال نظمه وبلاغته التي شغلت الباحثين على مرّ الدهور ، فكان للقرآن الكريم أثر في دراسة مباحث تطورت فيما بعد لتكوّن أنظمة هذه اللغة وأساليبها الجديدة ومنها النظم إذ تعد دراسة النظم من أولى المباحث البلاغية التي كانت محط اهتمام علماء الإعجاز والبلاغة ، وبدت ملامحها جلية في معالجات الخطابي (ت٣٨٨هـ) في بيان إعجازه ، إذ جعله في نظمه البليغ وموقع كل كلمه فيه مع نظريتها إذ يقول : ((وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور فيه في غاية الشرف والفضيلة ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلائماً وتشاكلاً من نظمه ... فتفهم الآن وأعلم ان القرآن إنما صار معجزاً لانه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني))[٤].

ويقول أيضاً في بلاغة ترابط ألفاظه في نظم معجز بـ((وضع كل نوع من الألفاظ

---

(١) ينظر : التعبير الفني في القرآن الكريم ، د. بكري شيخ أمين : ١٥٠-١٥١ .

(٢) ينظر : نظرية عبد القاهر في النظم ، درويش الجندي : ٢٢ ، وقضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة ، علي العماري (أطروحة دكتوراه) : ٩٩

(٣) ينظر : المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز ، د. أحمد العمري : ٩٣ .

(٤) بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) : ٢٧ .

التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا أُبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة))[١] . فطريقة اختيار الألفاظ اختياراً مقصوداً ليلائم الغرض المسوق لأجله النظم بأكمله لم يكن مألوفاً في جنس الكلام العربي البليغ ، وقد افاد الجرجاني (ت٤٧١هـ) من أطروحة الخطابي في النظم واحتذى أثرها للكشف عن أدوات التمكن من فهم مواطن الإعجاز من مراعاة معاني النحو التي توفر للمتلقي معرفة تراتب الألفاظ في السياق المألوف ، للكشف عن جمالية العدولات لغير المألوف في النص القرآني فعالج الجرجاني نظرية النظم برؤية قرآنية إذ ردّ جمال الأسلوب القرآني إلى المعاني الإضافية للتعبير من تقديم وتأخير وتعريف وتنكير وذكر وحذف وقصر ووصل وفصل وما إلى ذلك من خصائص العبارات البليغة[٢] .

وأفاد الزمخشري (ت٥٣٨هـ) من دراسة الجرجاني (ت٤٧١هـ) التحليلية لفهم النص القرآني المعجز وتذوقه ، ليفسر بها القرآن الكريم تفسيراً بلاغياً تطبيقياً فقد ((أراد الزمخشري ان يقيم أدلة الإعجاز وشواهده من آيات القرآن ... وان يجعل القرآن كلهُ مجالاً للناظرين في الإعجاز والباحثين عن مواقعه في كتاب الله فألف تفسيره))[٣] . من خلال البحث في نظمه ، ونظم الكلام كما يتصورها الزمخشري يعني بيان الروابط والعلاقات بين الجمل وكيف يأخذ بعضه بحجزة بعض وموضوع النظم لديه بحث علاقة الجملة بالأخرى وبيان وجه ارتباطها وإذا كان علم النحو يبين مواضع مفردات الجملة ، فان علم النظم هو الذي يبحث عما وراء هذه الصناعة النحوية ويفسرها ويكشف عن ألوان المعاني وأسرارها ويبرز النكت والأغراض من وراء ذلك[٤] .

وأما شيخ زادة فذهب مع القائلين بأن إعجاز القرآن في نظمه ، إذ يقول : ((ان

---

(١) بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) : ٢٩ .

(٢) ينظر : دلائل الإعجاز : ٨١-٨٢ ، البلاغة تطور وتاريخ ، د. شوقي ضيف : ٢٢٠ .

(٣) الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم ، محمد كريم الكواز (أطروحة دكتوراه) : ٢٢٠ .

(٤) ينظر : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية ، د. محمد حسنين أبو موسى : ١٨٨-١٨٩ .

إعجازه ... كونه كتاباً بالغاً أقصى مراتب الكمال في نظمه ومعناه))[1] . ويقول : ((أُنزِل القرآن ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله من نظم معجز للخلق))[2] . ويعلق على آية التحدي في قوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨] قائلاً بعجزهم عن الإتيان بمثل نظمه : ((ان هذه الآية دلت على وقوع التحدي من الجن والإنس فلما عجز كل واحدٍ من الفريقين عن إتيان مثله ظهر ان القرآن ليس من نظم هذين الفريقين))[3] .

ولو تتبعنا استعماله لمصطلح النظم في معالجاته القرآنية لوجدنا انه يدل على انتظام الجمل وفق ارتباطات ذهنية بطريقة غير مألوفة ، لأداء أغراض ، إذ ان هذه الارتباطات والانتظامات لا تكون اعتباطية بل لتأدية أغراض بلاغية فينبه شيخ زادة على كون قوله تعالى : ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة:١-٣] ، جملاً منتظمة يرتبط بعضها مع بعض وفق ارتباطات ذهنية لتؤدي بتراتبها العجيب نكتاً وأغراضاً بلاغية[4].

كما بيّن ان نظم القرآن يتميز بخروجه عن المألوف الاستعمالي لذلك تراه لا يخضع للقواعد الاستعمالية الشائعة التي بُنيت عليها القواعد العامة ، فالنظر في نظم القرآن يكشف عن جمالية اللغة عندما تعبر عن المعاني الكامنة في النفس وذلك لما يتميز به من انزياحات وعدولات لتوفير دلالات ثانوية . ويظهر ذلك جلياً في تعليق شيخ زادة على قوله تعالى : ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر:٢] إذ يفسر نظم الآية وغرضها بالقول : ((ان الظاهر ان يقال وظنوا ان حصونهم تمنعهم أو مانعتهم من بأس الله لأن متعلق ظنهم إنما هو ان تمنعهم وثاقة الحصن من ان يظفر عليهم أحد والعبارة الظاهرة في تأدية هذا المعنى ما ذكر من العبارة والذي عليه النظم مخالف للظاهر من وجهين الأول تقديم الخبر على المبتدأ

(١) حاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوي : ٨٠/١ .
(٢) الحاشية : ٧٣/٣ .
(٣) الحاشية : ٢٤١/٣ .
(٤) ينظر : الحاشية : ٨٠/١ .

والثاني إيراد لفظ لا حاجة إليه وهو الضمير الذي جعل اسم ان إلا انه غُيرت العبارة الظاهرة إلى ما عليه نظم التنزيل لما ذكره المصنف من الدلالة وتوضيح المقام ان البلاغة وإن كانت كناية عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال إلا ان مقتضى الحال ليس منحصراً فيما يقتضيه الحال بحسب الظاهر ، فأن البلغاء كثيراً ما يخرجون الكلام على خلاف مقتضى ظاهر الحال لاقتضاء الحال بحسب غير الظاهر ذلك الإخراج فان شأنهم النظر إلى جانب المعنى ووضوح الكلام على وجه يؤدي إلى ما قصدوه من الأغراض وان أدى ذلك إلى ما يعده النحوي خلاف الظاهر كما في هذه الآية فانه قدم فيها الخبر على المبتدأ ليفيد قصر الموصوف على الصفة على معنى ان حصونهم ليس لها صفة غير المانعية فتقديم الخبر مع كونه خلاف الظاهر دل على فرط وثوقهم بكونها حصينة بحيث ظنوا انه لا يخرجهم منها أحد وكذا إسناد الجملة إلى ضميرهم ، فان أصل المعنى وان أدى إلى ان يجعل حصونهم اسم ان ومانعتهم خبرها إلا انه لما جعل اسم ان ضميراً وجعلت الجملة خبرها حصل تقوي الحكم بتكرار الإسناد كما حصل بكلمة ان المشددة فدل الكلام على اعتقادهم في أنفسهم انهم في عزة ومنعة بسببها))[1] .

ويمكن ان نتبين من نص شيخ زادة أمرين :

الأول : فهم لغة العرب ونظمها والتزود بمعرفتها يكشف لنا عن نظم القرآن ومكامن إعجازه ، ولكن مع الاحتراز من تطبيق القاعدة المأخوذة من كلام العرب على النص القرآني بل تستعمل كأداة لفهم النص والوقوف على أسراره .

والآخر : ان العدول عن المألوف في النص القرآني يكشف عن دلالة وغرض بلاغي يريد السياق القرآني الكشف عنه وإيصاله إلى المتلقي .

وبيّن شيخ زادة ان ما أعجز العرب في نظمه هو محتواه ، إذ ان محتوى النظم القرآني ثري بالكمالات اللغوية والعقلية والعرب وان كانوا أصحاب أنظمة لغوية متطورة إلا ان محتوى نظمهم لا يرتقي بمعارفه إلى معارف القرآن ومستواه الفكري ، إذ يقول شيخ زادة : ((ما أُشير إليه بقوله تعالى (وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا

(١) الحاشية : ٤/٤٧٠ .

بسورة من مثله) وهو ان يجربوا أنفسهم ويمتحنوا مبلغ طاقاتهم في نظم الكلام البليغ المنبيء عن المعارف المتعلقة باستكمال النفس بحسب القوة النظرية والعلمية))[١].

ولا تقتصر بلاغة النظم القرآني كما يرى شيخ زادة على علائق المعاني فيما بينها وترتبها تبعاً لترتب الأغراض بالذهن ولا على محتوى هذا النظم من معارف عقلية ولغوية بل تتعداها إلى قوة تأثير محتواه وأسلوبه ، لإقامة الدليل ودحض الحجج إذ يُرخي النظم القرآني العنان للجدل ، ويأخذها بالنظر لكي يرد عليها بنظمٍ مؤثر بالنفس بأسلوبه اللطيف وحججه الظاهرة فيبطل جماح المعارضين بالدلائل الكونية التي تشهد لها فطرة الإنسان[٢] ، وكذلك بتراتب ألفاظه تراتباً دلالياً ، وطريقة اختياره للفظة[٣] ، وعلاقة الألفاظ المتناظرة مع سياقات ورودها[٤].

ومما هو جزء من إعجاز النظم الإعجاز بالبلاغة فقد وجهت نظرية النظم الباحثين إلى دراسة الأساليب البلاغية وقد أثر النص القرآني بالمتلقي الأول ، لكونه أدرك إعجازه إدراكاً فطرياً ، إذ انه نزل بذوق وفصاحة وبلاغة لا يُدركُ كنه عظمتها فكانت المرحلة الأولى من التأثير به مرحلة التذوق والاستيعاب للغته ولمعانيه ونظمه ، ثم تطورت هذه المرحلة للبحث عن مكامن إعجازه فأخذوا يبحثون عما يميز نظم النصّ المقدس عن غيره.

فكان ((البحث عن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم سبيلاً وطريقاً للوقوف على البلاغة العربية بعلومها المختلفة فقد دعاهم البحث في الإعجاز إلى الخوض بالضرورة في البحوث البلاغية فأخذوا يدرسون فنون البلاغة العربية كي يقفوا منها على سرّ الجمال في التعبير القرآني وكشف النواحي التي من أجلها عجز العرب عن ان يأتوا بأقصر سورة))[٥] .

فكان المنهج الذي اتبعوه في الكشف عن إعجاز القرآن منهجاً بيانياً ، إذ اهتموا

---

(١) الحاشية : ١٩٩/١ .

(٢) ينظر : الحاشية : ٦٧٥/٤ .

(٣) ينظر : الحاشية : ٣١٨/٤ .

(٤) ينظر : الحاشية : ٥٩٤/١ ، وينظر : ٦٢١/١ .

(٥) المباحث البلاغية في ضوء الإعجاز القرآني : ٣٤ .

ببلاغة القرآن في صوره البيانية من تشبيه وكناية وتمثيل وما يتفرع عن ذلك من استعمال حقيقي أو مجازي أو استدراك لفظي أو استجلاء للصورة أو تقويم للبنية أو تحقيق في العلاقات اللفظية والمعنوية أو كشف للدلالة بحثاً في جوهر الإعجاز القرآني لاستكناه البلاغة فيه[١] .

ولعل ظهور المسحة البلاغية على المؤلفات القرآنية كانت عند أبي عبيدة (ت٢١١هـ) في مجازه ، وهو وان لم يقصد بعنوانه المعنى البلاغي للمجاز وأراد الكشف عن معاني القرآن والطريق إلى معرفتها إلا ان لمساته البلاغية مبثوثة في صفحات مجازه إذ تعرض للكناية[٢] والالتفات أو الانصراف في المخاطبة من غير ان يسميه كفن بلاغي[٣] ، وكذلك ذكر التكرير[٤] والتقديم والتأخير[٥] ، والاستفهام المجازي[٦] ، والحذف[٧] والى غير ذلك من الفنون البلاغية .

ثم أخذت المباحث البلاغية منحىً آخر عند علماء الإعجاز ، فبدأت تكون وجهاً من وجوه الإعجاز يتفسر وينكشف من خلالها جمالية النظم القرآني ومستوى بلاغته العالية .

إذ تطورت المباحث البلاغية عند الرماني[٨] (ت٣٨٦هـ) حتى عدّ البلاغة وجهاً من أوجه الإعجاز السبعة وبين ان بلاغته في الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان مفصلاً في كل فن بلاغي مبيناً خصوصيته الجمالية في السياقات القرآنية .

ثم أصبحت المباحث البلاغية أكثر عمقاً عند الخطابي[٩] (ت٣٨٨هـ) ، الذي

---

(١) ينظر: المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم ، د. محمد حسن الصغير : ١٠٣ .

(٢) ينظر : مجاز القرآن : ١٧ ، ٥٩ ، ٦٩ .

(٣) ينظر : مجاز القرآن : ١٧ ، ٢٠ ، ٢٢ .

(٤) ينظر : مجاز القرآن : ١٧ ، ٢٠ .

(٥) ينظر : مجاز القرآن : ١٤١ ، ١٥١ ، ١٦٤ .

(٦) ينظر : مجاز القرآن : ٧٨ .

(٧) ينظر : مجاز القرآن : ٥٠ ، ٥٤ .

(٨) ينظر : النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) : ٧٦ .

(٩) ينظر : بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) : ٢٧ وما بعدها .

دافع عن أسلوب القرآن الكريم ضد الطاعنين به ، فاستعمل الفنون البلاغية لرد هذه الطعون ، إذ بين ان ما عُورض به القرآن هو في قمة البلاغة والإعجاز للمتفطنين له ، فتطرق إلى عدد من هذه الأساليب ، كاختيار الألفاظ ، والتكرار وزيادة الحروف لبيان سرّ جمال هذه المباحث وفق الاستعمال القرآني لها .

ونضجت الفنون البلاغية عند الجرجاني (ت٤٧١هـ) عندما توغل وفسر نظرية النظم في كتابه (دلائل الإعجاز) للكشف عن ملامح الإعجاز وأدلته من خلال معالجته الأساليب العربية وبيان فنونها البلاغية فاستعمل البلاغة وفق منظور الاستعمال العربي ولكن كوسيلة لفهم القرآن الكريم النازل بلغة العرب وعلى أساليب كلامهم ، فأخذت المباحث البلاغية التي تفسر النظم المعجز للقرآن تزدهر وتتطور ، لأن موضوعها وغايتها فهم بلاغة القرآن لذلك أضاف القرآن كوسيلة فهم إلى البلاغة العربية الشيء الكثير ، ولعل الجرجاني لم يكن مستعملاً الفنون البلاغية لذاتها وإنما كوسيلة للكشف عن إعجاز القرآن الكريم منهجاً انتهى به إلى ان يكون مرجعاً للبلاغة العربية بعدئذٍ ، إذ ((شغل نفسه في الدرجة الأولى بما ينبغي ان يشغل به البلاغي نفسه من بيان القيمة البلاغية لكل باب من هذه الأبواب واستخلاص المعايير العامة من خلال التحليل الفني للنصوص والأمثلة))[١].

فأسس الجرجاني من خلال معالجته النصوص الأدبية ذائقة بلاغية تكشف عن مواطن الإعجاز القرآني وكان هدفه الأسمى بيان بلاغة القرآن ، وفهمه وفق الأسلوب العربي وبدأ هذا الهدف يتحقق عند أكثر العلماء تأثراً به ، ألا وهو الزمخشري (ت٥٣٨هـ) الذي تشبع بروح الجرجاني البلاغية وبمنهجه البلاغي فـ((مضى يطبقهُ تطبيقاً دقيقاً على آي الذكر الحكيم وكأنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة من آراء عبد القاهر إلا ساق عليها الأمثلة النيرة من القرآن الكريم ولم يقف عند ذلك فقد مضى يستتم هذه الآراء مضيفاً اليها من حسه المرهف وعقله الثاقب وخاصة من مباحث المعاني والبيان التي أكمل كثيراً من شُعبها ودقائقها ومقاييسها إكمالاً سديداً))[٢] . فأصبحت البلاغة عند الزمخشري غاية بحد ذاتها وخصّ البلاغة القرآنية بالبحث من بعد أن تم التمكن

(١) المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني : ٢٥١ .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ : ٢٤٣ .

من أدوات البلاغة عند الجرجاني بوساطة البحث في أساليب العرب.

وذهب شيخ زادة إلى أن القرآن الكريم معجز ببلاغته وأخذ يردد هذه المقولة في مواضع من حاشيته ، إذ يقول : ((إن إعجازه ليس إلا لكمال بلاغته بحيث لا يقدر عليه إلا من أحاط بكل شيء قدرة وعلماً))[١]. ويقول : ((وأسكت لغاية فصاحته وكمال بلاغته من تصدى لمعارضته))[٢]. والإعجاز البلاغي في القرآن عند شيخ زادة ليس في آية واحدة أو سورة ولكنه في كل آية من آياته ، إذ يقول : ((والسور كلها مستوية الأقدام في كون كل واحدة منها معجزة متحدى بها بالغة أقصى درجات الفصاحة والبلاغة لا نقصان في شيء منها بالنسبة إلى السور الباقية))[٣] فكان القرآن الكريم بنظر شيخ زادة في كل آياته محلاً للبحث البلاغي .

ونظرة شيخ زادة إلى بلاغة آي القرآن الكريم ، واستعماله للمصطلحات البلاغية بحرية ودقة كانت نتيجة جهود البلاغيين السابقين في تأصيل البلاغة وفنونها وكذلك تطورها إلى ثلاثة فنون كل ذلك أدى إلى ان يكون جهد شيخ زادة جهداً متميزاً ومكملاً لبيان بلاغة القرآن فقد أفاد من بلاغة كبار البلاغيين ، وأضاف إلى بحثهم ما سمح به القرآن الكريم من أساليب بليغة ، ولو قارنا جهده في العلوم الثلاثة مع غيره من البلاغيين لتبين لنا ما أضافه هذا العالم الجليل في المنهج العام على الأقل وهو ما سيتضح في فصول هذه الرسالة.

(١) الحاشية : ٨١/١ .

(٢) الحاشية : ٤/١ .

(٣) الحاشية : ٧٩/١ .

الباب الأول

علم المعاني في حاشية شيخ زادة

الفصل الأول : الخبر والإنشاء

الفصل الثاني : التقديم والتأخير في حاشية شيخ زادة

الفصل الثالث : التعريف والتنكير في حاشية شيخ زادة

الفصل الرابع : الذكر والحذف في حاشية شيخ زادة

الفصل الخامس : الفصل والوصل في حاشية شيخ زادة

الفصل السادس: الإيجاز والإطناب والمساواة في حاشية شيخ زادة

توطئة : المعاني في اللغة والاصطلاح

المعاني في اللغة هي المقاصد إذ يقول ابن منظور : ((ومعنى كل شيء مِحنته وحاله التي يصير اليها أمره ... المعنى والتفسير والتأويل واحد وعَنيتُ بالقول كذا أردت ومعنى كلِّ كلامٍ ومَعْناتُه ومَعْنِيَّتُهُ مَقَصِدُه والاسم العَناء))[١] .

أما في الاصطلاح ، فإن علم المعاني مصطلح أطلقهُ البلاغيون على مباحث بلاغية تتصل بالجملة وما يطرأ عليها من تقديم وتأخير أو ذكر وحذف أو تعريف وتنكير أو قصر أو فصل ووصل أو إيجاز وإطناب أو مساواة[٢] . وقد كانت الإشارة الأولى لهذا الفن بمعناه البلاغي عند ابن فارس[٣] (ت٣٩٥هـ) عندما حصر معاني الكلام في الخبر والإنشاء، ثم ظهرت ملامح هذا العلم وقواعده عند الجرجاني (ت٤٧١هـ) ، من خلال بيانه لنظرية النظم التي فسر بها إعجاز القرآن الكريم ، إذ بين مضمون هذا العلم بقوله : ((واعلم أن ليس (النّظُم) الا ان تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه (علم النحو) وتعمل على قوانينهُ وأصوله وتعرف مناهجه التي نُهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رُسمت لك فلا تُخِلُّ بشيء منها وذلك انا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير ان ينظُر في وجوه كل باب وفروقه ، فينظر في الخبر ... وفي الشرط والجزاء ... وفي الحال ... وينظر في الحروف التي تشترك في معنىً ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كُلاً من ذلك في خاص معناه ... وينظر في الجمل التي تُسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل .. ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام كله وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار فيُصيبُ بكلُ من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له))[٤] .

ففسر الجرجاني إعجازية النظم القرآني من خلال التأمل فيما تحويه تراكيبه من خصوصية الاستعمال وما ينطوي تحته من معان ثانوية من ذكر وحذف وتقديم وتأخير

---

(١) لسان العرب مادة (عنا) : ٤٤٦/٩.

(٢) ينظر : معجم المصطلحات البلاغية ، د. أحمد مطلوب : ٢٧٦/٣ .

(٣) ينظر : الصاحبي في فقه اللغة العربية ، لأحمد بن فارس : ١٨٣ .

(٤) دلائل الإعجاز : ٨١-٨٢ .

وغيرها ، ثم جاء السكاكي (ت٦٢٦هـ) فوجد الطريق معبداً أمامه لجمع شتات هذا العلم والتقنين لفروعه ، فاصطلح على دراسة تلك الأساليب البليغة والاستعمالات الرصينة بـ(علم المعاني) وحده بالقول : ((علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره))[١] .

وقد اعتمدت الدراسات البلاغية منذ ذلك الحين منهج القدامى في دراسة التراكيب البليغة من حيث أحوال أجزائها وما يطرأ عليها من حذف وذكر وتنكير وتعريف وتقديم وتأخير ، ثم دراسة أحوال الجمل والسياقات من حيث الفصل والوصل والإيجاز والإطناب والمساواة والقصر ، وفي خروجها عن مقتضى ظاهر الحال ، ثم يخصصون للجملة الإنشائية الجانب الآخر من البحث .

أما المفسرون ، فإن علم المعاني لديهم من العلوم الجليلة ، التي تظهر روعة القرآن الكريم وجماله ، إذ ((يكشف عن أسرار الجمال في القرآن الكريم معجزة الإسلام الكبرى ويبين السبب في إعجاز النظم في الجملة))[٢] . لذلك عني شيخ زادة بهذا العلم عناية تفوق عنايته بالعلمين الآخرين ، إذ أنه يفسر سرّ جمالية التركيب القرآني ودقة استعماله ويكشف عن معاني إعجازه وصوره ، لذا تطرق لأساليب هذا الفن البلاغي ، كالخبر والإنشاء والتقديم والتأخير والذكر والحذف والتعريف والتنكير والفصل والوصل والإيجاز والإطناب وبحث فيها بحثاً كاشفاً عن بلاغتها وأغراضها التي انتظم السياق من أجل إيصالها إلى المتلقي .

(١) مفتاح العلوم : ٢٤٧ .

(٢) المعاني في ضوء أساليب القرآن ، د. عبد الفتاح لاشين : ١١٣-١١٤ .

الفصل الأول : الخبر والإنشاء

المحور الأول : الخبر في جهود شيخ زادة :

١-الخبر لغةً واصطلاحًا :

هو الكلام الذي تناط به الفائدة المرجوة من أي نظم بليغ ، لذلك كان محط الاهتمام لدى البلاغيين ، لأن الغرض الأصلي من أي تركيب هو الإفادة الحاصلة منهُ بوصفهِ خبراً .

والخبر لغةً هو الإعلام والإنباء الذي فيه معرفة وفائدة إذ يقال : ان الخبر هو النبأ والخبير هو العالم بالأمور فالخُبُر بالشيء هو العلم به[١] ، ويقال من أين خبرت هذا الأمر أي من أين علمته[٢] .

أما في الاصطلاح فهو الكلام الذي يحتمل الصدق والكذب لذاته[٣] ، أي تكون نسبة الصدق والكذب في الخبر باعتبار ذاتهِ دون النظر إلى عوارض الكلام ، واشترط البلاغيون في صدق الخبر مطابقة الواقع لا مطابقة الاعتقاد[*] وفي ذلك قال شيخ زادة أيضاً في تقييد الخبر بمطابقة الواقع فيرى ان : ((صدق المتكلم هو أخباره عن الشيء بأنه كذا إخباراً مطابقاً لحال المخبر عنه في الواقع ، بأن تكون النسبة الذهنية المدلولة في الكلام مطابقة للنسبة القائمة بين الطرفين في الواقع ويُعلم منه ان كذب المتكلم هو الإخبار عن الشيء على الوجه الذي لا يطابق حال المخبر عنه في الواقع))[٤] . فالمعتبر في حدّ الخبر عند شيخ زادة هو مطابقة الواقع وبذلك يقرب من نظرة البلاغيين للخبر .

وفي بيان خصوصية القرآن من هذا القيد الذي وضعهُ البلاغيون يقول شيخ زادة : ((ان كلماتهِ تعالى إذا كانت من باب الخبر فقد بلغت في الصدق إلى ما لا يُتوهم ما

---

(١) ينظر : العين (مادة خبر) : ٢٥٨/٤ .

(٢) ينظر : الصحاح في اللغة : الجوهري (مادة خبر) : ٦٤١/٢ .

(٣) ينظر : أساليب المعاني في القرآن ، جعفر باقر الحسيني : ١٧ .

(*) إذ ذهب بعض العلماء كالنظام إلى ان صدق الخبر هو مطابقته للاعتقاد مخالفين بذلك رأي جمهور العلماء والبلاغيين . ينظر : البلاغة والتطبيق : ١٠٢ .

(٤) حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوي : ١٩٨/١ .

هو أصدق منه))[١] . فالأخبار القرآنية في قمة الصدق الذي ليس معه كذب.

أما المحور الثاني الذي أكده البلاغيون في حدّ الخبر فهو وظيفته التي هي الإفادة ، إذ جعلوا أصل الإفادة فيه عندما يلقى إلى مخاطب خالي الذهن عن معرفته فيما جعلوا لازم فائدتهِ في كونه معلوماً عند المخاطب والمتكلم[٢] ويلقى لأغراض سياقية.

وذهب البيضاوي (ت٦٨٥هـ) إلى حصر فائدة الخبر في مصطلح (الإنباء) إذ يقول : ((والإنباء أخبارٌ فيه إعلام))[٣] . واتضح ذلك في شرح شيخ زادة لمفهوم الأخبار القرآنية إذ بين أن الإخبار تقتصر فيه الجملة ببيان الخبر والتلفظ به كيفما كان أو بلازمهِ من غير إفادة وأما الإنباء فمختص بإفادة المخاطب الحكم نفسه وهو وقوع نسبته خارجاً إذ يقول شيخ زادة : ((إن المراد بالإخبار التلفظ بالجملة الخبرية وبالإعلام إفادة المخاطب نفس الحكم الذي هو وقوع النسبة كما في زيدٌ قائم لمن لا يعرف انه قائم وليس المراد به إفادة المخاطب كون المخبر عالماً بالحكم كما في قولك حَفِظت التوراة لمن حفظها إذ لم يُسمع استعمال لفظ الإنباء في إعلام لازم فائدة الخبر))[٤].

فجعل شيخ زادة الفائدة ، التي هي مناط التركيب مستمدة من الإعلام أو الإنباء في الجملة وأخرج الإخبار من دائرة أصل الإفادة وجعلها للإنباء إذ يقول : ((يكون الإنباء حقيقة في الإخبار الذي فيه إعلام كما في قوله تعالى : ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ [البقرة: ٣٣] ، أي أخبرهم وأعلمهم بأسماءهم وأما الإنباء في قوله تعالى : ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة: ٣١] ، فليس بحقيقة ، لكونه بمعنى مجرد الإخبار الخالي عن الإعلام ، لاستحالة الإعلام في حقهِ تعالى))[٥] . ويقول أيضاً : ((وما لم يقصدوا به الإعلام لا يسمى خبراً))[٦] .

---

(١) المصدر نفسه : ٢٠٢/٢ .

(٢) ينظر : مفتاح العلوم ، السكاكي : ٢٥٦ .

(٣) تفسير البيضاوي المسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) : ٥١/١ .

(٤) الحاشية : ٢٥٠/١ .

(٥) الحاشية : ٢٥٠/١ .

(٦) الحاشية : ٢٠٥/١ .

ويتضح مما سبق ان الأخبار القرآنية عند شيخ زادة مقيدة بأمور ثلاثة الأول في كونها أنباءً وليست أخباراً ، والثاني فائدتها حصول العلم لا لازمه والأمر الأخير مطابقة تلك الأخبار للواقع لكونها تحتوي على الصدق المطلق ، فالخبر الحقيقي عند شيخ زادة أخص مما هو متعارف عند البلاغيين إذ انه النبأ المفيد فائدة أصل الخبر الذي له نسبة خارجية مطابقة للنسبة الذهنية .

٢-أضرب الخبر

يلقى الخبر على المخاطب موافقاً لمقتضى حالهِ ، فإذا صادف الخبر ذهن المخاطب خالياً ، يتمكن منه وينتقش فيه ، من غير الحاجة إلى تأكيد ، فَسُمّي ذلك الخبر الأبتدائي[١] .

وجعل شيخ زادة منه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤] .

فالخبر الذي أُلِقيَ إلى المؤمنين من غير تأكيد في قوله (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) فيما خطابهم مع منافقيهم في قوله : (إنّا معكم) ، جاء مؤكداً ويعلل شيخ زادة هذا الاختلاف في السياق قائلاً : ((انهم عند مخاطبتهم المؤمنين إنما هم بصدد إحداث الإيمان الخالص فيكفي فيه ما يدل على مجرد الحدوث والتجدد من غير تأكيد بشيء من مؤكدات النسبة ، لأنه كلام إبتدائي في زعمهم ، وبالنظر إلى قصدهم وإنما يحتاج إلى التأكيد لو كانوا بصدد إنكار المؤمنين لما أدعوه من الإيمان ودفع ترددهم فيه وليس كذلك))[٢] . فألقاء الخبر بالتأكيد وعدمه جاء لمراعاة حال المخاطب .

أما الضرب الثاني من الخبر ، فهو الطلبي ، إذا أُلقي الخبر إلى متحير الذهن في مضمونه أو نسبته ، طالباً لمعرفة حقيقته ، يستحسن فيه المجيء بمؤكد لتقوية الخبر ، وإنقاذ الذهن من ورطة الحيرة فيه ، فذاك هو الخبر الطلبي[٣] ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ

(١) ينظر : مفتاح العلوم : ٢٥٨ .
(٢) الحاشية : ١٤٦/١ .
(٣) ينظر : مفتاح العلوم : ٢٥٨ .

﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ مُّرۡسَلُونَ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ١٣- ١٦] .

فقد تضمن سياق الآية أكثر من خبر الأول في الإخبار بالتكذيب في قوله تعالى: (إذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما) ، والثاني في قوله تعالى : (فقالوا انا اليكم مرسلون) مؤكداً ب (انّ) ، والثالث في قوله : (ربنا يعلم إنا اليكم لمرسلون) مؤكداً بـ(إن) واللام ، وقد اختلف العلماء في توجيه تلك الأنواع من الأخبار ، فقد ذهب شيخ زادة إلى أن الخبر الثاني في قوله تعالى : (انا اليكم مرسلون) خبر طلبي ، فيما جعل الخبر الأول في قوله : (إذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما) خبراً ابتدائياً ، إذ يقول: ((إن إخبار الثلاثة ليس ابتدائياً بل هو طلبي ، لأنه كلام من المريد الطالب والابتدائي هو إخبار الاثنين))[١] .

فيما ذهب السكاكي (ت٦٢٦هـ)[٢] ، والقزويني (ت٧٣٩هـ)[٣] ، إلى أن تلك الأخبار إنكارية ومؤكدة بحسب تدرج حال المخاطب في إنكاره ، فمرة قال : (إنا اليكم مرسلون) للرد على منكري الرسالة ومرة قال : (ربنا يعلم إنّا اليكم لمرسلون) ، للرد على منكر مبالغ في إنكاره وجحوده .

ويمكن الذهاب مع شيخ زادة في كون إخبار الرسولين الأولين أخباراً ابتدائية ولكن الخبر في قوله تعالى : (إنا اليكم مرسلون) لا يمكن حمله على الطلب بل يمكن ان يكون كما ذهب السكاكي والقزويني في كونه إنكاراً وذلك بدلالة سياق النص إذ ان قوله تعالى : (إذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما) ينبيء عن إنكار هؤلاء فطالب الحقيقة يستطلب البرهان وهؤلاء كذبوا الرسل وأنكروهم وقضيتهم هي القضاء على الحقيقة لا طلب معرفتها ، فيكون الخبر الثاني في قوله تعالى : (إنا اليكم مرسلون) خبراً إنكارياً ولكن إنكار أولي غير مبالغ فيه كما في الخبر الثالث وهو(إنا اليكم لمرسلون) .

وأما النوع الثالث من أضرب الخبر فهو الخبر الإنكاري الذي يُلقى إلى مخاطب منكر للخبر يعتقد بخلافه فيستوجب التأكيد له بحسب ما أُشرب من الانكار في

(١) الحاشية : ١٢٤/٤ .

(٢) ينظر : مفتاح العلوم : ٢٥٩ .

(٣) ينظر : الإيضاح في علوم لبلاغة : ٤٤ .

اعتقاده[1] .

ومثَّل شيخ زادة لهذا النوع من الخبر بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر: ٩] .

فحوى النص القرآني أكثر من مؤكد لتثبيت معنى صدق الخبر في ضمير المخاطب المنكر ، فيقول الشيخ زادة في دلالته : ((فان الكفرة قالوا ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ [الحِجر:٦] فقد أنكروا ان ينزل عليه ذكر من ربه واستهزؤا به حيث نادوه بهذا العنوان زاعمين انه عليه الصلاة والسلام غير موصوف به فكأنهم قالوا يا أيها المفتري ان الله تعالى لم ينزل عليك الذكر ... فردَّ الله عليهم بقوله : (إنا نحن نزلنا الذكر) وأكده من وجوه تصدير الجملة بأن وتوسيط ضمير الفصل بين أسمها وخبرها ، والتعبير عن المتكلم الواحد بضمير الجمع للتعظيم والإجلال وتكرير الإسناد لتقوية الحكم وتقريره واسمية الجملة))[2] .

وفيما فصّل شيخ زادة في السياق القرآني اكتفى الزمخشري (ت٥٣٨هـ) ، بالإيجاز فيه إذ يقول في دلالة الخبر : ((رداً لإنكارهم واستهزائهم))[3] . ولعل التفصيل في مثل هذه المقامات مطلوبٌ لبيان حجم الإنكار من خلال التفصيل في أنواع المؤكدات ، إذ ان التأكيد بقدر ما أشرب المخاطب من إنكار في نفسه وفي كلامه.

وقد يخرج الخبر في دلالته عن مقتضى الظاهر ، فيعامل المنكر أو المتردد ، معاملة خالي الذهن ، فتتنازل الجملة عن التأكيد لذلك ، وقد ينزل خالي الذهن منزلة المنكر، فيستجلب السياق قرائن التأكيد ، لتمكين الخبر في الذهن ، ومثّل شيخ زادة لذلك بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤] .

فحدد شيخ زادة طبيعة الأخبار في قوله تعالى : (قالوا آمنا) وفي قوله : (قالوا إنا

(١) ينظر : مفتاح العلوم : ٢٥٨ ، والإيضاح في علوم البلاغة : ٤٤ ، والإشارات والتنبيهات في علوم البلاغة ، محمد بن علي الجرجاني : ٣٣ ، والمطول (شرح تلخيص مفتاح العلوم) : ١٨٥ .

(٢) الحاشية : ١٤٧/٣ .

(٣) الكشاف : ٥٣٦/٢ .

معكم) بقوله : ((خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث وخاطبوا شياطينهم بالجملة الاسمية الدالة على الثبات مع ان الظاهر ان المؤمنين منكرون أو مترددون في إيمانهم لظهور مخايل نفرتهم عنه ودلائل استثقالهم الانقياد والمتابعة وإنّ شياطينهم لا ينكرون مقالتهم التي تحكي إثباتهم على اليهودية فكان القياس ان تكون الجملة التي خاطبوا بها المؤمنين اسمية مؤكدة والتي خاطبوا بها أهل دينهم عارية عن التأكيد إلا انه عكس ذلك))[١] .

فبين شيخ زادة ان مقتضى ظاهر الخبر الإنكاري يستدعي تأكيداً تنازلت الجملة عنه لخروجها على ذلك المقتضى ، وكذلك قد استعمل التأكيد مع خالي الذهن لدلالة يقتضيها السياق ، وبيّن شيخ زادة لهذا الخروج ثلاثة أغراض ، وبواعث : الأول ، باعث نفسي للتأكيد أوضحه شيخ زادة بالقول : ((انهم عند مخاطبتهم المؤمنين إنما هم بصدد دعوى إحداث الإيمان الخالص فيكفي فيه ما يدل على مجرد الحدوث والتجدد من غير تأكيد بشيء من مؤكدات النسبة لانه كلام ابتدائي في زعمهم وبالنظر إلى مقصدهم ، وإنما يحتاج إلى التأكيد لو كانوا بصدد إنكار المؤمنين لما ادعوه من الإيمان ودفع ترددهم فيه وليس كذلك بخلاف ما خاطبوا به شياطينهم من الثبات على ما كانوا عليه من اليهودية فأنهم محتاجون فيه إلى تحقيق الحكم وتقريره باسمية الجملة وتأكيد لما عسى ان يختلج في قلوب أهل دينهم من تردد نشأ من إحداث الإيمان عند المؤمنين في انه هل هو من صميم قلوبهم أو انه كلام على ألسنتهم فقط من غير مواطأة قلوبهم لها))[٢] . فعبر السياق القرآني عن مكنونات المتكلم ومقاصده من خلال أسلوب التأكيد . إذ استعمله لدلالة تابعة لنفسية المتكلم واستغنى عنه لدلالة مخالفة لدلالة ذكر الجملة الخبرية مؤكدة .

والغرض الثاني لتأكيد الكلام مع خالي الذهن هو صدق المحرك والباعث للتأكيد لأن المتكلم يربطه مع المخاطب صدق عقيدة فيما لم يؤكد مع المؤمنين لانعدام ذلك الباعث[٣] .

---

(١) الحاشية : ١/١٤٥-١٤٦ .

(٢) الحاشية : ١/١٤٦ .

(٣) ينظر : الحاشية : ١/١٤٦ ، والمطول : ٣٣٩ .

والغرض الثالث للتأكيد مع خالي الذهن ، وعدم التأكيد مع المنكر ، هوان التأكيد يدل على تمكن الإيمان وكماله وثبوته في أنفسهم ، وهذا مما لا يحتاج المنافقون رواجه بين المؤمنين ، لذلك تركوا التأكيد معهم ، فيما جاؤا به مع المنافقين لتأكيد نفاقهم[١] .

ويتضح مما سبق ان التأكيد في الخبر ، قد يستعمل للتعبير عن مكامن النفس وصدق رغبتها بالتأكيد أو عدمه ، فالتأكيد بذلك أسلوب نفسي مُعَبر ، كما ان القرآن استعملهُ في سياقات بلاغية ذات أغراض ودوافع .

وفيما قصر الجرجاني[٢] (ت٤٧١هـ) ، والسكاكي[٣] (ت٦٢٦هـ) دلالة التوكيد على ردّ المنكر والمتردد وتبعهم بذلك العلوي[٤] (ت٧٤٩هـ) إذ جعل إفادة التوكيد لإزالة الشكوك وإماطة الشبهات عما كانت الجملة القرآنية بصدد تأكيده ولكن النص القرآني لم يستعمل هذا الأسلوب مع المتردد والمنكر فقط ولكنه استعمل التوكيد لدواعي وأغراض أخرى نبه شيخ زادة على عدد منها :

التأكيد على صدق الرغبة ووفور النشاط من المتكلم :

بين شيخ زادة ان التأكيد لا يختص بالمخاطب فقط إذ يرده عن شبهة إنكاره مصدقاً بل يتعداه إلى المتكلم إذا كان الكلام مع من تستهوي النفس مخاطبته والإطالة معه إذ يقول : ((التأكيد كما يكون لإزالة الشك ونفي الإنكار مع السامع فقد يكون لصدق الرغبة ووفور النشاط فيما يورده من الكلام))[٥] . ومثّل شيخ زادة لذلك بقوله تعالى حكايةً عن المؤمنين : ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦] ، فقولهم (ربنا إننا آمنا) لا يُتصور منه ان يكون التأكيد فيه لرد الإنكار ونفي الشك مع المخاطب بل هو راجع للمتكلم ولبيان حاله في إظهار

(١) ينظر : الحاشية : ١٤٦/١ .
(٢) ينظر : دلائل الإعجاز : ٣٢٥ وما بعدها .
(٣) ينظر : مفتاح العلوم : ٢٥٨ وما بعدها .
(٤) ينظر : الطراز : ٢٨٧ .
(٥) الحاشية : ١٤٦/١ ، وينظر الكشاف : ١٠٤/١ .

نشاطه ووفور رغبته وارتياحه فيما أخبر به كما يرى شيخ زادة[1]

التهديد والمبالغة :

إذ يجيء السياق القرآني مؤكداً للتهديد والمبالغة فيه ، ولتخويف المخاطبين والتعريض بهم ، وذلك كقوله تعالى : ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥] ، فجيء بالجملة الخبرية في قوله تعالى: (إنك إذاً لمن الظالمين) مؤكدة بتأكيدات كثيرة ومشددة لإيصال دلالات التخويف والردع للمخاطب . وبيّن شيخ زادة طرق التأكيد ودورها في إيصال غرض التخويف والتهديد والمبالغة بالقول : ((ان الآية تهديد وتخويف له صلى الله عليه وسلم من إتباع الهوى وبقي الكلام في إنها مشتملة على تأكيد التهديد والمبالغة في سبعة أوجه وتلك الوجوه هي القسم المقدر واللام الموطئة وان الفرضية الدالة على ان الإتباع لا تحقق له أصلاً ولا حظ له من الوجود إلا على سبيل الفرض والتقدير وكلمة (إن) الدالة على الجزاء المتحقق الترتب على الشرط المفروض ، وكذا اللام الداخلة في خبرها ، والجملة الاسمية فان كون الجملة اسمية بجزئيها تدل على الاستمرار والثبات وكلمة اذن المتضمنة لمعنى الشرط الدالة على زيادة الربط))[2] . فعملت الجملة المؤكدة رادعاً ومخوفاً للمخاطب، لكي يمتنع عن إتباعه هوى نفسه، فعبر النص القرآني عن هذا المعنى كما يرى شيخ زادة بتصاعد نغمة التأكيد بالحروف وبالكلمة والتركيب ، كما أنه استعمل أسلوباً خاصاً من التجوز ألا وهو توجيه الخطاب لمن لا يتوقع حصول الفعل منه وذلك لِيُعَرِض بالمخاطب وفق أسلوب بليغ .

للإيذان بتحقيق الوعيد :

وذلك كالتأكيد المنبعث من قوله تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[العنكبوت: ٥٤] فردّ الله سبحانه وتعالى على استبعاد الكافرين حصول العذاب رداً بليغاً مليئاً بالمؤكدات وذلك في قوله تعالى : (وان جهنم لمحيطة بالكافرين)

(١) ينظر : الحاشية : ١/١٤٦ .

(٢) الحاشية : ١/٤٥٧-٤٥٨ .

وبين شيخ زادة دلالة هذا التأكيد قائلاً : ((جيء بالجملة الاسمية مؤكدة بأن ولام الإبتداء للإيذان بان وعد الله تعالى ووعيده كالمتحقق في الحال لتحقق وقوعه البتة))[1]

فنزل الوعيد بالعقاب المستقبلي منزلة الواقع لإعطاء معنى التأكيد للمخاطب لكي يغير في اعتقاده .

الدلالة على التدرج في شدة الإنكار :

فقد تتجاوز وظيفة التأكيد تمكين المعنى في نفس المخاطب إلى الجدال والمحاججة ، إذ يظهر المتكلم أدلته مؤكدة بحسب اعتقاده فتتكاثر عناصر التوكيد وفقاً لتصاعد أحوال الإنكار ، في حوارات قرآنية خصبة تحتاج إلى تأمل ومراجعة تكشف عن طبيعة العقلية المعاندة وكيف كانت تنحرف في حوارها عن طلب الحقيقة ومنهج الاحتجاج إلى المعاندة[2] ، ففي قوله تعالى : ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٧-٥٠] . فقد تكاثرت أدوات الإنكار وتصاعدت دلالته من خلال تكرار استعمال همزة الإنكار ، مما جعل الرد على هذا الإنكار حاسماً بتأكيد ما أنكره المخاطب وذلك في قوله تعالى (قل إنّ الأولين والآخرين لمجموعون) .

يبين الشيخ زادة دلالة التأكيد على تدرج الإنكار بالقول : ((ان الهمزة الأولى دخلت لإنكار البعث مطلقاً والثانية لإنكاره وقت كون لحومهم تراباً وعظامهم رفاتاً ، والتي دخلت العاطف لإنكار بعث آبائهم الذين هم أقدم موتاً وأتم انحلالاً ، وكل واحدة من هذه الأمور أشد إنكاراً مما قبله فأنهم أشاروا في استبعادهم للبعث وتكذيبهم إياه إلى أمور اعتقدوها مقررة لصحة إنكارهم له الأول الموت أشاروا إليه بقولهم : (أئذا متنا) لم يقتصروا عليه بل قالوا بعده : وكنا تراباً وعظاماً أي طال عهد موتنا بعد كوننا حيواناً حتى صارت اللحوم تراباً والعظام رفاتاً ، والثاني طول مدة موتهم حيث صارت لحومهم تراباً ، ولم يبقَ منهم إلا العظام البالية ثم زادوا وقالوا في هذه الحال يقال لكم أنكم لمبعوثون بتأكيد الكلام بطرق ثلاثة أحدها تصدير الكلام بأن وثانيهما زيادة اللام في

---

(١) الحاشية : ١٦/٤ .

(٢) ينظر : خصائص التراكيب (دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني) ، د. محمد محمد أبو موسى : ٨٢ .

خبرها ، وثالثها ترك صيغة الاستقبال والعدول عن صيغة المستقبل إلى صيغة اسم المفعول لأن البعث أمر كائن في الحال ثم زادوا وقالوا أو آباؤنا الأولون بإدخال همزة الإنكار على الواو العاطفة للدلالة على أن ذلك أشد إنكاراً من حيث ان الآباء أقدم موتاً وأشد تلاشياً واضمحلالاً))[1] .

فبين شيخ زادة ان لتصاعد أدوت التوكيد في الدلالة على شدة التأكيد إشارة إلى تصاعد الإنكار من لدن المخاطب ، إذ استعمل للدلالة على إنكاره سياقاً مليئاً بمؤكدات لإنكار البعث مع حجج قاطعة على حسب اعتقادهم لدحض نظرية البعث القرآني وفي مقابل هذا استعمل القرآن الكريم أسلوباً مؤكداً للرد وهو أشد وأقوى في قوله تعالى (قل إن الأولين والآخرين لمجموعون) مؤكداً بـ إن واللام .

٣-أغراض الخبر المجازية

يخرج الخبر لغرض إفادة المخاطب ، العِلم أو لازم العِلم[2] ، هذا في السياق الحقيقي ، ولكن قد يخرج الخبر إلى أغراض متعددة يقتضيها المقام وتدل عليها قرائن السياق ، مما يجعل النص ذا فاعلية وحياة من الدلالات المنبعثة منه ، ومن تلك الأغراض :

النهي :

فقد لا يكون إلقاء الخبر لغرض إفادة المخاطب العلم به بل يتجاوزه إلى دلالة نهيه لما سيق النظم من اجل النهي عنه كقوله تعالى :﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٤] فقوله تعالى :(ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) وارد على نحو الخبر ، أما غرضه، فاختلف المفسرون فيها، فذهب الزمخشري (ت٥٣٨هـ) إلى ان الخبر فيه لبيان عتو الكفرة إذ يقول: ((والمعنى ما كان الحق الواجب إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وعتوهم))[3] . فيما ذهب البيضاوي إلى

(١) الحاشية : ٤٤٢/٤ .

(٢) ينظر : مفتاح العلوم : ٢٥٤ .

(٣) الكشاف : ٢٠٥/١ .

انه خارج للبشارة والوعد للمؤمنين بالنصرة إذ يقول : ((فيكون وعداً للمؤمنين بالنصرة واستخلاص المساجد منهم وقد نجز الله وعده))[1] . وخالفهم شيخ زادة في ذلك الغرض فذهب إلى جعله نهياً للمؤمنين عن تمكين الكفار من الدخول إذ يقول : ((ان الآية وإن وردت على صورة الخبر ، لكن المراد بها نهي المؤمنين عن تمكين الكفار من دخولها بأن يخلوا بينهم وبين المساجد ونظيره قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ، فانه خبر لفظاً والمراد بها النهي))[2].

وبالعودة إلى السياق ، يتضح ان قرائنه تحيل على المعنى الذي أشار إليه شيخ زادة ، إذ وعد الله تعالى المعتدين بعذابين الأول في الدنيا ، وهو قوله تعالى : (لهم في الدنيا خزي) وقد يكون والله أعلم ، في ذلك معنىً لنهي المؤمنين من تمكين أعداء الله من مساجدهِ ، وذلك بمواجهتهم بالحرب التي يذاق فيها أعداء الله كل أنواع الخزي في الدنيا ، فقد ورد في سورة التوبة ما يدلل على كون الخزي هو القتال بحق المعتدي ، إذ تقول الآية المباركة : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤] .

ثم أشار سبحانه وتعالى إلى العذاب الثاني بقوله : (ولهم في الآخرة عذاب عظيم) وهو بعد قتلهم يتولاه الله تعالى في الآخرة وبذلك يكون غرض شيخ زادة أقرب والله أعلم.

ومن الأخبار الواردة لمعنى النهي ، وقد أشار إليها شيخ زادة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤] .

إذ يقول شيخ زادة في بيان دلالة الإخبار فيها : ((ان قوله تعالى (لا تسِفكون) و (لا تُخرِجون) إخباران في معنى النهي لأنه أبلغ من صريح النهي))[3] . ربما تكون أبلغ لأن الخبر ينبيء عن الامتثال ، فكأنه عزَّ وجل يخبر عن امتثالهم لعدم السفك وإخراج الأنفس من الديار من غير الالتفات إلى التزامهم بالمنهي عنه أو لا فهو

(١) تفسير البيضاوي : ٨٢/١ .
(٢) الحاشية : ٣٩٤/١-٣٩٥ .
(٣) الحاشية : ٣٤١/١ .

صادر من جهة الناهي على وجه استعلاء فيراعى في السياق المصلحة ولا يراعى قبول المنهي عنه وفي هذا السياق شدة بليغة لِتَقَبُل الحكم .

وأيضاً من الأخبار الواردة للنهي المبالغ فيه قوله تعالى : ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧] ، إذ يقول شيخ زادة في دلالتها : ((المراد بها النهي ... وإنما أُخرجت على صورة الإخبار للمبالغة في وجوب الإنتهاء عنها ، كأن المكلف أذعن كونها منهياً عنها فاجتنب عنها فالله تعالى يخبر بأنها لا توجد في خلال الحج ولا يأتي بها أحد منكم))[١] . فَضُمَنِت هذه السياقات معاني عميقة ، وأَظْهَرَت دلالات وأغراض مختلفة وإن كانت بصورة الجملة الخبرية .

الأمر

فقد يجيء الخبر ، وغرضه الأمر ، وإخراج الأمر بصورة الخبر تأكيداً له وإشعاراً بأنه مما يجب ان يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله ، فكأن المأمور امتثل له فيخبر عن وجوده[٢] ، وذلك كقوله تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ...﴾ [البقرة: ٢٢٨] .

وعلل الزركشي (ت٧٩٤هـ) الحمل على الأمر في قوله تعالى : ((والمطلقات يتربصنّ) ، لكي لا يُخلَفِ الخبر ، إن كان بعضهنّ لا يلتزم بسياق الآية ، فالأمر أولى في هذا الموضع[٣] ، فيما جعل شيخ زادة الأمر فيه لبيان امتثالهن للتربص ، إذ يقول : ((ان الفائدة فيه تأكيد الأمر ، فان صورة الإخبار تشعر ان المأمور به مما يجب ان يسارع وان الأمر به مما يجب ان يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله فكأن المطلقات امتثلن الأمر بالتربص فهو تعالى يخبر ان امتثالهن موجود))[٤] .

ولعل دلالة الأمر المحض ،أقرب لهذه السياقات ، من غير اعتبار للامتثال ،

---

(١) الحاشية : ٥٠٧/١ .

(٢) ينظر : أساليب المعاني في القرآن ، جعفر الحسيني : ٣٣ .

(٣) ينظر البرهان في علوم القرآن : ٢٣٦/٢ .

(٤) الحاشية : ٥٣٣/١ ، وينظر : الكشاف : ٢٩٨/١ .

فتشريعهُ (سبحانه وتعالى) لا يحتاج فيه اعتبارات قبول المأمور أو عدم القبول ولكن تُراعى فيها المصلحة لتلك الحكام .

المدح وإظهار الشرف :

ويخرج الخبر إلى دلالة المدح إذا توافرت في السياق قرائن المدح والثناء ، كالإخبار بتوارد الصفات الشريفة على موصوف في مقام مدحه والثناء عليه ، وجعل شيخ زادة تلك الدلالة في قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧] ، إذ أخبر الله تعالى عن الملائكة بانهم (آمنوا واستغفروا) لدلالتين أوضحها شيخ زادة إذ يقول : ((إن الحكمة ههنا إظهار شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه كما وصف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بالإيمان والصلاح في مواضع من القرآن مع ان إيمانهم وصلاحهم لا يخفى على أحد ... إظهاراً لشرفها ووجه الإظهار ان تخصيصه من بين صفاتهم الجميلة في مقام المدح دليل واضح على شرفه بالنسبة إلى سائر أوصافهم مع ان جميع أوصافهم شريفة ... والحكمة الأخرى من الأخبار عنهم بالإيمان الإشعار بأن حملة العرش والحافين حوله إنما يعرفون ربهم بالنظر والاستدلال لا بطريق المعاينة والمشاهدة))[1].

وقد يكون إظهار شرف الإيمان ، لتنبيه المخاطب المؤمن ، للتمسك بإيمانه ، لكونه من الأوصاف الشريفة المحبوبة عند ربّ العزة ، ففي السياق حث للمتلقي على معرفة الإيمان الحقيقي وشرفه وفضله والتمسك به.

الإعتراف بالعجز والتسليم :

وذلك كقوله تعالى : ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١- ٣٢] .

فقول الملائكة (لا علم لنا إلا ما علمتنا) كما يرى شيخ زادة جملة خبرية لم تكن

(١) الحاشية : ٢٢٢/٤ ، وينظر : الكشاف : ١٥٦/٤-١٥٧ .

الملائكة فيها بصدد الأخبار بمضمونها بل خرجت لإعطاء دلالات لازمة لها ، منها الاعتراف بالعجز إذ جاءت لتعبر عن معنى ، فإذا لم تعلمنا ذلك فكيف نعلمه والدلالة الثانية لقولهم (لا علم لنا إلا ما علمتنا) ، هو الكشف عن المعنى الحقيقي لقوله تعالى : ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة:٣٠] بأنه كان سؤالاً للاستفسار ، ثم كشف الله تعالى ما كان خفي عنهم في فضل ذلك الخليفة ، فأوردوا هذا الخبر للإشعار بعدم العلم ، كما انهم اوردوه شكراً لنعمته عليهم وكشفه عمّا خفي عنهم ، وفيها مراعاة للأدب بسلب العلم عن أنفسهم وتفويضه إلى جناب كبريائه[١] .

٤-تقسيمات الجملة الإخبارية عند شيخ زادة إلى اسمية وفعلية :

تختلف الجملة الفعلية عن الجملة الاسمية في الدلالة ، إذ لكل منهما مقام يستدعي وجودها والذي يحدد دلالتها هو سياق الكلام وقرائنه ، لأن الجملة الاسمية في أصل وضعها تدل على ثبوت شيء لشيء ، وأما الفعلية فتدل على تجدده ، إذ يقول الجرجاني (ت٤٧١هـ) : ((ان موضوع الاسم على ان يثبت به المعنى للشيء من غير ان يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء وأما الفعل فموضوعه على انه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء))[٢] .

وأكد شيخ زادة هذا المعنى ، باستشهاده بقوله تعالى : ﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾ [غافر: ٤٢] .

فجيء بالسياق متضمناً للجملة الفعلية (تدعونني) والجملة الاسمية (أنا أدعوكم) لإعطاء دلالتين مختلفتين ، إذ يقول شيخ زادة في بيان ذلك : ((وأتى بقوله : (تدعونني) جملة فعلية ، لتدل على ان دعوتهم باطلة لا ثبوت لها ، وأتى بقوله (وأنا أدعوكم) جملة اسمية لتدل على ثبوت دعوته وتقويتها))[٣] .

وقد تتجاوز الجملة الفعلية والاسمية دلالة الثبوت وعدمه إلى دلالات أخرى

---

(١) ينظر : الحاشية : ٢٥١/١ .

(٢) دلائل الإعجاز : ١٧٤ ، وينظر : الإشارات والتنبيهات في علوم البلاغة : ٦٧.

(٣) الحاشية : ٢٣٦/٤ .

يقتضيها المقام ، فقد نبه شيخ زادة إلى ذلك قائلاً : ((فان الجملة الاسمية موضوعة للدلالة على مجرد ثبوت المسند للمسند إليه مع قطع النظر عن كون الثبوت بطريق التجدد والحدوث أو بطريق الدوام ولا يقصد بها الدوام والثبات إلا بقرينة المقام ومعونته))[١] . وكذلك الفعلية فأنها تفيد الحدوث في أصلها ، وأما التجدد فتدل عليه بمعونة السياق .

ودلل شيخ زادة على هذا المعنى بقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ﴾ [هود: ٦٩] ، إذ تجاوزت الجملة الفعلية دلالة الحدوث إلى التجدد وتجاوزت الاسمية ثبوت السلام إلى استمراره ودوامه إذ يقول شيخ زادة: ((فالملائكة سلموا بالجملة الفعلية الدالة على التجدد والحدوث وردّ عليهم سلامهم بالجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار إجابة لهم بما هو أحسن من تحيتهم))[٢] .

أما الجملة الفعلية، فنبه شيخ زادة إلى ان ثبوت المعنى أو تجدده مرتبط بالزمن، الذي تتضمنه الجمل الفعلية ، فالاسم مجرد منه لذلك يعبر به عن المعاني الثابتة والحقائق الراسخة وبنسبة شيء لشيء على نحو الأصالة ، وأما الفعل فيدل على زمان ذلك الحدث ، وهو ما أشار إليه الرازي (ت٦٠٦هـ) بقوله : ((وأما إذا كان الغرض من الإخبار به الإشعار بزمان ذلك الثبوت فالصالح له هو الفعل))[٣] .

ومثل شيخ زادة لاستعمال الفعل ، للدلالة على استمرار زمانه ، بقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤-١٥] ، إذ يقول شيخ زادة في دقة استعمال صيغة الفعل : ((انه صير يستهزئ على مُستهزي بناء على ان يستهزئ يفيد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتاً بعد وقت ... يعني ان عقوبات الله تعالى تستمر فيهم استمراراً تجددياً))[٤] .

فكان الأصل أن يؤتى بـ (مستهزئ) بدل (يستهزئ) ولكن لكونه يدل على مغايرة الاستهزاء ، جيء بالسياق متغيراً ، فعبر عن استهزائه تعالى بهم بالفعل لكونه مستمراً

---

(١) الحاشية : ٣٢/١ .

(٢) الحاشية ٥٢/٣ .

(٣) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : ١٥٦ .

(٤) الحاشية : ١٤٨/١ ، وينظر : الكشاف : ١٠٥/١ .

ومتجدداً في حقهم بعكس استهزائهم المعبر عنه باسم الفاعل . فأنه ثابت بصيغة وبطريق واحدة .

وكذلك فان اختلاف الأفعال في السياق – كما يرى شيخ زادة – يبعث دلالات مختلفة ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨] ، إذ يقول شيخ زادة : ((قال خلقني بلفظ الماضي ، لأن خلقه قد وقع على وجه لا يتجدد في الدنيا بل لما وقع بقي إلى الأمد المعلوم ، وقال فهو يهدين بلفظ المستقبل لأن الهداية مما يتجدد كل حين))[1] . الجملة الفعلية أولى في تأدية سياقات التجدد والاستمرار من الاسمية وكذلك فأن للجملة الاسمية مقامات تقتضي ذكرها .

المحور الثاني : الإنشاء في جهود شيخ زادة :

(١) الحاشية : ٤٧٣/٣ .

١-الإنشاء لغةً واصطلاحاً :

الإنشاء لغةً هو الإبتداء إذ يقال أنشأ الله السحاب أي ابتدأها ويقال فلان ينشيء الأحاديث أي يضعها فهو إذا الابتداء والوضع[١] .

أما في الاصطلاح فهو أحد أساليب الكلام البلاغية التي تشير إلى استدعاء أمر غير حاصل ليحصل[٢] . عن طريق إحدى الصيغ المخصوصة له ، فهو إذا قول ينشئه المتكلم ولا يمكن ان يقف عليه السامع أو المتلقي إلا إذا ألقاه المنشيء[٣]. وقد قسمه البلاغيون إلى نوعين الأول الإنشاء الطلبي ويشمل صيغ الأمر والنهي والتمني والاستفهام والنداء والثاني الإنشاء غير الطلبي كالقسم والمدح والذم والتعجب والرجاء وصيغ العقود[٤] .

وقصر أغلب البلاغيين[٥] بحثهم البياني على الإنشاء الطلبي وعلل التفتازاني[٦] (ت٧٩٢هـ) ذلك ، بان غير الطلبي كأفعال المدح والذم وصيغ العقود والقسم وأفعال المقاربة في أصلها أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء وان هذه الصيغ لا تولد معاني بلاغية إضافية في سياق ورودها بل تكتفي بمعانيها الأصلية فيما تكون ((بنية الطلب بنية توليدية على المستوى السطحي أو على مستوى إنتاج المعنى أي انها لا ثبات لها شكلاً أو مضموناً))[٧]. هذا في غير القرآن الكريم* ، أي في أساليب العرب.

ولقد أهتم شيخ زادة في أساليب الإنشاء الطلبي منبهاً على بلاغتها ، في السياقات الحقيقية والمجازية ، ولكنه عنى بالمجازية أكثر ، لكونها يكمن فيها مقاصد المخاطب ، وكذلك يظهر التفنن في القول وبلاغته ، وبذلك يظهر الحس البلاغي لشيخ زادة في تذوق النص القرآني تفسيراً وبلاغة .

---

(١) ينظر : الصحاح في اللغة ، الجوهري مادة (نشأ) : ٧٧/١ .

(٢) ينظر : الطراز : ٥٣٠ .

(٣) ينظر : نحو المعاني ، أحمد عبد الستار الجواري : ١٤٠ .

(٤) ينظر : مفتاح العلوم : ٤١٤ ، والإيضاح : ١٣١ ، وعروس الأفراح : ٤١٩/١ .

(٥) ينظر : مفتاح العلوم : ٤١٤ وما بعدها ، والإيضاح : ١٣١ ، والطراز : ٥٣٠ ، والمطول : ٤٠٦ .

(٦) ينظر : المطول : ٤٠٦ .

(٧) البلاغة العربية قراءة أخرى ، محمد عبد المطلب : ٢٧٨ .

* أما في القرآن الكريم فان صيغ الإنشاء غير الطلبي هي صيغ توليدية للمعاني إذ درست موضوعاته في رسالة ماجستير بعنوان (الإنشاء غير الطلبي في القرآن الكريم) سعاد كريم خشيف ، جامعة بغداد ، ١٩٩٧ .

٢-أساليب الإنشاء الطلبي ومعانيها المجازية :

إن الإنشاء الطلبي هو أحد أقسام الكلام الإنشائي ، وعرفه البلاغيون بالقول : ((هو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب))[١] . ومن أساليبه :

أ-الأمر :

من الأساليب الطلبية ، وهو صيغة تستدعي الفعل أو قول ينبيء عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء[٢] وله أربعة طرق تعبر عنه ، وهي فعل الأمر ، والمضارع المقرون بلام الأمر ، واسم فعل الأمر ، والمصدر النائب عن فعل الأمر[٣] ، وكل واحدة من هذه الطرق لها دلالتها المعبرة عن معنى الأمر .

ويراعى في الأمر الحقيقي ، امتثال المخاطب ، وحصول الأمر على وجه الحقيقة ، لمراعاة مقام المتكلم فهو نافذ ممن هو أعلى مرتبة إلى من هو أدنى منه ، إذ يقول شيخ زادة : ((يجب ان يكون الآمر أعلى مرتبة بالنسبة إلى المأمور وان يكون الداعي أسفل من المدعو حقيقة))[٤] .

وهذا الرأي الذي يذهب إليه شيخ زادة هو مذهب أكثر البلاغيين والمفسرين وخالفهم فيه أكثر الأشاعرة وبعض الأصوليين ، الذين لم يشترطوا العلو في الأمر[٥]، ولعل القرآن الكريم زاخر بمثل هذه الأوامر الحقيقية ، التي تستدعي حصول الأمر ، ولكن الذي عنى فيه شيخ زادة هو السياق المجازي الذي يخرج فيه الأمر عن الحقيقة إلى اعتبارات وأغراض يقتضيها المقام ، فنبه شيخ زادة إلى أغراض الأمر المجازي التي منها :

الدعاء :

إذ يخرج الأمر عن دلالة الاستعلاء إلى دلالة طلب العفو والاستغاثة والتضرع

---

(١) ينظر : الإيضاح : ١٣١ ، والطراز : ٥٣٠ ، ومواهب الفتاح : ٤٦٠/١ .

(٢) ينظر : الطراز : ٥٣٠ ، والإشارات والتنبيهات ، محمد بن علي الجرجاني : ٩٧ .

(٣) ينظر : المعاني في ضوء أساليب القرآن : عبد الفتاح لاشين : ١٦٩ .

(٤) الحاشية : ٣٦/١ .

(٥) ينظر : أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ، د. قيس الاوسي : ٨٦-٨٧ .

والرحمة والدعاء ، بوجود قرائن في السياق مُدللة على هذا المعنى ، ومثل شيخ زادة لهذه الدلالة بقوله تعالى : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] ، إذ يقول فيه : ((قوله سبحانه وتعالى : (اهدنا) على صيغة الأمر ومعناه الدعاء))[١] والى تلك الدلالة ذهب الزمخشري (ت٥٣٨هـ)[٢] .

التعجيز :

ويكون بمطالبة المخاطب بعمل لا يقوى عليه إظهاراً لعجزه وضعفه وعدم قدرته ، وذلك في مقام التحدي ، لإقامة الحجة[٣] ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ [فاطر: ٤٠] .

إذ بين شيخ زادة دلالة الأمر في السياق القرآني بالقول : ((أروني أمر تعجيز))[٤] . إذ أحال مقام الكلام إلى تلك الدلالة .

الإهانة والتوبيخ :

كقوله تعالى : ﴿ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٤] ، إذ ليس الغرض من الطلب في قوله : (فذوقوا العذاب) حصوله لأن ذلك غير ممكن ، فهو مسلط عليهم غير قادرين على رده ولكن جيء به للدلالة على الإهانة ، وقلة المبالاة ، وبين شيخ زادة ان معنى الإهانة والتوبيخ قد دلّ عليها السياق ، وليس صيغة الأمر فقط إذ يقول : ((والأمر ههنا ليس للتكليف بل هو للإهانة والتوبيخ والظاهر أن صيغة الأمر لا دخل لها في التوبيخ بل هو مستعار من قوله : (بما كنتم تكفرون) إلا ان الإهانة الواقعة بصيغة الأمر لما كانت مسببة من كفرهم المستوجب للتوبيخ كان التوبيخ مستفاداً من الأمر

(١) الحاشية : ٣٦/١ .

(٢) ينظر : الكشاف : ٥٧/١ .

(٣) ينظر : من بلاغة القرآن الكريم ، أحمد بدوي : ٧٦ .

(٤) الحاشية : ١١٦/٤ .

أيضاً))[1] .

وقد يدلل سياق الأمر على دلالته ، فالإهانة بفعل الأمر قد تكون بدلالة تجسيم العذاب وجعله محسوساً مُذاقاً ، يتناوله المجرمون للإزدراء بهم ، لأن ما كان العذاب شرابه فكيف يكون مقامه غير انه في غاية البعد فقد يدلل إسناد تذوق العذاب على مهانة عظيمة في حقهم .

والى قريب من ذلك ، ذكر الزمخشري[2] ، ان الأمر فيه دلالة على التوبيخ والتهكم بهم لاستهزائهم وكفرهم ، فخصص الدلالة في الفعل ، فيما بين شيخ زادة ان قرائن التوبيخ في السياق هي التي أضفت على الأمر تلك الدلالة وخصص من تلك القرائن قوله تعالى : (بما كنتم تكفرون) ، وقد تكون من قرينة تجسيم ذلك العذاب وتصويره دلالة على الإهانة لا كما بين شيخ زادة .

وقد تكون الإهانة مع التنكيل دلالة لورود فعل الأمر في السياق ، وذلك كقوله تعالى:﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[يس:٦٣-٦٤].

فجيء بصيغة الأمر في قوله تعالى (اصلوها) لتعبر عن أستسلامهم وذهاب قدرتهم على التحكم بأنفسهم ، إذ جعلوا كمخلوقات مجردة من العقول والقدرة على الدفع عن أنفسها ، فتساق للأمر بالصلي والعذاب كما يُساق المتجرد من العقل إلى إيذاء نفسه ، وفي ذلك إهانة لهم ، ولعل هذا ما أراده شيخ زادة إذ بيّن دلالة الأمر بقوله : ((قوله : (اصلوها) أمر تنكيل وإهانة))[3] .

التسوية :

ويأتي الأمر بهذه الدلالة في المقام الذي يوهم المخاطب فيه برجحان أحد الأمرين على الآخر ، فيندفع ذلك التوهم بالتسوية بينهما[4] ، ومثّل شيخ زادة ذلك الغرض بقوله تعالى : ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٨٠] فساوى تعالى بين

(١) الحاشية : ٣٤٢/٤ .

(٢) ينظر : الكشاف : ٣١٦/٤-٣١٧ .

(٣) الحاشية : ١٣٨/٤ .

(٤) ينظر : المعاني في ضوء أساليب القرآن : ١٦٧ .

استغفاره ﴿ ﷺ ﴾ وبين عدمه للتأكيد على استحقاقهم العقوبة ، ويبين شيخ زادة تلك الدلالة بقوله : ((وفائدة العدول إلى صيغة الأمر مع ان الخبر أيضاً يدل على تساوي الأمرين في عدم النفع مثل ان يقال استغفارك من حيث ترتب المغفرة عليه كعدمه لا فرق بينهما هي الدلالة على التأكيد والمبالغة في تساوي الأمرين))[١].

وقد تكون دلالة التسوية للمبالغة في بيان استواء الأمرين العمل وعدمه ، وذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٥٣] ، فجعل سبحانه وتعالى إنفاق الفاسقين وعدمه سواء في عدم تقبله منهم ، مبالغة في بيان تسوية الأمرين ، ويقول شيخ زادة في دلالة السياق : ((فائدة الخبر في صورة الأمر التأكيد والمبالغة في بيان تساوي الأمرين وعدم تفاوت الحال على كلا التقديرين ... وكذا في الآية لو اكتفى بان يقال لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً لخلا الكلام عن الدلالة على المبالغة الحاصلة بإيراد الكلام في صورة الإخبار ، فانه في قوة ان يقال أنفقوا على أي حال أردتم ثم انظروا هل يتقبل منكم))[٢] فيأتي الأمر المجازي في مثل هذه السياقات ليساوي بين الفعل وامتناع الفعل ليوفر دلالة قلة المبالاة فيهِ .

ولم يفصل القزويني (ت٧٣٩هـ)[٣] ، والعلوي (ت٧٤٩هـ)[٤] اللّذان تطرقا إلى دلالة التسوية في الأمر ، كما فصّل شيخ زادة .

للإخبار

إذ يخرج الأمر لمعنى الخبر ، عندما يتعلق السياق بالأمر التكويني ، فان حصوله يكون خبراً لتحقق وجوده لارتباطه وتعلقه بقدرة الله تعالى ، ومثّل شيخ زادة ، لهذه الدلالة بقوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ [طه: ٣٩] .

وبين شيخ زادة دلالة الأمر في السياق القرآني بقوله : ((قوله (فليلقه اليم) وان كان

---

(١) الحاشية : ٢/٣٤٤-٣٤٥ .

(٢) الحاشية : ٢/٣٣٦ .

(٣) ينظر : الإيضاح : ١٤١ .

(٤) ينظر : الطراز : ٥٣١ .

أمراً صورةً إلا ان معناه الخبر أي ان تفعلي ما أمرت به يلقه اليم بالساحل لتعلق إرادتي بذلك))[١] .

التهديد :

ويكون في مقام عدم الرضى بالمأمور به[٢] ، فتكون صيغة الأمر لردع المخاطب للكف عن العمل به ، وذلك كقوله تعالى :﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٣٠] ، وبين شيخ زادة غرض الأمر في السياق بقوله : ((صيغة الأمر للتهديد كقول الطبيب للمريض الذي خالف أمره بترك الاجتناب عما يضره بعدما أمر الطبيب به مرات كُلْ ما شئت فان مصير أمرك إلى الموت يريد به التهديد ليرتدع المريض عما هو عليه ويقبل قول الطبيب ، فكذلك الله تعالى ترك الكفار وحدهم وأنفسهم قائلاً تمتعوا والمقصود ردعهم عن تلك الحالة))[٣] .

فيما جعله أبو السعود[٤] (٩٨٢هـ) ، للمبالغة في التخلية والخذلان ، ولعل التهديد أقرب للسياق من التخلية ، إذ ان نبرة السياق ومضمونه يُحيل عليها خصوصاً مع كون الإثم هو اتخاذ الأنداد .

وقد لا يشوب معنى التهديد معنى آخر ، فيكون التهديد حاسماً في النص ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة: ٥٢] .

فقد بيّن شيخ زادة غرض الأمر بالقول : ((وقوله (فتربصوا) وان كان صيغة أمر إلا ان المراد منه التهديد أي فانتظروا مواعيد الشيطان إنا منتظرون مواعيد الله تعالى في إظهار دينه))[٥] . وقد دلّ التصعيد بالوعيد على معنى التهديد ، فقد اكتسب الأمر هذه الدلالة من السياق وقرائنه المعنوية .

---

(١) الحاشية : ٣١٤/٣ .

(٢) ينظر : المعاني في ضوء أساليب القرآن : ١٦٨ .

(٣) الحاشية : ١٣٥/٣ .

(٤) ينظر : تفسير أبي السعود : ٤٦/٥ .

(٥) الحاشية : ٣٣٦/٢ .

ب-النهي :

هو أحد أساليب الطلب ، الذي يكون عبارة عن قولٍ ينبئ عن المنع والكف عن الفعل على وجه الاستعلاء من جهة الناهي[١] ، ويؤدى هذا الأسلوب بصيغة واحدة هي لا الناهية مع الفعل المضارع ، ويأتي في الكلام لتأدية أغراض تارة تكون حقيقية وأخرى تكون مجازية يدل عليها السياق ، ونبّه شيخ زادة إلى ورود النهي الحقيقي وذلك كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧] .

إذ يقول شيخ زادة في دلالتها : ((المراد من الآية النهي عن ان يمشي الإنسان مشياً يدل على الكبرياء والعظمة أي لا تمش في الأرض مختالاً فخوراً))[٢] . فالنهي في الآية نهيٌ حقيقيٌ يشمل على إلزامية ترك الفعل وهو الكِبر والعظمة كما انه صادر على جهة الاستعلاء من لدن الناهي .

أما الأغراض المجازية للنهي التي نبّه عليها شيخ زادة ، فهي :

التنبيه :

وذلك كقوله تعالى:﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه:١٦] ، إذ نبّه النهي وبأسلوب بليغ على معنى الثبات والقوة في أمر الدين ، وبين شيخ زادة دلالة النهي المجازي بقوله : ((نظم الآية مبنياً على انه ينبغي ان يكون ثابتاً وقوياً في دينه ، يعني ان ضعف الرجل في دينه لما كان سبباً لصد الكافر إياه عن دينه كأنه نهى الكافر عن الصد المسبب عن الضعف تنبيهاً ودليلاً على نهي الرجل عن الضعف الذي هو سبب لصد الكافر ، فكأنه قيل لا تكونن رخواً ضعيفاً في أمر دينك فيصدنك عنه الكافر ... ان النكتة في العدول إلى المجاز التنبيه على انه لا ينصد عن الحق بنفسهِ وان سلامة فطرته تحمله على ترجيح الحق واختياره وان موضع الاحتياط ليس إلا ما يأتيه من الصد الخارجي))[٣] .

---

(١) ينظر : الطراز : ٥٣١ .

(٢) الحاشية : ٢٢٤/٣ ، وينظر : ١٩٧/٣ .

(٣) الحاشية : ٣١٠/٣-٣١١ .

فلمّح النص بالتنبيه إلى ضرورة التمسك بالدين والتصدي لأعدائه، لأن خلاف ذلك يجعله مُنتهكاً ، أو منحرفاً عن مساره فيكون مقتولاً بسيف أبنائهِ الضعفاء .

المبالغة :

ونبه شيخ زادة إلى ان النهي يخرج إلى المبالغة في سياقات منها في قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ...﴾ [البقرة: ٢٣٥]

فكان نهيه (عزّ وجل) عن عقد النكاح للمبالغة في النهي عن النكاح نفسه في الظروف التي بينتها الآية المباركة ، هذا ما أوضحه شيخ زادة ببيانه لغرض النهي في الآية ، وذلك بقوله : ((المقصود النهي عن تزوج المعتدة في زمان عدتها ، إلا انه نهى عن العزم على عقد النكاح للمبالغة في النهي عن النكاح في زمان العدّة ، فان العزم على الشيء متقدم عليه ، والنهي عن مقدمات الشيء يستلزم النهي عن ذلك الشيء بطريق الأولى))[1] .

ومنه قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، إذ يقول شيخ زادة في دلالتها: ((وُجِهَ النهي عن الإلهاء إلى الأموال والأولاد ، للمبالغة في نهيهم عن الاشتغال بها عن ذكر الله تعالى وطاعته فان كونهما مُلهِيَين شاغلين إياهم عن طاعة الله لازم لكونهم لاهين مشتغلين بهما عن الطاعة ، والنهي عن اللازم أبلغ في الدلالة على النهي عن الملزوم من النهي عن اللازم))[2] .

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ [البقرة: ٢٣١] ، إذ أورد لفظ إمساك النساء بأسلوبين الأول بصيغة الأمر ، (فأمسكوهن) ثم بصيغة النهي (ولا تمسكوهن ضِراراً) ،

(١) الحاشية : ٥٤٧/١ .

(٢) الحاشية : ٥٠٠/٤ .

وأوضح شيخ زادة دلالة ذلك النهي بعد الأمر بقوله : ((فلما قال تعالى بعد الأمر المذكور (ولا تمسكوهن ضِراراً) دل ذلك على المبالغة في التوصية بالإمساك بالمعروف ، لدلالته على ان الإمساك المذكور مطلوب منه في جميع الأوقات))[1] .

وبذلك أوضح شيخ زادة دلالة النهي على المبالغة من خلال التلميح بالكف عما هو ملازم للمنهي عنه في الأصل .

التأكيد والمبالغة والتنبيه :

وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾ [الأنفال:٢٥] ، إذ لم يحمل النهي فيه على حقيقته ، بل لأغراض أوضحها شيخ زادة بقوله : ((هو نهيٌ للمخاطبين ، ثم انه ليس نهياً عن إصابة الفتنة إياهم لان إصابة الفتنة فعل غيرهم ولا ينهى أحد عن فعل غيره ، بل هو نهي لهم عن سبب إصابة الفتنة ، وهو الظلم ، فالمعنى على تقدير كونه نهياً وارداً بعد الأمر لتأكيده لا تتعرضوا معاشر المؤمنين للظلم فأنه سبب لإصابة الفتنة ، التي هي أثر الظلم ووباله ، فتصيب الفتنة الظالمين الذين هم انتم خاصة بناء على ظلمكم ، وإنما أصابتهم على ظلمهم خاصة دون سائر الناس ، ثم جعل النهي للفتنة للمبالغة))[2] . فنهى القرآن عن التقرب للفتنة للمبالغة والتأكيد على النهي عن القيام بها .

الإخبار :

يخرج النهي مخرج الإخبار ، عند شيخ زادة لغرض يقتضيه السياق ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾ [البقرة: ١٤٧] ، ففي السياق نهي بمعنى الخبر ، أوضح شيخ زادة دلالته المجازية بالقول : ((فان وردت صورة النهي في مثل هذه المواضع لا يراد بها حقيقة النهي بل يقصد بها شيء آخر ، فقوله تعالى (فلا تكوننَّ من الممترين) من قبيل الخطاب العام الوارد على صورة النهي، والمقصود منه إخبار كافة الناس بأن المقام ليس بمظنة لأن يرتاب فيه أحد من الأنام، وهو خطاب له (عليه الصلاة والسلام) لكونه أبلغ في نهي الأمة عن الامتراء، لأن امتراء من كان أمة

(١) الحاشية : ٥٣٩/١ .

(٢) الحاشية : ٣٠٤/٢ .

له ﷺ بمنزلة امترائه ﷺ))[1] .

ويظهر بذلك الحسّ البلاغي للشيخ زادة إذ لم يقتصر على الدلالة الحقيقية للنهي، بل تتبع ما دل منها على المجَاز في سياقات ورودها مبيناً بلاغة ذلك المجيء ودلالته .

ج-الاستفهام

الاستفهام لغةً مأخوذ من فهم الشيء فهماً أي علمه ، ويقال قد استفهمني شيئاً أي طلب فهمه[2] ، أما في الاصطلاح فهو طلب حصول صورة الشيء في الذهن[3] ، على جهة الاستعلام[4] .

وهو من الأساليب الرصينة التي يطلب بها المتكلم من المخاطب حصول معرفة ، ويستلزم في أصل وضعه جهله فيها ، وله أدوات بالغة الدقة وطرق وسياقات في غاية الفصاحة . فالسؤال عن العاقل يختلف في الأداة والسياق عن غير العاقل ، وكذا السؤال عن الحال الزمان ، إذ لكل منها مقامه ، ويقسم الاستفهام إلى قسمين : الأول : الاستفهام الحقيقي ، وهو الذي تعبر فيه الأداة عن المعنى الموضوع له في سياقات استفهامية لطلب معرفة ، فكان لفظه الظاهر موافقاً لمعناه الباطن للتعبير عن التساؤلات غير المعلومة لدى المتكلم[5] .

وجاء هذا النمط من الاستفهام في القرآن الكريم في سياق الأوامر القرآنية التي تثير التساؤلات عند المتلقي فيبدأ بالاستفهام عن كنه حقيقتها ، والحكمة منها فينزل ذلك السؤال منزلة الاستفهام الحقيقي لأن غرضه المعرفة المقابلة لجهله ، ومثل شيخ زادة لهذا الغرض بقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ [البقرة: ٦٨] .

فيبين الشيخ زادة دلالة الاستفهام الحقيقي بقوله : ((انهم لما سمعوا له صفة ليس

---

(١) الحاشية ٤٦٠/١ .

(٢) ينظر : العين مادة (فهم): ٦١/٤ ، والصحاح مادة (فهم) : ٢٠٠٥/٤ .

(٣) ينظر : مواهب الفتاح في شرح تلخيص المعاني ، المغربي : ٤٦٦/١ .

(٤) ينظر : الطراز : ٥٣٢ .

(٥) ينظر : أساليب الطلب : ٣٠٩ .

من شأن جنس البقرة ان يتصف بها وهي ان يحيي الميت ، بأن يضرب ببعض أجزائها أجروا ما أمروا بذبحه مجرى ما لم يعرفوا حقيقته فسألوا عنه بما يسأل به عن الحقيقة مع ان الظاهر ان يسألوا بما يسأل به عن الوصف))[1] .

فسياق الحال الذي رافق السؤال قد بين حقيقة السؤال ، كما ان أداة الاستفهام (ما) ، التي يزدوج إنتاجها الدلالي لمهمتين الأولى شرح المدلول المسلطة عليه ، والثانية الكشف عن حقيقته العميقة ، وكذلك السياق يُظهر ان سؤالهم كان ابتدائياً ثم تمادوا في اللجاج بعد ذلك .

أما النوع الثاني من الاستفهام ، فهو الاستفهام المجازي ، الذي يخرج فيه الاستفهام عن معناه الحقيقي وهو طلب المعرفة إلى معاني متولدة من السياق وبمعونة قرائن الحال ، وقد عنى شيخ زادة في هذا النوع من الاستفهام عناية شديدة إذ أظهر الدلالات التي يبعثها الاستفهام وبلاغة ورودها في النص القرآني .

ومن الأغراض التي أشار إليها شيخ زادة للاستفهام المجازي :

التقرير :

هو احد أغراض الاستفهام المجازي وهو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده نفياً أو إيجاباً[2] . وقد جاء هذا النوع من الاستفهام في القرآن الكريم إذ يستفهم تعالى عباده ليقررهم ويذكرهم بانهم قد علموا حق ذلك المستفهم عنه وقد ايقنته نفوسهم فإذا استفهموها يجدونه حاضراً فيها[3] . وفي ذلك إلزام للمخاطب بالحجة وانتزاع للاعتراف منه[4] ، لاستجلاء المعاني المضمرة في النفوس .

وقد أهتم شيخ زادة ببيان هذه الغرض في النصوص القرآنية ومنها في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] ، إذ يقول شيخ زادة في غرض الاستفهام : ((ان معنى الاستفهام فيها التقرير والتوبيخ))[5]. إذ

(١) الحاشية ٣٢١/١ .

(٢) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٣٤٤/٢ ، ومن بلاغة القرآن : ١٢٧ .

(٣) ينظر : أساليب الطلب : ٣٠٨ .

(٤) ينظر : البلاغة فنونها وأفنانها ، د. فضل حسن عباس : ١٩٣ .

(٥) الحاشية : ٣٣٨/٤ .

تقرر في نفوسهم وهم في أهوال يوم القيامة ان ذهاب الطيبات والتنعم بها شيء مؤكد ورجوعها محال ، ولكن سُئلوا عنها في ذلك الموقف زيادة في التوبيخ والذم .

وقد يصحب الاستفهام التقريري الأغراض كالمبالغة وذلك كقوله تعالى:﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات: ١٢] ، وبين شيخ زادة السياق ودلالة التقرير فيه بالقول : ((التمثيل لتصوير الاغتياب بأقبح الصور مع مبالغات في تقبيحه إحداها الاستفهام المقرر أي الحامل للمخاطبين على ان يقروا بأن أحداً منا لا يحب ذلك الأكل الذي هو تناول عرض المغتاب فأن الاستفهام التقريري إنما يحسن إذا كان الحكم مسلماً عند كل أحد فيكون مبالغة في تقبيح الأكل))[١] .

فيكون إقرارهم بممارسة الاغتياب أشنع من الصورة التي صورها القرآن لهم ، ويستلزم تصوير الغيبة وهي متعلقة بالمغتاب غاية الشناعة التي تستوجب له تركها.

وقد يصحب التقرير أيضاً أغراض كالذم والتوبيخ ، وذلك كقوله تعالى: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [النور: ٥٠]، إذ يقول شيخ زادة في دلالة الآية : ((قوله تعالى (أم في قلوبهم) استفهام تقرير للذم والتوبيخ)) [٢] .

فذم سبحانه وتعالى الصفات المذكورة وهي مقررة في أنفسهم ووبخهم على التلبس بها والمداومة عليها ، حتى تمكنت منهم ووجهتهم التوجيه المضل .

الإنكار

إذ يكون الاستفهام بمعنى النفي ، فتكون الجملة الاستفهامية منفية بالمعنى ، لأجل التكذيب ، فيتضمن سياقها معنى (لم يكن) إذا كان ماضياً ، أو (لا يكون) إذا كان مستقبلاً[٣] .

وقد يكون الغرض التوبيخ إذ يكون السياق بمعنى ما كان ينبغي حدوث الأمر من

(١) الحاشية : ٣٧٤/٤ .

(٢) الحاشية : ٤٣٤/٣-٤٣٥ .

(٣) ينظر : المعجم المفصل في علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني) ، د. إنعام فوّال عكاوي : ١٢٥ .

المخاطب[1] ، وتطرق شيخ زادة لكلا المعنيين للإنكار ، اما التكذيب فيكون في مقام الاحتجاج أبلغ كما ذهب شيخ زادة في قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] .

ويبين شيخ زادة انه تعالى استفهم بداعي تكذيبهم وقيام الحجة عليهم بذلك ، والاستفهام الإنكاري أكثر تأديةً لهذا المعنى من غيره ، إذ يقول : ((وأخذ بالاستفهام الإنكاري تنبيهاً على انه أهم ههنا ، لان الكلام السابق إنما يدل على ان ملة إبراهيم هو الإسلام وانه هو وابنه يعقوب وصيا بذلك بنيهما ولا يدل على الإنكار على الكفرة وتكذيبهم فيما زعموا من ان يعقوب عليه الصلاة والسلام مات على اليهودية إلا التزاماً بخلاف الاستفهام الإنكاري فانه يدل عليه صريحاً فيكون أهم في مقام الاحتجاج))[2] .

وكذلك فان حضورهم مع يعقوب وبنيه (عليهم الصلاة والسلام) لما لم يكن حاصلاً ، ظهر ان استفهاهم عن حصوله هو لتكذيبهم والاحتجاج عليهم .

وقد تقترن دلالة الإنكار بالاستبعاد ، فتكون أشد نفياً للسياق وذلك كقوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٤] ، فبين شيخ زادة دلالة الآية بقوله : ((والمقصود من الاستفهام الإنكار والاستبعاد ، يعني تقولون الله اختار البنات على البنين مع نقصانهن ورضى بالأخس الأدنى ، مالكم ؟ ماذا حملكم على هذا القول بغير حجة))[3] .

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الواقعة: ٤٧] ، فاستبعدوا البعث بسياق استفهامي أوضحه شيخ زادة بقوله : ((أي أنُبعث نحن وآباؤنا مبالغة في الإنكار وزيادة في الاستبعاد لأنهم أقدم موتاً))[4] .

---

(١) ينظر : أساليب المعاني في القرآن : ٧٦ .

(٢) الحاشية : ٤٣١/١ .

(٣) الحاشية : ١٦٧/١ .

(٤) الحاشية : ٤٤٢/٤ .

وقد يدل الاستفهام الإنكاري على التوبيخ والتعجيب ، ومثّل شيخ زادة لهذا الغرض بقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨] ، وبين شيخ زادة لهذه الآية غرضين الأول أوضحه بالقول : ((لتنبيه المخاطب وتوبيخه على سوء صنيعه))[١] .

أما الغرض الثاني فأظهره بقوله : ((والمراد باشتمال قوله تعالى (كيف تكفرون) على التعجب انه يدل على ان يتعجب منه كل عاقل يطلع على كفرهم ، فان التعجب من الله تعالى إنما يكون على وجه التعجيب ، الذي هو يدعو إلى التعجب ، كأنه يقول أفلا تعجبون من هؤلاء كيف يكفرون بالله مع قيام الدليل النفسي ... فضلاً عن الدليل الآفاقي))[٢] .

الاستبعاد :

وهو عد الشيء بعيداً ، عندما يكون متعلقه غير متوقع بالنسبة إلى المتكلم[٣] ، ولا يبعث الاستفهام تلك الدلالة إلا بمساندة القرائن السياقية والظروف المحيطة بالنص، وحال المخاطب المصدق أو المنكر ، وبين شيخ زادة هذه الدلالة حين وقف عند قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس: ٤٨] ، فيوضحها بالقول : ((فان معنى الاستفهام في متى الاستعجال ، بمعنى طلب العجل والمقصود في هذا الاستعجال هو استبعاد الموعود وانه مما لا يكون وانه يستهزء به))[٤] .

التشويق :

إذ يحث الاستفهام المخاطبين على استعلام الأمر، والتشويق له ومعرفة أسراره، فيثير المتكلم باستفهامه انتباه المخاطبين ويدعوهم إلى التأمل وانتظار الجواب وفي ذلك تشويق للمستفهم عنه ، كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الصف:

---

(١) الحاشية ٢٣٠/١ .

(٢) الحاشية : ٢٣٠/١ .

(٣) ينظر : علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية ، د. بسيوني عبد الفتاح : ٣٢٠ .

(٤) الحاشية : ١٨/٣ .

١٠-١١] .

وتنبه شيخ زادة إلى غرض الاستفهام بقوله : ((فان الاستفهام في قوله تعالى (هل أدلكم) عرض للدلالة على التجارة حثاً لهم وتشويقاً إلى طلبها واستعلام إنها ما هي ؟ فكأنهم قالوا يا ربنا دلنا عليها حتى نفعلها وننجو بسببها من العذاب الأليم فأجيبوا بأن قيل تؤمنون بالله))[١] .

والى تلك الدلالة ذهب الزمخشري (ت٥٣٨هـ) ، إذ يقول : ((ان الأمر الوارد على النفوس بعد تشوق وتطلع منها إليه أوقع فيها وأقرب من قبولهم له مما فوجئت به))[٢].

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴾ [ص: ٢١] ، فالاستفهام في الآية على معرفة ذلك النبأ وقصته المثيرة ، وجعل شيخ زادة دلالة التشويق في النص إذا كانت القصة غير معلومة ، إذ يقول : ((فأن القصة ... وان لم تكن معلومة يكون الاستفهام عنها للتعنيف واللوم على التقاعد على استعلامها وللتشويق إلى استماعها ، لكونها من الأنباء العجيبة التي حقها ان تسمع ولا تخفى على احد))[٣] . فاستثار الاستفهام أذهانهم للسؤال عنها وشوقهم إلى معرفتها .

التفخيم :

وقد يكشف السياق الاستفهامي ، عن فخامة المستفهم عنه ، بأن يجعل المخاطب يجهل كنهه وعظمة أمره ، التي تخفى عنه وذلك كقوله تعالى : ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [النبأ: ١-٢] ، فبين شيخ زادة دلالة الاستفهام بقوله : ((لفخامته وعِظم شانه كأنه عجز العقل عن ان يحيط بكنهه فيسئل عنه كالأشياء التي جهلت مفهوماتها أو حقائقها فطلبت (بما) ولأجل هذه المشابهة استعمل فيه كلمة (ما) مجازاً حيث جردت عن معنى الاستفهام ، ولم تستعمل فيه))[٤] .

الأمر :

ويخرج الاستفهام لمعنى الأمر لحث المخاطب على الامتثال وترك العناد واللجاج

(١) الحاشية : ٤/٤٩١ .
(٢) الكشاف : ٤/٥٢٧ .
(٣) الحاشية : ٤/١٧٨ .
(٤) الحاشية : ٤/٦٠٣ .

، وذلك كقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٢٠]

فيبين شيخ زادة غرض الآية بالقول : ((ان المقصود من الاستفهام في مثل هذا المقام هو الأمر ... إلا ان التعبير عن معنى الأمر بلفظ في صورة الاستفهام فائدة زائدة وهي تعبير المخاطب بكونه معانداً بعيداً عن الأنصاف لأن المنصف لا يتوقف في قبول الحجة بعد قيامها))[١] .

وفيما فصّل شيخ زادة بغرض الاستفهام وبلاغته ، اكتفى السُبكي بإجمال المعنى بقوله : ((أسلموا للأمر))[٢] ، ولم يفصل فيه .

د-النداء :

هو احد أساليب الطلب الذي يتضمن طلب إقبال المدعو على الداعي[٣] ، ليُصغي إلى أمرٍ ذي بال[٤] ، وأهمية ، ويكون النداء بأدوات مخصوصة فلنداء القريب يستعمل (الهمزة وأيُّ) ويستعمل لنداء البعيد (يا ، آ ، أي ، أيا ، هيا ، وا) فيما لم يستعمل القرآن من تلك الحروف سوى (يا)[٥] .

ولعل شيخ زادة ومن خلال بحثه البلاغي أظهر سرّ اختيار هذا الحرف عن غيره ، إذ يُظهر بحثه ان لهذا الحرف ميزة ، وهي انه يضفي على السياق الذي يرد فيه دلالة البعد المجازي والقرب ، والتنبيه ، والإيقاظ ، والتعظيم ، لقابلية هذا الحرف على الخروج عن معناه الحقيقي ، وهو الدلالة على البعد المادي ، أو البعد المحسوس ، فمن الدلالات والأغراض المجازية التي أشار إليها شيخ زادة للنداء بـ(يا) :

الدلالة على علو الشأن وبعد المقام :

إذ يقول : ((ان كلمة (يا) موضوعة لنداء البعيد وقد شاع استعمالها في نداء

---

(١) الحاشية : ٦١٣/١ .

(٢) عروس الأفراح : ٤٥٨/١ .

(٣) ينظر : الاتقان : ١٦١/٢ .

(٤) ينظر : المعاني في ضوء أساليب القرآن : ١٨٩ .

(٥) ينظر : المعاني في ضوء أساليب القرآن : ١٩٠ .

القريب كقول الداعي يا رب ... انها حقيقة في نداء البعيد وتستعمل مجازاً في نداء القريب تشبيهاً له بالبعيد تنزيلاً لعلو شأنه وبعد مرتبته عن مرتبة الداعي منزلة بعد المسافة))[1] .

وكذلك يقول في قول الداعي (يا الله) : ((فإذا أستبعدهُ الداعي يقوله : (يا الله) لا يريد بعد المسافة بل بُعْد ما أمله من فيضان جوده في حقه اعترافاً منه بتقصيره في رعاية ما كلفهُ به))[2] .

فضلاً عن ما بينه شيخ زادة من غرض بياني في بيان علو مرتبة المدعو ، فان النداء بياء ، قد يؤدي من خلاله الداعي غرضاً نفسياً ، إذ يعطي المد الهوائي والاستطالة الطويلة في (ياء النداء) تنفيساً للمكروب عن كربه ، وكذلك يُشعر طول المد بطول الرغبة في الحديث مع الرب أطول فترة ممكنة خصوصاً في دعائه ومناجاته .

التعظيم :

إذ يوفر سياق الكلام تلك الدلالة ، ولا يدل عليها النداء بمفرده وذلك كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأحزاب: ١] ، وبين شيخ زادة غرض النداء بقوله : (فان تعظيم المنادى ذريعة إلى تعظيم شأن المنادى له))[3] .

فاكتسب النداء دلالة التعظيم من السياق إذ يقول البيضاوي (ت٦٨٥هـ) : ((ناداهُ بالنبي وأمره بالتقوى تعظيماً له وتفخيماً لشان التقوى))[4] . فالتعظيم بالصفة المنادى له بها فضلاً عن النداء بـ(يا).

وقد يكون النداء بالبعيد لتعظيم الداعي بإنزال بعد مقامه بعد المسافة عن المدعو وذلك كقوله تعالى : ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤] ، إذ يقول شيخ زادة في بيان غرض النداء في الآية : ((نداء الله تعالى الأرض والسماء بقوله : (يا أرض ابلعي) و (يا

(١) الحاشية : ١/١٧٦-١٧٧ .

(٢) الحاشية : ١/١٧٧ .

(٣) الحاشية : ٤/٥١ .

(٤) تفسير البيضاوي : ٢/٢٣٨ .

سماء اقلعي) إظهاراً لعظمته وكبريائه ، وتنزيلاً لبعد مرتبة المنادى عن مرتبة المتكلم منزلة بعد المسافة))[١] .

التنبيه والإيقاظ :

إذ ينبه النداء على أمرٍ قد غفل عنه المنادى فيثيره ويوقظ ذهنه لمعرفته ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١] ، فنداءه تعالى ذو غرض أوضحه شيخ زادة بقوله : ((فالناس في قوله تعالى : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) وإن كانوا عقلاء متفطنين لما يرد بعد النداء من وجوب العبادة لخالقهم الذي رباهم بوجوه التربية لكنهم نودوا بما ينادى به البعيد إبرازاً لهم في معرض الغافلين عن الحث على تركها فبحيث لم يأتوا بها جعلوا كالغافلين فنودوا بذلك ، تنبيهاً على غفلتهم المنزلة منزلة بعد المسافة))[٢] .

وقد يكون النداء للمعاني المجردة بداعي التنبيه وذلك كقوله تعالى : ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [يس: ٣٠] ، فبين شيخ زادة غرض النداء فيه بقوله : ((والمعنى يا حسرة عليهم تعالي فهذا أوان حضورك فيها والحسرة لا تُدعى ولا يُطلب إقبالها ، لأنها مما لا يجيب والفائدة في ندائها مجرد تنبيه المخاطب وإيقاظه ليتمكن في ذهنه ان هذه الحالة تقتضي الحسرة وتوجب التلهف))[٣] .

فيما لم يشر الزركشي (ت٧٩٤هـ) ، إلى دلالة التنبيه عند تطرقه للآية واكتفى ببيان انه نداء للمعنى ، إذ يقول : ((لو كانت الحسرة مما يصح نداءها لكان هذا وقتها))[٤] .

ويتضح مما سبق الحس البلاغي لشيخ زادة إذ بيّن ان النص وقرائنه ممكن ان تضفي على أداة النداء معاني إضافية مجازية فيما لم يتطرق السكاكي[٥] (ت٦٢٦هـ)

(١) الحاشية : ١٧٧/١ .
(٢) الحاشية : ١٧٧/١ .
(٣) الحاشية : ١٢٧/٤ .
(٤) البرهان في علوم القرآن : ٣٣٧/٢ .
(٥) ينظر : مفتاح العلوم : ٣٣٧/٢ .

والقزويني[١] (ت٧٣٩هـ) ، والعلوي[٢] (ت٧٤٩هـ) وهم من كبار البلاغيين إلى النداء المجازي مكتفين بدلالته على الاختصاص ، فيما بين شيخ زادة بلاغة ورود النداء وفق سياقات مقصودة دلالياً .

وهذه طرق وأساليب الإنشاء الطلبي عند شيخ زادة أما موقفه من الإنشاء غير الطلبي فاوضحناه في بدء الموضوع .

(١) ينظر : الإيضاح : ١٤٢ .

(٢) ينظر : الطراز : ٥٣٥ .

الفصل الثاني : التقديم والتأخير

التقديم في اللغة هو السبق ، إذ يقال القَدَم والقُدْمة أي السابقة في الأمر ، والقُدُم المضي أماماً ، وفلان قُدِمَ على قومه أي صار أمامهم ، أما المؤخر فهو نقيض المقدم في الدلالة(١) .

أما في الاصطلاح ، فهو ترتيب الألفاظ في النطق تبعاً لترتيب المعاني في النفس(٢) ، وذلك بتقديم اللفظ الذي يكون لتقديمه غرضاً بلاغياً تريد النفس إيصاله إلى المخاطب ، وان كان في الأصل مؤخراً ، وبتأخير اللفظ المقدم الذي يكون لتأخيره غاية بلاغية .

وهذا التقديم والتأخير لا يرد اعتباطاً في الكلام بل يكون أسلوباً فنياً مقصوداً ، إذ تخضع الجملة العربية لنوع خاص من الترتيب المراعي لوظائف أركانها الإسنادية في الوضع الأصلي لها ، إلا انه قد يعرض لهذا الترتيب خرقٌ فنيٌ يتجاوز الدلالة السطحية التي يؤديها التركيب إلى إعطاء دلالة عميقة(٣) .

ويُحدِث هذا التغيير في النظم التركيبي للجملة تغيراً في الدلالة وانتقالاً من مستوى إلى مستوى آخر(٤) ، من خلال تقديم الكلام الذي هو في المعنى مؤخر ، وتأخير الكلام الذي هو في المعنى مقدم(٥) .

ويكون التقديم والتأخير في الكلام على ضربين : الأول يختص بدلالة الألفاظ على المعاني ، ولو أُخِرَ المقدم ، أو قدم المؤخر لتغير المعنى ، وهو ينقسم إلى تقديم بليغ ، وتأخير بليغ كتقديم المفعول على الفعل ، والخبر على المبتدأ وغيره ، والضرب الثاني ، ما يختص بدرجة التقدم بالذكر ، لاختصاصه بما يوجب له ذلك ، ولو أُخر لما تغير المعنى ، كتقديم السبب على المسبب ، أو تقديم الأكثر على الأقل أو تقديم

---

(١) ينظر : العين ،(مادة قدم) : ٥/١٢٢-١٢٣.

(٢) ينظر : البلاغة فنونها وأفنانها ، د. فضل حسن عباس : ٢٠٧ .

(٣) ينظر : المعاني في ضوء أساليب القرآن ، د. عبد الفتاح لاشين : ٢١٧ .

(٤) ينظر : البلاغة الأسلوبية ، محمد عبد المطلب : ٣٣١ .

(٥) ينظر : الصاحبي في فقه اللغة ، أحمد بن فارس : ٤٢٤ .

الأعجب فالأعجب[1] .

وبحث شيخ زادة في الضربين ، من هذا الأسلوب ، واهتم بالأول منه ، فبين أنماطه في المسند والمسند إليه ومتعلقاتها ، إذ قد يقدم كل ركن من هذه الأركان ، لتأدية دلالة وغرض بلاغي يغير المعنى السياقي للجملة ، ويضفي عليها معان لا تتأتى إلا من هذا التقديم ، فيما بحث في الضرب الثاني ، لكون تقدم بعض ألفاظ القرآن من مقتضيات البلاغة ومن أدلة الإعجاز وبراهينه ، كما سيتضح في بيان جهده في تقديم المسند والمسند إليه ومتعلقاتهما ، وتقديم الألفاظ بحسب المقتضيات البلاغية.

١-تقديم المسند إليه وأغراضه البلاغية :

وإن كان الأصل في التركيب تقدم المسند إليه ولاسيّما (المبتدأ) ، إلا ان شيخ زادة يرى ان بعض السياقات القرآنية ، تقتضي هذا التقديم لأغراض بلاغية تهدف إلى إيصالها للمخاطب ، ومن تلك الأغراض التي أشار إليها :

التخصيص :

وهو قصر المسند إليه على المسند وتخصيصه به ونفيه عما عداه فهو إثبات ونفي في الجملة كما يرى شيخ زادة[2] ، والتقديم لأجل التخصيص لديه يأتي في سياقين كما أنتج التأمل في معالجاته لنصوص القرآن :

الأول : التقديم في السياق المثبت :

يفيد التقديم في السياق المثبت الاختصاص عند شيخ زادة كقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧] .

فجيء بالمسند إليه (هم) مقدماً ، لبيان انهم المختصون بتلك الصفة لا غيرهم ، إذ يقول شيخ زادة : ((قدم المسند إليه في الجملة ... للدلالة على انهم الأخصِاء المتميزون بالعفو عمن أغضبهم وآذاهم لا يذهب الغضب عقولهم كما يذهب عقول

(١) ينظر : المثل السائر لابن الأثير : ٢/٢٠-٣٠ ، وينظر : الطراز : ٢٣٠ وما بعدها ، وينظر : البرهان في علوم القرآن : ٣/١٥٤ وما بعدها .

(٢) ينظر : الحاشية : ٤/٩٢ ، ٣/٦٢ .

الناس))[1] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣] ، إذ يقول شيخ زادة في دلالة التقديم : ((ان اعتبار تقديم الفاعل المعنوي على عامله يفيد الاختصاص فيكون المعنى أنهم أوحديون في الإيقان بالآخرة ولا يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون للصفات المذكورة))[2] .

وفي هذا الأسلوب من الاختصاص كما يرى د. فاضل السامرائي تعريض بالمنفي عنه تلك الأمور إذ يقصر المعنى الحقيقي بالمسند إليه وينفى عمن عداه[3] . وكذلك يمكن ان يقال ان في هذا الأسلوب مبالغة ، وكأن الاختصاص محصور بأفراد بعينهم ومنفي عن غيرهم .

الثاني : التقديم في سياق النفي :

إذ اشترط البلاغيون[4] ، لإفادة التخصيص في سياق المسند إليه المنفي ان يكون المسند فعلاً فيما عارض المفسرون هذا الرأي إذ ذهب الزمخشري[5] (ت٥٣٨هـ) إلى تجويز مجيء الاسم بدلالة نصوص قرآنية كما سيتضح ، وتابعه أبو السعود[6] (ت٩٨٢هـ) على هذا الرأي ، فيما ذهب ابن عاشور[7] (ت١٣٩٣هـ) إلى ان تقديم المسند إليه المنفي على المسند المشتق لا يفيد الاختصاص إلا بمعونة المقام وقرائن السياق الموجودة في النص .

أما شيخ زادة فذهب مع البلاغيين في اشتراطه كون المسند فعلاً أو شبهه ، فأضاف إليه (شبه الفعل) وقصده بذلك ان يُقدر الفعل في سياق النص ولتوضيح رأيه سيقف البحث عند قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ [هود:٩١] إذ قُدِم المسند إليه المنفي (ما أنت) على الرغم من كون المسند غير فعل ، وهو قوله

(١) الحاشية : ٢٨٣/٤ .

(٢) الحاشية : ٤٨٣/٣ .

(٣) ينظر : على طريق التفسير البياني : ٢٨٨/٢ .

(٤) ينظر : دلائل الإعجاز : ١٢٥-١٣٦ ، والإيضاح : ٧٦ ، والمطول : ٢٥٥ ، ومواهب الفتاح : ٢٤٨/١ .

(٥) ينظر : الكشاف : ٤٢٦/٢ .

(٦) ينظر : تفسير أبي السعود : ٣٤٥/٣ .

(٧) ينظر : التحرير والتنوير : ١٠٠/٢-١٠١ .

تعالى (بعزيز) لغرض إفادة التخصيص ، فيقدر شيخ زادة المسند بالفعل ، إذ يقول : ((ان تقديم المسند إليه يفيد تخصيصه بالخبر أي قصر الخبر عليه ان وقع المسند إليه بعد حرف النفي ... فالقياس ان يكون مدخولهما فعلاً أو شبهه وحيث وجد الاسم بعدها لاسيما الضمير دل ذلك على ان أصل الكلام ما عززت أنت وان التقديم لأجل الاهتمام والاختصاص))[١] . فيما ذهب الزمخشري (ت٥٣٨هـ) إلى عدم تقدير المسند فعلاً بل بالعكس تعامل مع ظاهر النص إذ يقول : ((دلّ إيلاء ضميره حرف النفي على ان الكلام في الفاعل لا في الفعل كأنه قيل وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الأعزة علينا))[٢] . فلم يقدر فعلاً والتمس من السياق الذي استعمل التقديم لإيصال غرض الاختصاص دليلاً على المعنى ، بعكس تقدير شيخ زادة ومراعاته للقاعدة البلاغية . والأقرب للسياق ان التقديم لأجل الاهتمام ببيان المنفي عنه العزة ، لذلك قدموه في قولهم (وما أنت علينا بعزيز) لتخصيصه بعدم العزة فالكلام في الفاعل لذلك قدم لا في الفعل .

التعظيم :

فمن أغراض تقديم المسند إليه تعظيمه ، كما ورد ذلك التعظيم في تقديمه في قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢] .

إذ قدم في النص ، المسند إليه (أجلٌ) على ظرفه (عنده) ، وبين الزمخشري[٣] (٥٣٨هـ) ، ان سائر التراكيب الواردة على هذا النسق ، يُقدم فيها الظرف على المسند إليه النكرة إلا في هذا السياق القرآني ، فقد حصل العكس .

وبين شيخ زادة بلاغة هذا التقديم ، بالقول : ((انه هنا نكتة مرجوحة لتقديمه ... انه لما قصد التفرقة بين الأجلين وقصد تعظيم الثاني استأنف به الكلام أي ابتدأ به ، اهتماماً بشأنه فان تقديم الشيء والاهتمام به من دلائل تعظيمه ، وكذا تذكيره ووصفه

(١) الحاشية : ٦٢/٣ .

(٢) الكشاف : ٤٢٦/٢ .

(٣) ينظر : الكشاف : ٧٩/٢ .

بانه مسمى والإخبار عنه بأنه عند الله كل ذلك من دلائل التعظيم))[1] .

والى ذلك الغرض ذهب معاصره أبو السعود (ت٩٨٢هـ)[2] ، والآلوسي (ت١٢٧٠هـ)[3] ، وابن عاشور (ت١٣٩٣هـ)[4] . ولعله القريب إلى السياق خصوصاً مع وجود أجلين في الجملة ، احدهما مؤخر ، والآخر مقدم ، لعلها بيان أهمية المقدم منها وتعظيمه .

لتقوية الحكم المنفي وتقريره :

كقوله تعالى : ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾[يس: ٤٠] فقدم المسند إليه المنفي وهو (لا الشمس) على عامله (ينبغي) لتأكيد نفي القدرة عن الشمس وتقرير ذلك النفي ، إذ يقول شيخ زادة : ((والفرق بين لا الشمس ينبغي لها وبين لا ينبغي للشمس ، ان الأول أبلغ وآكد في إفادة انها مسخرة فان قولك أنت لا تكذب بتقديم المسند إليه فيه تقوية الحكم المنفي وتقريره فهذا أشد لنفي الكذب من لا تكذب لما فيه من تكرار الإسناد المفقود في لا تكذب فكذا قولك لا الشمس تدرك ولا تدرك الشمس))[5] . فتقديم الشمس أفاد نفي القدرة عنها مرتين الأولى وهي مقدمة الذكر والأخرى وهي مقدرة في ضميرها الراجع اليها في قوله (لا الشمس ينبغي لها) فتقرر الحكم المنفي وتأكد .

وفيما بين شيخ زادة غرض التقديم ، أشار الرازي (ت٦٠٦هـ) إلى ملحظ بلاغي ، في بيان تخالف صيغ الاستعمال قد يعطي غرضاً أخر للنص ، إذ قال في حق الشمس (تُدرِك) بلفظ الفعل ، وقيل في حق صفة الليل وهو في الآية القمر (سابق) بلفظ اسم الفاعل ، لفائدة بلاغية يوضحها الرازي بالقول : ((نقول : الحركة الأولية التي للشمس لا يدرك بها القمر مختصة بالشمس فجعلها كالصادرة منها ، وذكر بصيغة الفعل ، لان صيغة الفعل لا تطلق على من لا يصدر منه الفعل ... والحركة

(١) الحاشية : ١٥١/٢ .

(٢) ينظر : تفسير أبي السعود : ٣٥٠/٢-٣٥١ .

(٣) ينظر : روح المعاني : ٨٣/٤-٨٤ .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير : ١٤/٦ .

(٥) الحاشية : ١٣٢/٤ .

الثانية ليست كالصادرة منه فأطلق اسم الفاعل))[1] . ولعل في كلام الرازي بياناً لأهميتها : إذ ان قدرتها على ان يكون صدور الفعل منها يدلل على فضلها ، بكون الكواكب الأخرى ، مكتسبة لديمومتها من معطيات ذلك الكوكب المنير ، وبذلك يكون نفي القدرة عنها بوجه أبلغ هو إثبات لقدرته تعالى على تسييرها ، ومن ذلك يمكن ان نقول ان غرض تقديمها لأهميتها ، ونفي القدرة عنها وإن كانت أصلاً للحياة فهو إثبات لقدرة الله تعالى عليها بطريق الأولى .

٢-تقديم المسند وأغراضه البلاغية :

يُقدم المسند على المسند إليه ، لأغراض بلاغية يقتضيها النظم البليغ للقرآن الكريم ، تطرق شيخ زادة إلى عدد منها :

التخصيص في مقام التهويل :

كقوله تعالى : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٧] ، فقدم المسند وهو (لهم) على المسند إليه الموصوف (عذاب عظيم) ، وعلل شيخ زادة ذلك التقديم ، لاختصاصهم بذلك العذاب ، إذ يقول : ((قوله تعالى (ولهم عذاب عظيم) جملة اسميه قُدِم الخبر وهو (لهم) ، وعذاب مبتدأ ، وعظيم صفته ، والمبتدأ النكرة الموصوفة وان جاز تقديمه على الخبر كما في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢] إلا أنه أخر ههنا لان المقام ، مقام تهويل لما يستحقونه من الجزاء من ربهم سبحانه وتعالى من القتل والأسر في الدنيا ، والعذاب الدائم في العقبى ، ومن جملة وجوه تهويله بيان ان ما يستحقونه من العذاب مخصوص بهم بحيث لا يعذب عذابهم أحد ولا يوثق وثاقهم أحد))[2] . وتابعه الآلوسي[3] (ت١٢٧٠هـ) في جواز كون غرض التقديم بتخصيص العذاب بهم . ولعله القريب إلى السياق خصوصاً مع ارتفاع نسق الردع والتخويف والتصوير في النص القرآني بالنسبة إلى المعُذَبِين .

---

(١) التفسير الكبير : ٢/٢٧٨-٢٧٩ .

(٢) الحاشية : ١/١٢٤ .

(٣) ينظر : روح المعاني : ١/١٣٩ .

الحصر :

إذ نبه شيخ زادة إلى ان السياق القرآني قد يُقدم (المسند) وهو حقه التأخير لغرض قصره على المسند إليه ، فيشير إلى هذه الدلالة بتقديم الذي هو أعنى وأهم للتقديم ، وذلك كقوله تعالى : ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠] ، إذ قُدِم لفظ (للكافرين) وكان حقه التأخير ، لكون السياق جيء به لبيان إنحصار العذاب بهم فتقديمهم يكون أهم وأوفى للدلالة من تأخيرهم ، وقد أشار شيخ زادة لغرض التقديم بقوله : ((الحصر اللازم من تقديم الخبر معناه إنحصار العذاب الذي يراد به الإذلال في الكفار))[1] .

ومنه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ﴾ [البقرة: ١٤١] ، إذ ان أصل السياق ما كسبتْ لها وما كسبتم لكم ، إلا ان السياق عدل إلى التقديم ، أما غرض ذلك التقديم فيبينه شيخ زادة بقوله : ((ان تقديم المسند منها ، لقصر المسند على المسند إليه أي لها كسبها لا كسب غيرها ، ولكم ما كسبتم لا كسب غيركم وهذا كما قيل في : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] أي لكم دينكم لا ديني (ولي ديني) أي لا دينكم))[2] . فكان تقديم الضمير العائد على الأمة في (لها) دليلاً ان كسبها محصور بها لا يتعداها إلى غيرها وكذلك العكس .

الإفراط في الصفة

كالدلالة المستفادة من تقديم المسند في قوله تعالى : ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ [الحشر: ٢] ، فقدم المسند (مانعتهم) على (حصونهم) للدلالة على شدة وثوقهم بتلك الحصون ، إذ يقول شيخ زادة : ((فتقديم الخبر مع كونه خلاف الظاهر دلّ على فرط وثوقهم بكونها حصينة ، بحيث ظنوا انه لا يخرجهم منها أحد ، وكذا إسناد الجملة إلى ضميرهم فان أصل المعنى وان أدى إلى ان يجعل حصونهم اسم ان ومانعتهم خبرها إلا أنه لما جعل اسم ان ضميراً وجعلت الجملة خبرها حصل تقوى الحكم بتكرار الإسناد ، كما حصل بكلمة (إنَّ) المشددة فدل الكلام على اعتقادهم في

(١) الحاشية : ٣٥١/١ .

(٢) الحاشية : ٤٣٤/١ .

أنفسهم انهم في عزة ومنعة بسببها))[1] . فكان تقديمهم المنع تابعاً لحالتهم النفسية التي تثق بعصمة هذه الحصون من عذاب الله ، وتعكس هذا القلق النفسي والاعتقاد الزائف بحماية هذه الجمادات لهم .

وذهب بعده الآلوسي[2] (ت١٢٧٠هـ) إلى تلك الدلالة إذ يرى ، انهم لشدة وثوقهم بتلك الحصون ظنوا انه لا حصن أمنع منه ، ظناً قارب اليقين بدلالة التقديم.

التوبيخ :

كقوله تعالى : ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٤-١٥] ، إذ قدم المسند بعد همزة الاستفهام للإنكار عليهم ولتوبيخهم على قولهم ان ما جاء به ﴿ﷺ﴾ السحر ، إذ يقول شيخ زادة في دلالة التقديم : ((شان البلغاء تقديم ما لهم به مزيد العناية والاهتمام ، وهو في هذا المقام توبيخ المشركين بنسبته (عليه الصلاة والسلام) ، فيما جاء به من الآيات إلى السحر والتغطية على الأبصار))[3] .

والى ذلك الغرض ذهب معاصره أبو السعود[4] (ت٩٨٢هـ) ، وتبعهما الآلوسي[5] (ت١٢٧٠هـ) . وهو القريب إلى السياق ، إذ استفهمهم تعالى منكراً عليهم وموبخاً ونافياً ان يكون ما جاء به ﴿ﷺ﴾ سحراً ، وقد قدم لفظ (السحر) لكون السياق جيء به لنفيهَ وإنكاره .

رعاية الفاصلة :

كقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠] ، إذ يرى شيخ زادة ان تقديم خبر (كان) وهو (إياكم) على معموله مراعاة للتناسق الصوتي ، إذ يقول : ((قدم لأجل الفواصل والاهتمام))[6] .

---

(١) الحاشية : ٤/٤٧٠ .

(٢) ينظر : روح المعاني : ١٤/٢٣٤ .

(٣) الحاشية : ٤/٤٠١ .

(٤) ينظر : تفسير أبي السعود : ٦/١٤٥ .

(٥) ينظر : روح المعاني : ١٤/٣١ .

(٦) الحاشية : ٤/٩٤ .

ولعل التقديم فيه ، لتأكيد الحشر وحضوره فيهم ، خصوصاً وانهم قومٌ أنكروه ، فدلل على حضورهم فيه ، بقوله (هؤلاء وإياكم) المشار فيهما إلى حاضر مشاهد محسوس لتأكيد حضور كلا الطرفين في ذلك اليوم والله أعلم .

٣-تقديم المتعلقات وأغراضه البلاغية :

كثيراً ما يقدم السياق القرآني متعلقات التركيب الإسنادي ومنها المفعول به ، وقد اهتم البلاغيون في تقديم المفعول في الجملة ، لكونه ينبيء عن غرض بلاغي يهدف التقديم إلى إيصاله ، فذهب السكاكي (ت٦٢٦هـ) إلى كون ذلك التقديم لأجل العناية والاهتمام سواء كان المقدم الأصل في رتبته التقديم أو كان من المعاني التي تطلبها النفس ، ويتجه إليها الخاطر بتزايد ، ومما يكون نصيب العين الاهتمام بها[١]. وتبعه القزويني[٢] (ت٧٣٩هـ) في كون المفعول مما يقدم لغرض العناية والاهتمام لأمره ، وهو ما ذهب إليه سيبويه[٣] (ت١٨٠هـ) قبلهما في إشارة إلى كون العناية والاهتمام من أغراض التقديم عموماً ، فيما ذهب محمد بن علي الجرجاني[٤] والسبكي[٥] (ت٧٧٣هـ) ، وابن الأثير[٦] (ت٦٣٧هـ) ، والعلوي[٧] (ت٧٤٩هـ) ، إلى أن المفعول به يقدم لغرض التخصيص ، وقريباً من ذلك ذهب المغربي[٨] (ت١١١٣هـ) إذ خصّ تقدم المفعول به بالقصر .

والغرض من إظهار آراء العلماء ، هو بيان ان شيخ زادة قد أخذ في تقديم المفعول بآراء من سبقه ، فلم يخرج عن تلك الأغراض إلا في القليل ، مما أضافه لها ، ولكن يبقى غرضا الاهتمام والتخصيص مدار كلام البلاغيين مع شيخ زادة في بحثه لهذا الموضوع ، فمن الأغراض التي ذكرها شيخ زادة لتقديم المفعول به :

---

(١) ينظر : مفتاح العلوم : ٣٤٢ .

(٢) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة : ١١٧-١١٨ .

(٣) ينظر : الكتاب : ١٣٣/١ .

(٤) ينظر : الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة : ٧٨-٧٩ .

(٥) ينظر : عروس الأفراح : ٣٨١/١ .

(٦) ينظر : المثل السائر : ٢١/٢ .

(٧) ينظر : الطراز : ٢٣٤ .

(٨) ينظر : مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح : ٣٩٥/١ .

إفادة التخصيص :

كقوله تعالى : ﴿وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧] ، ويبين شيخ زادة نمط التقديم وغرضه ، بالقول : ((وتقديم المفعول في قوله (إياه تعبدون) للحصر والتخصيص فمن خصّ العبادة به تعالى لزمه ان لا يسجد لغيره ضرورة ان الاختصاص مطلق العبادة له تعالى يستلزم اختصاص أخص العبادة به بطريق الأولى))[١] .

وقد يكون التخصيص – كما بين شيخ زادة – على درجات بحسب الاستعمال القرآني ، فقوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ، يفيد تقديمه التخصيص ، ولكن أقوى منه في دلالة التخصيص التقديم في قوله تعالى : ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

ويفصل شيخ زادة في بيان غرضي التقديمين إذ يقول : ((ان (إياك نعبدُ) كما يفيد التخصيص باعتبار التقديم يفيد تأكيد التخصيص أيضاً ، ووجههُ ، كون المفعول المقدم ضمير الخطاب ، وهو أعرف من ضمير الغائب ، فيكون إياك نعبدُ أزيد وأقوى من إفادة التخصيص من إياه نعبدُ ، ... وفي قوله تعالى : (وإياي فارهبون) طريقتان زائدتان على ما في قوله (إياك نعبدُ) ... وهما تكرير المفعول والفاء الجزئية))[٢] .

أما تكرير المفعول فيقصد به متعلق فعل الرهبة، وهو للمتكلم إذ يدل تكريره على مزيد اختصاص به، كما تدل فاء الجزاء على كون المخصوص بالرهبة هو (الله تعالى) ولا تعلق لغيره في ذلك، إذ قدّر شيخ زادة السياق بوجود الفاء، بانه بمعنى ان يقع منكم رهبة من شيء فليكن ذلك الشيء هو الملك القادر على كل شيء، أي ليكن تعلق رهبتكم به بحيث لا يتعلق بغيره أصلاً[٣] .

كما ذهب الزمخشري[٤] (ت٥٣٨هـ) ، وأبو السعود[٥] (ت٩٨٢هـ) ، وابن

---

(١) الحاشية : ٢٦٣/٤ .

(٢) الحاشية : ٢٨٤/١ ، وينظر : ٦٦٤/١ .

(٣) ينظر : الحاشية : ٢٨٤/١ .

(٤) ينظر : الكشاف : ١٩/١-٢٠ .

(٥) ينظر : تفسير أبي السعود : ٢٦/١-٢٧ .

عاشور[1] (ت١٣٩٣هـ) ، إلى ترجيح غرض الاختصاص ، كما ذهب إليه شيخ زادة مفصلاً في سياق ورودها .

الاهتمام والتشويق والإيجاز :

كقوله تعالى : ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] .

فقد قُدّم المفعول وهو (إبراهيم) على الفاعل (ربه) في السياق ، وعلل شيخ زادة ذلك التقديم بالقول : ((قدم على الفاعل للاهتمام به ، فان كون الرب تعالى مبتلياً مقرر في الأذهان ، والفاعل لا يتشوق الذهن إلى بيانه وإنما يتشوق ويُطلب معرفة المبتلى ، وللإيجاز أيضاً فانه لو قدم الفاعل وقيل رب إبراهيم ثم ذكر إبراهيم منصوباً ... تكرر ذكر إبراهيم والإيجاز مطلوب في الكلام))[2] . فقد استوعب هذا التقديم معاني التعظيم والاهتمام بشأن المُبتلى .

تمام الاهتمام بالمقدم كونه مناط الإنكار :

كقوله تعالى : ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: ١٤] فقدم المفعول وهو (غير الله) على عامله (اتخذ) ، لكون الإنكار منصباً على اتخاذ الشريك لله ، فيقول شيخ زادة في توضيح سرّ التقديم: ((لا فرق بين ان يقال أغير الله اتخذ ولياً ، وأن يقال أأتخذ غير الله ولياً ، في الدلالة على ان المنكر هو اتخاذ غير الله ولياً ، كان مناط الإنكار هو غير الله ، فكان الاهتمام بذكره أتم فكان أولى بالتقديم فلذلك قدم المفعول وأُولِي الهمزة))[3] .

وأما قول شيخ زادة لا فرق بين التعبيرين ، ففيه نظر لأن تقديم الفعل في السياق المنفي ، يكون لنفي أصل الإتخاذ ويكون المخاطب فيه مُقرراً في نفسه أن الاتخاذ غير حاصل ، فيتوجه باستفهامه التقريري للمخاطب ، ليتقرر في ذهنه معنى عدم الاتخاذ أما إذا قُدِم الاسم ، كما هو حال الآية فيتوجه المعنى إلى نفي الشريك عنه ،

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ١٨٢/١ .

(٢) الحاشية : ٤٠٧/١ .

(٣) الحاشية : ١٥٥/٢-١٥٦ .

كما هو مقرر في علم البلاغة في تقديم الاسم والفعل بعد الهمزة[١] .

فالسياق الأول ينفي الاتخاذ ، والثاني ينفي الشريك ، والله اعلم .

مراعاة الترتيب في الوجود :

وذلك كالتقديم في قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ، إذ ان تقديم ضمير المفعول الراجع إلى الذات المعظمة ، كما هو مقدم في الوجود ، قُدّم لفظاً على أفعال العبودية والاستعانة فهو الموجود قبلها ، ويبين شيخ زادة دلالة التقديم بقوله : ((انه قدم ليوافق الترتب في الذكر الترتب في الوجود لأنه تعالى مبدأ الكائنات بأسرها فأنه كان ولا شيء معه))[٢] .

وذهب الزمخشري[٣] (ت٥٣٨هـ) إلى ان التقديم لغرض تخصيص العبودية والاستعانة به تعالى ، وتابعه ابن عاشور[٤] (ت١٣٩٣هـ) في تلك الدلالة ، التي يستوعبها النص القرآني لما فيه من قرائن التعظيم والتخصيص .

ومن باب تقديم المتعلقات أيضاً ، تقديم المفعول الثاني على الأول ، وذلك لأغراض بلاغية يجلبها سياق الكلام ، وقد نبه شيخ زادة إلى عددٍ منها :

١-الاهتمام بالمقدم واستعظامه :

كقوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠] فقدم المفعول الثاني (شركاء) على الأول (الجن) لاستعظامه تعالى لقولهم من اتخاذه (عزّ اسمه) شريكاً من الجن ، وبين شيخ زادة دلالة التقديم بالقول : ((قدم على المفعول الأول اهتماماً بشأن المقدم ، فان المقصود بالاستعظام هو نفس اتخاذ الشريك لله تعالى سواء كان ذلك الشريك أنسياً أو جنياً أو ملكاً لا إتخاذ الجن شركاء))[٥] .

ووافقه الآلوسي[٦] (ت١٢٧٠هـ) فيما بعد على ذلك الغرض ، فيما جعل ابن

---

(١) ينظر : دلائل الإعجاز : ١١٦-١١٧ .

(٢) الحاشية : ٦٣/١ .

(٣) ينظر : الكشاف : ١٩/١ .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير : ١٨١/١ .

(٥) الحاشية : ١٩٤/٢ .

(٦) ينظر : روح المعاني : ٢٢٧/٤ .

عاشور[١] (ت١٣٩٣هـ) غرض السياق ، على التعجب والإنكار ، من اتخاذ الشريك لله ، وهما دلالتان متقاربتان إذ إن التعجب يكون حينما يستعظم المرء شيئاً .

٢-الاهتمام بالمقدم وتمام العناية بشأنه :

كقوله تعالى :﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٧] ، إذ قُدم المفعول الثاني (وعده) على الأول (رسله) لغرض الاهتمام بشأن نفي إخلافه وعده (عزّ وجل) رسله إذ يقول : ((بأن المفعول الثاني حقه التأخير فلما قُدِم دلّ على انه أهم والعناية بشأنه أتم ، فالمقصود الأصلي في الكلام ليس إلا نفي إخلاف الوعد ، وأما نفي خلف وعد الرسل فهو شيء متفرع عن ذلك))[٢].

فقُدِم الوعد للدلالة على انه تعالى لا يخلف الوعد لا مع رسله ولا مع غيرهم ، بدليل تقدم الوعد على الموعود وهم (الرسل) في الآية ، وهذا بخلاف ما لو أُخر الوعد فيحصر إيفاء عهده (عزّ ذكره) برسله فقط ، لذا قال الرازي في دلالة تقديم المفعول : ((ليُعلم انه لا يخلف الوعد أصلاً))[٣] .

٣-قصد التعجب :

كقوله تعالى :﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣] ، فقُدِم المفعول الثاني (إلهه) على الأول (هواه) لكون سياق الآية موجهاً للتعجب من اتخاذهم أهوائهم آلهة ، فقدم للإيحاء بذلك المعنى إذ يقول شيخ زادة في دلالته : ((ويكون المقصود في الكلام التعجب من اتخاذ الهوى إلهاً))[٤].

وممن ذهب إلى ذلك الغرض الآلوسي (ت١٢٧٠هـ) ، إذ يقول : ((وقدم على الأول للإعتناء به من حيث انه الذي يدور عليه أمر التعجيب))[٥] .

ومن تقديم المتعلقات ، تقديم الجار والمجرور ، إذ تُقَدَم شبه الجملة في السياق القرآني ، لأغراض بلاغية يقتضيها نظم الكلام البليغ ، ومن تلك الأغراض التي أشار

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ٦/٢٤٤-٢٤٥ .

(٢) الحاشية : ٣/١٤٢ .

(٣) التفسير الكبير : ١٩/١١١ .

(٤) الحاشية : ٣/٤٥٤ .

(٥) روح المعاني : ١٠/٢٤ .

إليها شيخ زادة :

١-الاختصاص والتعظيم :

كقوله تعالى في مطلع كل سورة : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ بتقديم شبه الجملة ، فبحث شيخ زادة في أسرار الابتداء بها مقدمة وبين لها أغراضاً متعددة ، إذ يقول فيها : ((إن تقديم المعمول ههنا أوقع للدلالة على المعمول من حيث التقديم ، على اختصاص قراءة الموحد بملابسة اسم الله تعالى على وجه التبرك من غير ان يشارك اسمه تعالى اسماء الأقسام في استحقاق ملابسة القراءة باسمائها أيضاً على وجه التبرك فان المشركين كانوا يبدئون أفعالهم ملتبسين باسماء آلهتهم على وجه التبرك بها ... وكان هذا التقديم منهم بمجرد الاهتمام ... لا للاختصاص لأنهم لا يمتنعون عن التبرك باسم الله ... فوجب على الموحد ان يقصر عبادته محض قطع شركة الأصنام له تعالى في استحقاق التبرك بذكر اسمائها ويقصره به تعالى))[١] . والغرض الثاني للتقديم ، كما يرى شيخ زادة ، هي دلالة التعظيم ، لان العرب تقدم الأشرف فالأشرف في سياقات نظمها ، والغرض الثالث هو الترتيب في الذكر الموافقة للترتيب في الوجود[٢] . فلأجل التخصيص والتعظيم والشرف والسابقة في الوجود يقدم اسم الله في افتتاح السور.

وكل ما ذكره شيخ زادة يستوعب هذا الكتاب الإلهي العظيم الدلالة .

٢-الاختصاص :

كقوله تعالى : ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] فقدم الجار والمجرور في قوله تعالى : (للناس) على (حسابهم) ، وبين شيخ زادة دلالة السياق بقوله : ((فان أصل المعنى اقترب حساب الناس لأن المقصود بيان دنو وقت حسابهم وهو يحصل من هذا التركيب ، ثم قدم المضاف إليه وأدخل اللام عليه ... لاختصاص الحساب بهم ... وعرف الحساب بتعريف الجنس فصار اقترب للناس الحساب على ان للناس ظرف مستقر قدم على الحساب لكون العناية مصروفة إلى ذكر المقترب له ، وبيان ان الحساب لهم لا لغيرهم ، وفي التقديم والتصريح باللام

(١) الحاشية : ١/١٥-١٦ .

(٢) ينظر : الحاشية : ١/١٥-١٦ .

وتعريف الحساب مبالغات ليست في قولك اقترب حساب الناس))[١] .

وفيما ذكر شيخ زادة غرض الاختصاص ، بين أبو السعود (ت٩٨٢هـ) ، ان غرض التقديم ، لإدخال الروعة والخوف بذكرهم من أول الأمر لردعهم[٢] . وهما غرضان متقاربان إذ ان اختصاصهم بالحساب يُدخل الروعة والفزع من أول وهلة ، كما أن دلالة الاقتراب المتوجهة اليهم على الخصوص رادع ومخوف عظيم لكي يثار ذهن المتلقي وتفزع مكنوناته من لحظة الحساب . وقد عمل السياق القرآني إلى إظهار هذه المعاني عن طريق تقديم بعض الألفاظ على بعض .

٣-العناية والاهتمام :

كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [النمل:٣] فقد ورد قوله (بالآخرة) مقدماً على عامله (يوقنون) ، لبيان أهمية الإيمان بالآخرة والعناية بكونه مما يجب ان يكون الحكم في معرفة المؤمن بالله حقيقة أو أدعاء ، ويوجز شيخ زادة في بيان غرض التقديم ، إذ يقول : ((قدم قوله (بالآخرة) على متعلقه وهو يوقنون ، للعناية والاهتمام))[٣] .

وجوّز الآلوسي[٤] (ت١٢٧٠هـ) وابن عاشور[٥] (ت١٣٩٣هـ) غرض التقديم لغرض رعاية الفاصلة . ومن المحدثين بين د. فاضل السامرائي ، سبب التقديم ، ودلالته بالقول : ((لأن الإيقان بالآخرة صعب ومقتضاه شاق ، فان الإيقان بالمشاهد يسير بل ان قسماً من الناس يؤمنون بالله ولا يؤمنون باليوم الآخر))[٦] . فتقديمه للاهتمام به ، لكونه من الغيبيات المستترة ، وهذا ما بينه شيخ زادة .

٤-أنواع أخرى من التقديم :

وكما بحث شيخ زادة في أغراض تقسيم المسند والمسند إليه وكذلك المتعلقات ،

---

(١) الحاشية : ٣٣٩/٣ .

(٢) ينظر : تفسير أبي السعود : ٣٢١/٤ .

(٣) الحاشية : ٤٨٣/٣ .

(٤) ينظر : روح المعاني : ١٥٥/١٠ .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٢٠/١٦ .

(٦) على طريق التفسير البياني : ٢٨٨/٢ .

فانه بحث في أنواع أُخرى من التقديم ، لا ترجع إلى ذلك كله ، وإنما ترجع إلى مقتضيات بلاغية للنص القرآني ، فكونه مفسراً يحتم عليه ، التأمل في تقديم بعض الألفاظ على بعض في القرآن الكريم ، الذي يعد المنبع العذب والرافد الدائم لمواطن الجمال والبلاغة في ترتيب ألفاظه التي يقول عنها العلوي (ت٧٤٩هـ) : ((لابد هناك في رعاية الملائمة والمناسبة في تقديم بعضها على بعض لئلا يخلو التنزيل عن أسرار معنوية ، ودقائق خفية يتفطن لها أهل البراعة))[١] .

ويبين شيخ زادة ان تقدم بعض الألفاظ على بعض ، له أغراضه المقصودة في النظم القرآني ، ومن تلك الأغراض :

١-دلالة السبق :

وذلك كقوله تعالى :﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] ، فيقول شيخ زادة في دلالته : ((وقدموا البشارة على الإنذار ، لكون البشارة أثر الرحمة ، والإنذار أثر الغضب ، ورحمة الله تعالى سابقة على غضبه))[٢] . فعبر النص القرآني عند دلالة السبق ، عن طريق تقديم اللفظ الأسبق وهو ههنا لفظ (البشرى) .

٢-دلالة التحريض :

كتقديم الموت على الحياة ، في سياقات من القرآن الكريم ومنها قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] ، للتحريض ، ولزجر الإنسان عن المعاصي ، إذ يقول شيخ زادة في دلالة التقديم : ((وقدم الموت مع ان الحياة متقدمة على الموت ... لأن المقصود من سوق الآية تحريض المكلفين على حسن العمل ، والموت أدعى إلى هذا المقصود بالنسبة إلى الحياة فان نصب الموت بين الفئتين أقوى الزواجر عن المعاصي وأقوى الدواعي إلى حسن العمل ، ولاشك ان ما هو أبلغ في التأدية إلى الغرض المسوق إليه الكلام أهم فقدم على الثاني))[٣] . فقدم اللفظ الذي يكون له تأثير

(١) الطراز : ٥٤٣ .
(٢) الحاشية : ١٢/٤ .
(٣) الحاشية : ٥١٧/٤ .

على المتلقي لغرض تنبيههِ وتحريضهِ .

٣-دلالة تشوق النفس إلى المقدَم :

كتقديم النساء ، على البنين ، والقناطير في قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾[آل عمران: ١٤] ، فيقول شيخ زادة في دلالة السياق : ((قدم النساء على الكل ، لكثرة تشوق النفس اليهن لأنهن حبائل الشيطان ، وفتنة الرجال ... ثم ثنى بالولد الذكر أن حبّهُ أتم وأقوى من حبّ الأنثى))[١] .

٤-لرعاية الفاصلة :

وذلك كتقديم بعض الصفات الإلهية على بعض ، كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣] فقدمت الرأفة على الرحمة ، ويبين شيخ زادة دلالة التقديم بالقول : ((ولعله قُدِم محافظة على الفواصل ، ونظيره في كون تقديم الأبلغ لرعاية الفاصلة قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢] ، فان العفو لإنبائهِ عن محو السيئات أبلغ من الغفور ، الذي ينبيء عن الستر ، والمحو أبلغ من الستر))[٢] .

٤-إيماءً إلى المقصود والى الحكمة الداعية :

كقوله تعالى :﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن: ١-٥] ، فقدم تعليم القرآن على خلق الإنسان ، على الرغم من كونه مؤخراً عنه بحسب الوجود الخارجي ، وبين شيخ زادة دلالة هذا التقديم بالقول: ((ان تعليم القرآن وان كان متأخراً عن خلق الإنسان إلا انه قدم عليه ، إيماءً إلى ان خلق الإنسان ليس مقصوداً لذاته بل المقصود الأصلي في خلقه والحكمة الداعية إليه هو استكماله بحسب قوته النظرية والعملية بمعرفة مبدئه ومعاده ، وان يتحلى بعبادة ربه ، وذلك إنما يكون بتلقي الوحي ، ... فلما كان تعليم القرآن وتعرّف أحكامه هو

(١) الحاشية : ٦٠٩/١ .

(٢) الحاشية : ٤٥٢/١ .

المقصود الأصلي والحكمة الداعية إلى خلق الإنسان استحق ان يقدم عليه لان الأهم أقدم ، فلذلك قدم تعليم القرآن على خلق الإنسان))[1] . فكان ترتيب السياق القرآني مراعياً للأهمية وللحكمة الداعية إلى اعتبار تقديم الأفعال بعضها على بعض .

٥-الدلالة على الأصل :

وذلك في قوله تعالى : ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ...﴾ [البقرة: ١٧٧] .

إذ تقدم ذكر الإيمان بالله تعالى ، وذهب شيخ زادة إلى بيان غرض ذلك التقدم إذ يقول: ((ولما كان الإيمان بالله أصلاً لجميع الكمالات العلمية والعملية قُدِم في الذكر، ولما كان الإيمان باليوم الآخر متفرعاً على الإيمان بالله لأنا ما لم نعلم باستحقاق الإلوهية وقدرته على جميع الممكنات لا يمكننا ان نعلم صحة الحشر والنشر ، ولما كان الإيمان به محركاً وداعياً إلى الانقياد لله في جميع ما أمر به ونهى عنه خوفاً وطمعاً ذكر الإيمان به عقيب الإيمان بالله))[2] . فتقديم لفظ الجلالة هنا مقصود ، لكونه الأهم بالنسبة إلى البواقي كما انه الأصل في الإيمان ، والسياق الأوفى في تأدية هذا المعنى هو سياق التقديم بحسب الرتبة من الأصل إلى الفروع .

(١) الحاشية : ٤٢٧/٤ .

(٢) الحاشية : ٤٨٣/١ .

الفصل الثالث : التعريف والتنكير في حاشية شيخ زادة :

توطئة :

من الموضوعات المهمة التي تطرق إليها شيخ زادة وفصّل فيها القول ، وقد عرفها البلاغيون بالقول : ((ان المعرفة ما دلت على شيء بعينه والنكرة ما دلت على شيء لا بعينه))[١] .

وكان اهتمامهم بهذا النوع من الأساليب ، لكونه يؤدي أغراضاً بلاغية في السياق الذي يرد فيه ، إذ يرتبط حضور كل من المعرفة والنكرة في الجملة على ما يقتضيه المقام من إفادة المخاطب ، التي تكون تارة بتعريف الشيء وتارة بتنكيره ، ووفق تلك النظرة حدّ شيخ زادة التعريف بقوله : ((هو الإشارة إلى المعين باعتبار تعينه وحضوره في علم السامع))[٢] . فأشرك شيخ زادة السامع في الحد ، لكون أغلب المعرفات تأتي لإفادة المخاطب فائدة زائدة على معرفته ، وتختلف أنماط التعريف في الكلام ، فالتعيين قد يكون باللفظ نفسه دون حاجة إلى قرينة تكلم أو خطاب أو غيبة ، كالتعريف بالعلمية وقد تكون بقرينة تكلم أو خطاب أو غيبة ، كالتعريف بالضمائر ، وقد تكون بقرينة حسية كتعريف الإشارة ، وقد يكون تعريفه بنسبة معهودة ، كتعريف الاسم الموصول وقد يكون بالحرف ، كالتعريف بـ(أل) ، أو بالإضافة إلى كل مما سبق[٣] .

وهذا التنوع في طرق التعريف ينتج عنه دلالات وأغراض متعددة في الجملة ، وإذا عرفنا ان تلك أشكال التعريف فمن الطبيعي ان يكون التنكير هو تركها والمجيء مجرداً منها لأغراض ودلالات سياقية عند البلاغيين ، ومعرفة معاني ورود كل منها تحتاج إلى دقة ، إذ يقول العلوي (ت٧٤٩هـ) : ((ان المعرفة والنكرة يتعلق بكل واحد منها معان دقيقة متعلقة بأسرار البلاغة))[٤] .

لذلك ركز شيخ زادة في بحثه على سياقات ورودها ، حقيقية ومجازاً ، لمعرفة

---

(١) الطراز ، العلوي : ٢٠٨ ، وينظر : الفوائد الغياثية في علوم البلاغة الايجي : ١١٦ ، والمطول : ٢١٤ .
(٢) الحاشية : ٣٢/١ .
(٣) ينظر : المعاني في ضوء أساليب القرآن : ٢٣٦ .
(٤) الطراز : ٢٠٨ .

بلاغة ذلك الورود ، كما سيدور الحديث عن ذلك في أغراض التعريف والتنكير .

المحور الأول : طُرُق التعريف وأغراضه عند شيخ زادة :

تطرق شيخ زادة إلى ثلاث طرق من طرق التعريف بالتفصيل ، وهي :

١-التعريف باسم الإشارة .

٢-التعريف بـ(أل) .

٣-التعريف بالاسم الموصول .

وسيكون بيان جهده بوساطة العرض لأنواع وأغراض التعريف في المسند إليه والمسند ومتعلقاتهما في الجملة الإسنادية القرآنية .

١-التعريف باسم الإشارة وأغراضه البلاغية :

وهو المجيء بأحد أركان الجملة اسم إشارة ، لإمكانية حضوره الحسي والإشارة إليه ، والأصل في التعريف باسم الإشارة ان يكون المعرف بها موجوداً ومعيناً خارجاً ، أما إذا أُشير بها إلى غير ذلك فيكون لدلالة خارجة عن أصل الوضع[١] .

ومن هنا تنبه شيخ زادة إلى ان المعرف باسم الإشارة ينقسم إلى حقيقي ومجازي ، مما يثري السياق بدلالة خارجة عن حقيقة الوضع ، إذ يقول ((الأصل في اسماء الإشارة ان يشار بها إلى مشاهد محسوس قريب أو بعيد إلا انه قد يشار بها إلى محسوس غير مشاهد وإلى ما يستحيل إحساسه ومشاهدته بناء على تصييره كالمشاهد المحسوس وتنزيل الإشارة العقلية منزلة الحسية))[٢] .

فالمعرف الحقيقي ما كان وجوده حسياً ، فيما يكون وجود المعرف المجازي معنوياً ذهنياً ، وكان اهتمام شيخ زادة بالسياقات المجازية التي يرد فيها المعرف المجازي مسنداً كان أو مسنداً إليه أو كان من متعلقات الجملة .

فأبرز جمالية التعريف فيه وكيف يضفي التركيب على اسم الإشارة مسحة معنوية ساحرة تجعل من اللفظة ذات الدلالة المحددة بالقرب أو البعد المكاني المحسوس لفظةً مصُورةً ، ذات ظل دلالي مكتسب من السياق الذي يوجد فيه ، ومن تلك الأغراض

---

(١) ينظر : التفسير الكبير ، الفخر الرازي : ١٤/٣ .

(٢) الحاشية : ٥٢٣/٣ ، وينظر : ٢١٠/١ ، ١٧٦/٤ .

البلاغية التي بينها شيخ زادة لتعريف المسند إليه باسم الإشارة ما يلي:

التعظيم :

إذ يضفي السياق على اسم الإشارة معاني التعظيم ، كقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣] ، فجيء بالمسند إليه اسم إشارة في الآية ، لتعظيم المعنى المشار إليه ، وبين شيخ زادة قرائن التعظيم وبلاغته بالقول : ((معنى التعظيم مستفاد من الإشارة بلفظ البعيد تنزيلاً لبعد درجة المشار إليه ورفعة محله منزلة بعد المسافة ، كما في قوله تعالى:﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١-٢]))[(١)].

أي ان غرض التعظيم ورد بوساطة الإشارة بالبعيد للمسند إليه . فيما أشار الزمخشري[(٢)] (ت٥٣٨هـ) إلى غرضين هما التفخيم والتعظيم في معرض الوعيد ، أي لتنبيه المخاطب على عظمة الآخرة أُشير إليها بلفظ البعيد ، وتبعهُ في ذلك الغرض البيضاوي[(٣)] (ت٦٨٥هـ) ، وأبو السعود[(٤)] (ت٩٨٢هـ) .

وقد تكون الإشارة في قوله تعالى : (تلك الدار الآخرة) ، لتصوير ما بَعُدَ عن الذهن من وجود عالم آخر ، ولتقرير وجوده والتأكيد عليه ، إذ جعله حاضراً مشاراً إليه لمراعاة حال المخاطب الذي يميل إلى إدراك المحسوسات والاعتقاد بها أكثر من ميله إلى المدركات الذهنية .

وبَعْدَ الإشارة إلى المعنى يبدأ دور القرائن السياقية التي أضفت على اسم الإشارة معنى التعظيم والإجلال ، لكونه على درجة من رفعة المقام ، وهي في قوله تعالى (الدار الآخرة) .

وقد يكون المسند إليه المعرف بالإشارة حاضراً ، ولكن يشار إليه بلفظ البعيد في السياق القرآني ، كقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ

(١) الحاشية : ٥٢٣/٣ .
(٢) ينظر : الكشاف : ٤٣٩/٣ .
(٣) ينظر : تفسير البيضاوي : ٢٠١/٢ .
(٤) ينظر : تفسير أبي السعود : ١٣٨/٥ .

هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [يوسف: ٣١-٣٢] .

فان يوسف (عليه الصلاة والسلام) مع كونه حاضراً معهن أُشير إليه بلفظ البعيد، وهذا ما تقتضيه دقة الاستعمال البلاغي لاسم الإشارة ، إذ يرى شيخ زادة[١] ان الإشارة إليه بلفظ البعيد ، لتعظيمه ، وتنزيل بعد درجته ورفعة محله منزلة بعد المسافة ، أو يكون استذكاراً لما أخبرت عنه زليخة النسوة فيكون لفظ (ذلكن) مُصوراً لكمال حسنه ولطافة منظره .

وكان قد ذهب إلى تلك الدلالة السكاكي[٢] (ت٦٢٦هـ) ، والقزويني[٣] (ت٧٣٩هـ) ، والعلوي[٤] (ت٧٤٩هـ) إذ جعلوا التعريف بالإشارة للدلالة على رفعة منزلته ولاستبعاد ان يدانيه فيها أحد. فيما جعلها أبو السعود[٥] للدلالة على النأي عن مراتب البشرية ، ويكشف هذا النظم عن بلاغة عالية، إذ عبر عن مقتضى حال المخاطب، فأشير إلى يوسف (عليه الصلاة والسلام) بلفظ البعيد ، مراعاة لحاله وما هو عليه من جلالة وعزة لا يبلغها الحاضرون معه، ولتمييز وجوده الرباني البعيد المقام عن وجود الكائنات الإنسانية التي لا ترتقي في إدراكاتها إلى أكثر من عالم الحس.

التحقير

من دلالات المسند إليه ، حينما يرد اسم إشارة دلالة التحقير سواء بالبعد أو بالقرب ، فمن دلالات التحقير بالبعد قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[الأعراف: ١٣٩] ، فجيء بالمسند إليه (هؤلاء) مُعَرفاً بلفظ الإشارة ، لتمييزهم بدناءة المقام والبعد عن ساحة الحضور مع الله سبحانه وتعالى ، إذ يقول شيخ زادة في دلالته : ((فانه من حيث كونه من اسماء الإشارة يفيد تمييز المسند إليه أكمل تمييز ، ومن حيث كونه مما يشار به إلى البعيد يفيد التحقير ، وجعل تمييز المشار

(١) ينظر : الحاشية : ٣/٨٢-٨٣ ، وينظر : الكشاف : ٢/٤٤٠ .

(٢) ينظر : مفتاح العلوم : ٢٧٨ .

(٣) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة : ٦١ .

(٤) ينظر : الطراز : ٥٢٢ .

(٥) ينظر : تفسير أبي السعود : ٤/٢٧٢-٢٧٣ .

إليه ذريعة إلى تحقيره أبلغ في التحقير وجعل المسند إليه اسم إشارة مع أفادته كمال التمييز ينبه عند تعقيب المشار إليه بالوصف على انه جدير بما يرد بعد اسم الإشارة لأجل ذلك الوصف وهو العكوف ههنا فيكون الدمار والإحباط الكلي لازمين لهم كلزوم سببيهما الذي هو العكوف))[١] .

فاتفق شيخ زادة مع البلاغيين[٢] ، الذين ذهبوا إلى ان موقع المسند إليه يفيد تمييزاً للمشار ، فإذا أضاف إليه السياق دلالة التحقير فيكون بذلك المعرف بها من المحقرين بالبعد المستحق ، كما بينت الآية الكريمة . وفيما جعل شيخ زادة دلالة النص على التحقير ، جعلها الزمخشري[٣] (ت٥٣٨هـ) لتحذير المخاطب بكون التبار يتخصص بالمبطل ولا يتعداه إلى غيره . ووافقه البيضاوي[٤] (ت٦٨٥هـ) على ذلك ، وهي دلالات استوعبها نص زادة السابق وأضاف ان انحصار التبار بهؤلاء تحقيراً لهم .

ومن مجيء المسند إليه معرفاً باسم إشارة بلفظ البعيد ، ودلالته التحقير عند شيخ زادة قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[الشعراء: ٢٢] ، فيقول شيخ زادة في دلالتها : ((ان القصد بلفظ (تلك) الدال على بعد المشار إليه تحقيره ، أو تنزيل بعده عن ساحة الحضور وانحطاط درجته ، منزلة بعد المسافة وجعل المشار إليه مبهماً لعدم كونه من الأمور الخارجية المتقدم ذكرها بل هو أمر ذهني تصوره عليه الصلاة والسلام وأشار إليه بقوله (تلك)))[٥] .

فالسياق القرآني للآية صيّر النعمة التي هي من المعاني المجردة المحببة إلى النفس خصلة شنعاء ، يشار إلى انحطاط منزلتها بما يشار به إلى الجسم البعيد الخالي من الروح ، وذلك لارتباط المشار إليه بالمخاطب الذي بَعُدَ مقامه عن ساحة الحضور لدناءته . فأعطى اسم الإشارة تلك الدلالة بفضل قرائن السياق المعنوية .

---

(١) الحاشية : ٢٦٥/٢ .

(٢) ينظر : مفتاح العلوم : ٢٨٦ ، والإيضاح : ٦٠ ، وعروس الأفراح : ١٧٤/١ ، والمطول شرح تلخيص : ٢٢٤ .

(٣) ينظر : الكشاف : ١٩٥/٢ .

(٤) ينظر : تفسير البيضاوي : ٣٥٨/١ .

(٥) الحاشية : ٤٦٨/٣ .

أما تحقير المسند إليه بالقرب فذلك عندما ينزل المعرف المشار إليه بلفظ الإشارة الذي يتصف بعلو الشأن والمقام منزلة مما هو أدنى منه في معرض الاستهزاء به كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾[الفرقان: ٤١] ، فيرى شيخ زادة ان : ((إشارتهم إليه (عليه الصلاة والسلام) بلفظ (هذا) استحقار ، تنزيلاً لدنو مكانته (عليه الصلاة والسلام) بزعمهم دنو مكانه بمقتضى جهالتهم وضلالهم))[١] .

فبين شيخ زادة ان لفظ الإشارة اكتسب صفة التحقير من السياق ، وحال المخاطب المستهزء ، الذي استعمل لفظ الإشارة بالقريب لمن هو في غاية البعد والارتفاع المكاني والمعنوي وهو الرسول﴿ ﷺ ﴾ ، فلفظ القرب هنا جاء لبيان قرب المسافة تنزيلاً لها منزلة قرب المكانة في معرض التحقير ، وفي ذلك بيان لوقاحة هؤلاء في حق المصطفى ﴿ ﷺ ﴾ .

وقد يشار بلفظ القريب لدناءة المشار إليه ، كما في قوله تعالى : ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ [العنكبوت: ٦٤] ، وعلل شيخ زادة إشارة القريب في قوله تعالى (وما هذه الحياة الدنيا) لدناءتها إذ يقول : ((فانه قد ينزل قرب الدرجة ودناءة المنزلة، منزلة قرب المسافة، فيشار إليه بلفظ القريب، كقول الكفرة في حق إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦]))[٢] .

وأشار الزمخشري[٣] إلى ان الإشارة فيه للإزدراء بالدنيا ولصغر أمرها ، أما أبو السعود[٤] فبين دلالة التحقير ، وكذلك الآلوسي[٥] . إلا ان ما يميز شيخ زادة تفصيلهِ في السياقات البلاغية التي يرد فيها المسند باسم الإشارة فيظهر جمالية التعبير وبلاغته .

---

(١) الحاشية : ٤٥٤/٣ .

(٢) الحاشية : ١٨/٤ .

(٣) ينظر : الكشاف : ٤٩٥/٣ .

(٤) ينظر : تفسير أبي السعود : ١٦٠/٥ .

(٥) ينظر : روح المعاني : ١٣/١١ .

التنبيه :

إذ ينبه السياق ، على علة الحكم الصادر على الموصوفين في الآية ، لاكتسابهم من الصفات ما يؤهلهم إلى ذلك الحكم وذلك كقوله تعالى : ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥] .

فنلحظ هنا ان الإشارة جاءت بعد تعاقب الصفات للمؤمنين ، للتنبيه على ان استحقاقهم الهدى والفلاح جاء لتميزهم بتلك الصفات ، وهذا ما أوضحه شيخ زادة إذ يقول : ((فان المشار إليه ، وهم المتقون ، قد عقب بأوصاف هي الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة والإنفاق مما رزقناهم ، ثم قيل (أولئك على هدى) للتنبيه على ان كونهم على الهدى عاجلاً وفوزهم بالفلاح آجلاً من أجل اتصافهم بالأوصاف المذكورة))[١] .

فيما ذهب القزويني (ت٧٣٩هـ) إلى ان مجي اسم الإشارة لزيادة دلالة اختصاصهم بما ذكر في الصفات ، إذ يقول : ((أفاد اسم الإشارة زيادة الدلالة على المقصود من اختصاص المذكورين قبله باستحقاق الهدى من ربهم والفلاح))[٢] .

وذهب التفتازاني[٣] (ت٧٩٢هـ) إلى دلالة التنبيه . وكلتا الدلالتين التنبيه أو الدلالة على الاختصاص قد قربتا من النص ، وكذلك يمكن ان يقال ، ان في اسم الإشارة دلالة مركزة ، وإيجاز شديد فقد عبرت عن تلك الأوصاف المذكورة بلفظ واحد هو لفظ الإشارة ففي ذلك إيجاز للنص وتنبيه أيضاً أثارته الإشارة اليهم بلفظ (أولئك).

لتجسيم المعاني :

إذ قد يخرج النص القرآني المعاني المجردة في هيئات محسوسة فيجعلها صورة حيّة مشاهدة يشار إلى وجودها باسماء الإشارة ، وذلك في سياقات متعددة منها ، لتعظيم أمر المخاطب لما اسند إليه من عطايا إلهية كقوله تعالى : ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨] ، فيقول شيخ زادة : ((جعل

(١) الحاشية : ٤/٢٣٥ .

(٢) الإيضاح : ٦١ .

(٣) ينظر : المطول : ٢٢٤ .

(هذه) إشارة إلى المعنى الحاضر في الذهن ، وهو الدعوة إلى التوحيد والإعداد للمعاد فأخبر عن ذلك المعنى بأنه سبيلي))[1] .

ولعل الإشارة إلى تلك المعاني السامية بلفظ الحضور لكونها واضحة وجلية ، فطريق الهدى والصلاح مدلول عليه بدلائل واضحات مثل إرسال الرسل ، وإنزال الكتب السماوية والفطرة التي تدل الإنسان إلى الصواب ، كل هذه كالأعيان لذلك جسمها وأشار إليها بـ(هذه سبيلي) لوضوحها وبيان مغزاها .

وقد يكون تعريف المسند إليه باسم الإشارة ، طريقاً لاستحضاره ، لكونه معنى مجرداً في الذهن كقوله تعالى ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾[الكهف: ٧٨] فبين شيخ زادة دلالة الإشارة على استحضار المعنى المتعاهد عليه ، بين نبي الله موسى (عليه السلام) و الخضر (عليه السلام) إذ يقول : ((ولما وعده عليه الصلاة والسلام ، انه إن حدثت مسألة ثالثة يفارقهُ ولا يلج عليه في المصاحبة، فلما وقع منه الاعتراض على ترك الأمر، وحل ميعاد الفراق الموعود تصور الخضر عليه السلام ذلك الفراق الموعود فأشار إليه))[2] .

واهتم شيخ زادة بهذا النوع من السياقات ، لكون اسم الإشارة فيه يدلل على معاني مُتصورة تستجلب في السياق لأغراض بلاغية .

تعريف المسند باسم الإشارة :

اهتم البلاغيون ببيان أغراض تعريف المسند إليه باسم الإشارة ، ولم يتطرقوا إلى أغراض تعريف المسند باسم الإشارة ، اكتفاءً بالأصل[3] .

وتنبه شيخ زادة إلى ان المجيء باسم الإشارة مسنداً له دلالته البلاغية ، يقتضيها السياق القرآني الوارد فيهِ ومنها :

تحقير المسند بالبعد :

---

(١) الحاشية : ١١٢/٣ .

(٢) الحاشية : ٢٧١/٣ ، وينظر : ١٢٠/١ ، ١٧٢/٣ .

(٣) ينظر : مفتاح العلوم : ٣١٤ وما بعدها ، والإيضاح : ١٠٣-١٠٤ ، وعروس الأفراح : ٣٦٣/١ وما بعدها ، والمطول : ٣٤٤ وما بعدها .

كقوله تعالى :﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ...﴾ [آل عمران: ١١٩] ، ففي الإشارة اليهم بقوله تعالى (ها أنتم أولاء) حط من منزلتهم وتحقيراً لهم ، كما يرى شيخ زادة إذ يقول : ((وأشار اليهم بما يشار به إلى المشاهد المحسوس ، إيقاظاً لهم من سهوتهم وغفلتهم ، وإشعاراً بأنه ليس منهم مما يعتنى بشأنه سوى ما شُوهد من الأجساد والتماثيل المجردة عن الفضائل النفسانية والكمالات المعنوية ، تحقيراً لشأنهم ، وازدراء بحالهم من موالاة منافقي أهل الكتاب))[١] .

فتحقير المشار إليه العاقل ، بتنزيله منزلة الجمادات التي تشغل مكاناً يشار إليه دلالة وفرها السياق لاسم الإشارة ، إذ أوحى التنبيه الذي يقرع الأسماع بـ(هاء التنبيه) ، ودلالة البعد في (أولئك) إيقاظاً للسامع مما هو فيه ، وتحذيراً له وتحقيراً لما هو عليه .

وجعل الزمخشري[٢] (ت٥٣٨هـ) دلالة الآية على التوبيخ . فيما جعلها ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) على التعجب إذ يقول : ((ولا يذكر بعد اسم الإشارة جملة في هذا التركيب إلا ولقصد التعجب من مضمون تلك الجملة))[٣] .

وكل ما ذكره قريب من السياق الذي يستوعب كل تلك المعاني ، إذ ان مذهب الزمخشري في كونها للتوبيخ ، من جهة كون التوبيخ في معرض الحضور أبلغ ،فأشار اليهم (بأنتم) ثم وبخهم بأولاء ، ومذهب شيخ زادة في تنزيلهم منزلة الجمادات لتحقيرهم قريب أيضاً ، إذ ان السياق فيه دلالة الحضور بـ(انتم) أي الحاضرين بأجسامكم ، ودلالة التغييب الروحي والقلبي بـ(أولاء) فتصبح دلالة السياق (ها انتم) الحاضرين بأجسامكم (أولاء) الغائبين بأرواحكم ، وفي ذلك حط عظيم من شأنهم حينما صيرهم كالجمادات .

وتتضح نظرة شيخ زادة أكثر في مجيء المسند اسم إشارة لغرض الدلالة على الإبعاد والتحقير ، كما في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ

(١) الحاشية : ٦٦٥/١ .

(٢) ينظر : الكشاف : ٣٥٧/١ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير : ٦٥/٤ .

﴿فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٥] ، إذ يقول في دلالة سياقه : ((ان المراد بأنتم ، وهؤلاء ، جماعة واحدة ... فأنهم كالحُضّر باعتبار ما اسند اليهم وأخبر به عنهم وهو اسم الإشارة ، فان وضعه للمشار إليه حساً ، ولا يشار بالإشارة الحسية في الأغلب إلا إلى حاضر ، وكالغُيب باعتبار ما سيحكى عنهم مما يدل على نقض العهد والتعاون بالأثم والعدوان ، فان قبائح الرجل ورذائله تبعده عن ساحة قرب الحضور ، وتسقطه عن منزلة ان يتوجه إليه ، ويخاطب ففي الاعتبار الأول خوطبوا وعبر عنهم بأنتم وبالاعتبار الثاني جعلوا غيباً وعبر عنهم بهؤلاء ... والمعنى انتم هؤلاء الأشخاص الحمقى ، وبيان حماقتكم وقلة عقولكم انتم تقتلون أنفسكم أي أهل ملتكم))[١] . فبين تعريف المسند بالإشارة دلالات رصينة تعجز أي أداة أخرى عن التعبير عنها ، لخاصيتها الدلالية في إيصال المقصود لاحتواءها مزية التعبير بحرية عن القرب والبعد المعنوي .

تعريف غير المسند والمسند إليه باسم الإشارة :

لم يحظَ التعريف بالإشارة لغير المسند والمسند إليه بالاهتمام عند البلاغيين[٢] . فيما أشار شيخ زادة إلى انه قد يجيء معرفاً لدلالة التفخيم ، كقوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

فقد ذهب شيخ زادة إلى ان الإشارة في السياق بغيته التفخيم، إذ يقول: ((وفخم هذا الجعل بأن أشار إليه بلفظ (ذلك) الموضوع للإشارة إلى البعيد، وأقحم لفظ الكاف الموضوع للتشبيه والتنظير، للمبالغة في التفخيم المذكور كأنه جرّد من الجعل المذكور جعلاً آخراً مثله في فخامته وشبههُ بالجعل المذكور قصداً للمبالغة في تفخيم شأنه))[٣].

أما عن بلاغة تخصيص لفظ الإشارة فيقول : ((وتخصيص لفظ (ذلك) للإشارة

---

(١) الحاشية : ٣٤٣/١ .

(٢) ينظر : مفتاح العلوم : ٢٧٥-٢٧٨ ، والإيضاح : ٦٠-٦١ ، وعروس الأفراح : ١٧٤/١-١٧٧ .

(٣) الحاشية : ٤٤٥/١ .

إلى تفخيم المشار إليه ، تنزيلاً لرفعة شأنه وعلو درجته منزلة بُعد المسافة))[1] .

فبين شيخ زادة انه لتفخيم ما هم عليه من الجعل الإلهي وتقريره في أذهانهم شبهه بآخر مثله ، بصورة الكمال المعنوي وجسده ثم أشار إليه ، وجعل الزمخشري (ت٥٣٨هـ) دلالة النص على التعجب ، إذ يقول في قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم): ((ومثل ذلك الجعل العجيب جعلناكم))[2] .

فيما ذهب ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) إلى ان المشار إليه باسم الإشارة موجود حاضراً ، وهو متأخر عنه، إذ يقول : ((وتأخير المشار إليه عن الإشارة استعمال بليغ في مقام التشويق))[3] .

ونخلص مما سبق ان المعرف وهو الاسم المجرور ، قد أُشِيرَ إليه بلفظ البعيد ، بغية تفخيمه وتعظيمه والتشويق لمعرفته كما ذهب المفسرون ، ولكن اختلفوا في تصور المشار إليه فقدره الزمخشري في السياق ، وتبعه شيخ زادة على ذلك ، في حين جعله ابن عاشور متأخراً .

ويمكن ان يضاف إلى آرائهم ان الإشارة في الآية متعلقة بما سبق من الآيات في دعاء إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) في قوله : ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[البقرة:١٢٨-١٢٩]

إذ نقل البيضاوي في تفسير قوله تعالى : (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) : ((أراد بالأمة أمه محمد (صلى الله عليه وسلم)))[4] .

وفي تفسير قوله تعالى : (ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم) يقول البيضاوي : ((ولم يبعث من ذريتهما غير محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو المجاب به دعوتهما))[5] .

فيتضح من ذلك ان الإشارة في قوله تعالى(وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا

---

(١) الحاشية : ٤٤٥/١ .

(٢) الكشاف : ١٨٣/١ .

(٣) التحرير والتنوير : ١٧/٢ .

(٤) تفسير البيضاوي : ٨٧/١ .

(٥) تفسير البيضاوي : ٨٧/١ .

شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) متعلق – والله أعلم – بدعاء إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) السابق في الأمة والرسول ، فيكون المشار إليه بـ(ذلك) كالاستجابة الحاصلة ، فيكون السياق ومثل ما أراد إبراهيم في دعائه جعلناكم ، وفي ذلك تعظيم لائق بنبيين هما من أشرف الخلق ، وكذلك بالأمة التي هي خير امة أخرجت للناس – والله أعلم – . فالتعريف بالإشارة للتعظيم وكذلك للإشارة إلى استجابة دعاء إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) .

٢-التعريف بـ(ال) وأغراضه البلاغية :

تقتضي بعض السياقات في الكلام تعريف أحد ركني الجملة لتتم الفائدة بتعيينه للمخاطب وتخصيصه له ، وذلك بقرائن كـ(أل التعريف) : ((الموضوعة للدلالة على تعين المسمى))[١] . إذ تمثل إضافة أداة التعريف تعميقاً لحقيقة اللفظة[٢] التي تؤدي مع أداة التعريف وظيفة دلالية تعتمد نوع السياق التي سيقت فيه .

فقد تدل على استغراق الجنس بأسره، إذا توافرت قرائن الاستغراق في الجملة، وقد تدل على معهود بين المتكلم والمخاطب إذا كان مدخولها قد صُرح به في السياق وكان واضحاً للمخاطب ، وفق أنماط تركيبية مختلفة ، وتبعاً لذلك قسم شيخ زادة أل التعريف إلى نوعين :

أ–أل الجنسية .

ب–أل العهدية .

وكل منها تأتي في السياق لأغراض بلاغية ، وقبل الخوض فيها لابد من بيان نظرة شيخ زادة إلى وظيفة أداة التعريف ، فقد بين شيخ زادة بذوقه البلاغي الرفيع إلى ان دلالة الاستغراق أو الاختصاص أو العهدية التي يبعثها كل نوع من أنواع (أل) لا تكون من اداة التعريف بل مما يوجبه السياق ، وحال المخاطب على دلالة التعريف إذ يقول : ((فان اللام موضوعة للتعريف والإشارة ، والاسم موضوع لمفهوم المسمى وحقيقته ، فالاسم المعرف يدل بمجرد الوضع على تعريف نفس حقيقة المسمى والإشارة إليها ، بخلاف دلالته على الاستغراق فأنه لا يكفي مجرد العلم بالوضع بل لا بدّ معه

(١) الإشارات والتنبيهات في علوم البلاغة ، الجرجاني : ٤٢ .

(٢) ينظر : البلاغة والأسلوبية ، محمد عبد المطلب : ٣٤٧ .

من قرينة خارجة هي دلالة الحال والمقال))[1] . وكذلك دلالة الاختصاص أو العهدية.

فيكون السياق بذلك هو الذي يحدد دلالة تعريف المسند إليه أو المسند أو متعلقاتهما ، كما سيتوضح في بيان أغراض التعريف ودلالته عند شيخ زادة في كل من المسند والمسند إليه والمتعلقات بهما .

أ-التعريف بلام الجنس :

حدّ البلاغيون لام الجنس عن طريق بيان أنواعها[2] ، وتبعهم شيخ زادة على ذلك ، إذ يقول : ((المعرف بلام الجنس قد يقصد به نفس الحقيقة من حيث هي ... وقد يقصد به الجنس بأسره ... وقد يقصد به بعض أفراده من حيث انه فرد منه مع قطع النظر عن اتصافه بوصف زائد)) [3] .

فالأولى يقصد بها لام الحقيقة، والثانية لام الاستغراق والثالثة لام العهد الذهني، وتدخل هذه اللام بكل أنواعها على المسند إليه لأغراض بلاغية أشار شيخ زادة إلى عددٍ منها :

الاختصاص :

إذ يكون المعرف بلام الجنس مسنداً إليه مقصوراً في المعنى على المسند لا يتعداه إلى غيره ، ومثّل له شيخ زادة بقوله تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] ، إذ عرّف المسند إليه بلام الجنس ، لإفادة اختصاص الحمد به تعالى ، فيقول شيخ زادة فيه : ((الحمد لا يكون إلا بمقابلة ما هو جميل وكل ذلك لا يكون إلا من الله تعالى بوسط أو بغير وسط فكل فرد من أفراد الحمد لا يكون إلا لله تعالى))[4] . أي انه مختص به تعالى .

ومثّل له أيضاً بقوله تعالى :﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٢٩-٣٠] ، إذ يبين شيخ زادة دلالة التعريف بالقول : ((ان اللام سواء كانت

(١) الحاشية : ٣٠٢/١ ، وينظر : الإشارات والتنبيهات : ٤٢ .

(٢) ينظر : مفتاح العلوم : ٢٧٨-٢٨٠ ، والإيضاح : ٦١-٦٢ .، وعروس الأفراح : ١٧٧/١ ، والمطول : ٢٢٤

(٣) الحاشية : ١٤١/١ ، ٣٢/١ ، ٢٠٦/١-٢٠٧ .

(٤) الحاشية : ٣٢/١ .

للاستغراق أو للجنس تفيد اختصاص كل فرد من أفراد الحمد به تعالى))[1] .

الاستغراق :

إذ يكون المسند إليه مستغرقاً لجميع الأفراد المندرجين تحت حقيقة ما ، وتفيد اللام الاستغراق بدلالتين كما بين شيخ زادة ، الاستغراق الحقيقي ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[العصر : ٢-٣] ، إذ يقول شيخ زادة : ((يقصد به الجنس بأسره))[2] .

فقد أفاد التعريف هنا دلالة استغراق جنس الإنسان للخسران بقرينة الاستثناء من ذلك الجنس ، إذ أخرج من ذلك الجنس العاملين بإيمانهم ، أما الدلالة الثانية ، فهي لإدعاء الاستغراق للمبالغة ، وبينها شيخ زادة بالقول : ((ان بعض أفراد الجنس مع كونه بعضاً منها في نفس الأمر قد يدعي انحصار الجنس فيه وكونه جميع أفراد الجنس ، لكماله واستجماعه جميع الخواص المطلوبة من ذلك الجنس ، والفضائل المعقودة من مثله فاستحق لذلك ان يحصر الجنس فيه ، ولا يعد ما عداه داخلاً في عداد ذلك الجنس وأفراده لانحطاط رتبته عند رتبة ذلك الجنس لخلوه من الخواص المطلوبة من ذلك الجنس في مثل هذا الفرد))[3] .

ومثّل لهذا التنظير لدلالة الاستغراق الواردة على سبيل الإدعاء والمبالغة ، بقوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ ﴾ [البقرة: ١٣] ، فقد جيء بالمسند إليه (الناس) معرفاً ، ويقول شيخ زادة في دلالة تعريفه : ((واللام في الناس للجنس أي لاستغراق الجنس بإدعاء انحصاره في الأفراد الكاملين المستجمعين للخواص المطلوبة من ذلك الجنس والفضائل المقصودة من خلقه))[4] .

فقوله تعالى :(كما آمن الناس) ليس المقصود به ان الإيمان عام ومستغرق لهم ، بل أراد بالناس فرداً من أفرادهم مخصوصاً ، قد استجمع كل صفات الكمال الذي جعلت منه جنساً للإنسانية مبالغة في علو شأنهم .

---

(١) الحاشية : ٧٨/٤ ، وينظر : ٢٠٣/٤ ، ٣٢/١ ، ٢٤٧/٣ .

(٢) الحاشية : ١٤١/١ .

(٣) الحاشية : ١٤١/١ .

(٤) الحاشية : ١٤١/١ .

وقد يؤتى بالمسند معرفاً بلام الجنس ، ولعل أول من أظهر معاني التعريف بتلك اللام ، عبد القاهر الجرجاني[١] (ت٤٧١هـ) ، إذ ذهب إلى ان دخولها على الخبر اما لقصر جنس المعنى على المخبر عنه للمبالغة ، أو ادعاء انه لا يوجد إلا منه ، أو تثبيتاً لمعناه وإظهاراً له .

وإن كان شيخ زادة بحث هذا الموضوع بروح الجرجاني ، إلا إنه تميز عنه بنظرته البلاغية في النصوص القرآنية وما تبعثه في سياقات ورودها من دلالات لا تقتصر عما ذكره الجرجاني في أمثلته الواضحة في هذا الموضوع ، فنبه شيخ زادة إلى أغراض ذلك التعريف ، منها :

حصر المسند في المسند إليه :

فقد يتخصص المسند بالمسند إليه في السياق بغية تفخيم المسند بذلك الاختصاص ، إذ يقول شيخ زادة إنّ ((تعريف الخبر بلام الجنس يفيد حصر جنس الخبر في المبتدأ بناء على ان المبتدأ يكون أكمل أفراد ذلك الجنس وهو تفخيم بليغ للمبتدأ))[٢] .

ومثل له شيخ زادة بقوله تعالى : ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢] ، فقد جيء بالمسند وهو لفظ (الكتاب) معرفاً بلام الجنس ، وبين شيخ زادة دلالة ذلك التعريف بالقول : ((ان اللام في (الكتاب) لتعريف الجنس ... وان المقصود من حصر الجنس حصر الكمال فان حصر الجنس المقول على كثيرين في فرد من أفراده يكون للدلالة على كماله في تحقق معنى الجنس فيه وبلوغه إلى حيث صار ما سواه كأنه ليس من أفراد هذا الجنس))[٣] .

والتفخيم الذي أشار إليه شيخ زادة يفهم من قرائن السياق ، إذ إنّ تعريف الكتاب كان مسبوقاً بالإشارة إليه بلفظ البعيد لبيان علو شأنه ورفعة مقامه ، ثم عُرِفَ لإكمال ذلك التفخيم .

---

(١) ينظر : دلائل الإعجاز : ١٩٦-١٩٩ .

(٢) الحاشية : ١/٨٠-٨١ ، وينظر : ١/٤٨٣ .

(٣) الحاشية : ١/٧٩ .

الاستغراق :

وهو كالغرض السابق لدخول (أل) على المسند إليه، استغراقاً لكل أفراد الجنس، فهو يدخل على المسند للدلالة نفسها ، كقوله تعالى : ﴿الٓمٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [لقمان: ١-٤] ، فقد جيء بالمسند (المحسنين) معرفاً ، لاستغراقهم جنس الإحسان ، إذ يقول شيخ زادة في دلالته : ((تعريف المحسنين للاستغراق والمعنى هدى للذين يعملون جميع ما يحسن اعتقاداً أو عملاً ثم خصّ منهم القائمين بهذه الثلاثة من بين شعب ما يحسن لفضل اعتداد بها))[١] .

فدخول لام التعريف على المحسنين للدلالة على ان الإحسان أجناس مختلفة ، ولابد من الموقنين من التحلي بكل تلك الأجناس حتى يحصل لهم الفلاح في الدنيا والآخرة .

للدلالة على الحقيقة :

كقوله تعالى : ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥] .

إذ يقول شيخ زادة في دلالة تعريف المسند وهو (المفلحون) بأل التعريف : ((ومعنى التعريف في (المفلحين) الدلالة على ان المتقين هم الذين إن حصلت صفة المفلحين وتحققوا ما هم ، وتصوروا بصورتهم الحقيقية فهم هم لا يعدون تلك الحقيقة))[٢] .

أي ان التعريف بـ(أل) قد دلّ بسياق وروده على ان المعرف هو الحقيقة المصّورة لذلك المسند ، وهي عين المسند إليه ، فالمشار إليه في (أولئك) هم عين (المفلحون) .

وقد يعرف غير المسند والمسند إليه بلام الجنس ، وذلك لأغراض بلاغية يقتضيها

---

(١) الحاشية : ٣٤/٤ .

(٢) الحاشية : ١٠٥/١ ، وينظر : الكشاف : ٤٦/١ .

المقام عند شيخ زادة ومنها :

للإشارة إلى معهود ذهناً :

أي أن يشار إلى فرد من أفراد الجنس معهود ذهناً بغية استحضاره ، كقوله تعالى : ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١] .

فالتعريف الوارد في قوله تعالى (الفلك) جيء به لإفادة معنى عهديته في ذهن المخاطب ، كفرد من أفراد جنس الفلك ، فيقول شيخ زادة في دلالة تعريفه : ((الألف واللام في قوله (في الفلك المشحون) لتعريف الجنس ، كما في قوله:﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢] ، وقوله تعالى : ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: ١٢] إلى غير ذلك ، كان تعريف الفلك فيه للإشارة إلى الجنس من حيث وجوده ضمن بعض الأفراد وهو المسمى تعريف العهد الذهني))[١] .

المبالغة في الاستغراق :

كقوله تعالى : ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠] ، إذ يقول شيخ زادة في دلالة تعريف (الظنونا) : ((وتعريف الظنون يحتمل ان يكون للاستغراق مبالغة بمعنى تظنون كل ظن ؛ لأن كل أحد يظن شيئاً عند اشتداد الأمر))[٢] .

وعلل شيخ زادة هذه الدلالة في الآية ، بكون الإنسان بطبعه يظن بالله ، فالمؤمن ظان بالله خيراً ، والكافر يظن به سوءاً ، لذل جُعل الجنس كله مستغرقاً للظن[٣] .

أي انه جيء بـ(الظنونا) معرفاً بأل التعريف ، وبصيغة جمع للدلالة على ان الإنسان قد استغرق جميع أنواع الظن في حقه تعالى في دار الدنيا ، وفي ذلك ما فيه من المبالغة .

ب-التعريف بلام العهد الخارجي :

وهي القسم الثاني من أقسام لام التعريف عند شيخ زادة ، إذ ذهب إلى إنّ اللام في العهد الخارجي تدل على ان المعرف بها له وجود خارجي مشار إليه ، أو وجود

---

(١) الحاشية : ١٣٢/٤-١٣٣ .

(٢) الحاشية : ٥٥/٤ ، وينظر : ٢٠٦/١-٢٠٧ .

(٣) ينظر : الحاشية : ٥٥/٤ .

ذهني له حصة معهودة بين المتكلم والمخاطب[١] .

ويؤتى بأحد أركان الجملة الاسنادية سواء كان مسنداً إليه أو مسنداً ، أو متعلقاتهما معرفاً بلام العهد الخارجي لغرض بلاغي يقتضيه السياق القرآني ، أشار شيخ زادة إلى عدد منها :

الإشارة إلى العهد الكنائي :

إذ يكون المعرف بها مُكنى عنه في السياق ، وذلك بأن : ((يذكر شيء من لوازمه)) [٢] . فيُلوح المتكلم بملامح المعهود بالنص ، ثم يحتاج السياق إلى ذكره فيشار إليه باللام ، وتسمى بلام العهد الكنائي ، كقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ ﴾ [آل عمران: ٣٥-٣٦] .

فأشارت إلى نوع المولود (الذكر) بالكناية بذكر لازمه وهو كونه محرراً ، ثم دلت عليه باللام بعد ولادته باعتبار وجوده ، فالتعريف فيه للعهد الكنائي ، ويبين شيخ زادة دلالته على العهد بالقول : ((فان لفظ الذكر إشارة إلى ما سبق كناية في قوله تعالى (رب اني نذرت لك ما في بطني) فان لفظ (ما) وان كان يعم الذكور والإناث لكن التحرير ، وهو ان يعتق الولد لخدمة بيت المقدس إنما يكون للذكور دون الإناث فالتحرير قرينة مخصصة للفظة (ما) بالذكور))[٣] .

فنجد شيخ زادة قد فصّل في ذلك في حين نجد كلاً من الزمخشري[٤] (ت٥٣٨هـ) ، والبيضاوي[٥] (ت٦٨٥هـ) ، قد اكتفيا بالإشارة إلى ان اللام في (الذَكرَ) للعهد الكنائي من غير تفصيل .

الإشارة إلى العهد العلمي :

أي ان تدل اللام على ان المعرف بها معلوم ، وقد ذهب شيخ زادة إلى ان :

---

(١) ينظر : الحاشية : ٢٠٦/١ ، ١٠٥/١ ، ١٤٢/١ .

(٢) الحاشية : ١٤٢/١ .

(٣) الحاشية : ١٤٢/١ .

(٤) ينظر : الكشاف : ٣٨٤/١-٣٨٥ .

(٥) ينظر : تفسير البيضاوي : ١٥٧/١ .

((معهوديتها لمجرد معرفة المخاطب بها من غير ان يتقدم ذكرها لا صريحاً ولا كناية))[1] . وأغلب القرائن التي تحيل على هذا المعنى ، هي معرفة المخاطب والمتكلم بالمشار إليه باللام ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ [البقرة: ١٣] فعرف المسند إليه (الناس) تعريفه العهد لكونه معلوماً عند المخاطب إذ يقول شيخ زادة في دلالته : ((والحصة المعهودة في الآية سواء أُريد بها الرسول ومن معه أو من آمن من أبناء جنسهم لم يتقدم ذكرها صريحاً ولا كناية ، لكنها كالمتقدم ذكرها من حيث ان الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن معه من المؤمنين كانوا معهودين حاضرين في أذهانهم لا يغيبون عن خواطرهم أبداً))[2] . فقد دل تعريف (الناس) على العلمية ، أي كون المعرف بها لا مجال إلى إنكاره فهو معروف لدى المخاطب .

ونتبين مما سبق ، ان شيخ زادة أظهر دلالتين للام العهد الخارجي ، فيما اكتفى كبار علماء البلاغة[3] ، بالتمثيل لدلالتها على العهد بصورة موجزة .

٣-التعريف بالاسم الموصول وأغراضه البلاغية :

يؤتى بالمسند إليه اسماً موصولاً ، كما يرى شيخ زادة عندما يكون المقام صالحاً لذلك ، أي عندما يشتهر المسند إليه بصلة معلومة لدى المخاطب ، إذ يقول شيخ زادة : ((تعريف المسند إليه بالموصول يقتضي ان تكون ذات المسند إليه معلوماً للمخاطب حاضراً في ذهنه بكونه متصفاً بما نسب إليه من مضمون الصلة))[4] .

هذا في السياق الحقيقي للتعريف بالموصول ، ولكن قد يعرف المسند إليه بالموصول لأغراض بلاغية أخرى يقتضيها المقام ، ذكر شيخ زادة منها :

المبالغة في بيان الاتصاف بالصلة :

---

(١) الحاشية : ٤٦٠/١ .

(٢) الحاشية : ١٤٢/١ ، وينظر : ٤٦٠/١ ، ١٠٥/١ .

(٣) إذ اقتصر علماء البلاغة بالتمثيل بقوله تعالى :﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ [آل عمران: ٣٥-٣٦] ، على العهدية . ينظر : السكاكي في مفتاح العلوم : ٣١٦-٣١٧ ، والقزويني في الإيضاح : ٦١-٦٢ ، والتفتازاني في المطول : ٢٢٤-٢٢٥ ، والمغربي في مواهب الفتاح : ٢١٢/١ .

(٤) الحاشية : ٥٤٧/٤ .

كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج:٣٤-٣٥]، وقد استعان شيخ زادة بذوقه البلاغي في بيان طرق المبالغة التي أوجدها التعريف بالموصول مع صلته بالسياق إذ يقول إنّ : ((في قوله تعالى : (والذين هم على صلواتهم يحافظون) مبالغات ، من حيث تعريف المسند إليه بالموصول ، فانه يقتضي ان يكون ذات المسند إليه معلوماً للمخاطب حاضراً في ذهنه ... ولا يخفى ان اشتهار المصلين بالمحافظة على صلاتهم مبالغة في المحافظة عليها ، ومن تكرير المسند إليه لتقوية الحكم وتقريره في ذهن السامع ... ومن تقديم قوله (على صلاتهم) المفيد للاختصاص الدال على ان محافظتهم مقصورة على صلاتهم لا تتجاوز أمور دنياهم ، ومن صيغة المبالغة فأنها ... تكون للمبالغة في ملابسة أصل الفعل وإن كانت على بابها تدل على التعاون على البر وهو أبلغ من مجرد حفظ الصلاة ورعاية ما يناسبها وإذا تقرر ان الموصول مع صلته أفاد هذه المبالغات تقرر ان توصيف المصلين به يفيد مدحاً عظيماً))[1] .

وإذا علمنا ان هذا السياق كثير الورود في القرآن ، فإن تفسيره لهذه الآية يعد باباً لفهم دلالته على المبالغة في الاتصاف بالصلة .

للدلالة على الأوصاف والصلات الثابتة أو المتجددة :

إذ تنبيء صلة المعرف بالاسم الموصول عن اتصافه بالصفة على نحو الثبوت أو التجدد ، كقوله تعالى : ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٢-٣] .

إذ يقول شيخ زادة في دلالة صلته على التجدد والثبوت : ((ولما كان إقام الصلاة وإيتاء الزكاة مما يتكرر ويتجدد جعل الصلتين المتقدمتين جملة فعلية ، فقال يقيمون ويؤتون ولما كان الإيقان بالآخرة أمراً ثابتاً مطلوباً دوامه أتى بالصلة الدالة عليه جملة اسمية))[2] .

فبين السياق ان المعرف بالموصول له صفات يتصف بها تارة تكون ثابتة فيه ،

(١) الحاشية : ٥٤٧/٤ ، وينظر : ٢٤٠/٢-٢٤١ .

(٢) الحاشية : ٤٨٣/٣ ، وينظر : ٤١٤/٤ ، ٨٩/٤ .

وتارة تكون متجددة ، وذلك بفضل صلته التي دلت على تلك الدلالة .

للتنبيه :

كقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٢] ، إذ كرر الموصول مع صلته في قوله : (الذين كذبوا شعيباً)) ، وذهب شيخ زادة إلى ان ذلك التكرير لغرض التنبيه إذ يقول : ((للتنبيه على ... مناط خسران الدارين وهو تكذيب الأنبياء لا تصديقهم واتباعهم كرر الموصول فأن كون المبتدأ موصولاً يشعر بعلية الصلة للحكم المذكور بعدها))[١] .

وفيما فصّل شيخ زادة بالتعريف (بالإشارة وبالأداة (أل) وبالاسم الموصول) ، لم يفصل في التعريف بالعلمية ولا بالتعريف بالضمائر .

المحور الثاني : التنكير وأغراضه عند شيخ زادة :

التنكير :

تُعرف النكرة بأنها ((ما دلت على شيء لا بعينه))[٢] ، أو هي التفات النفس إلى المعنى من حيث هو من غير ان يكون في اللفظ ملاحظة تعيين[٣] ، أي ان للنكرة دلالة غير ان هذه الدلالة غير محددة ، ولذلك فان النكرة تثري التعبير الذي ترد فيه بدلالات وأغراض بلاغية لا ترتقي في تأديتها المعارف ، إذ ان ((التنكير قد يجيء لفائدة جزلة يقصر عن أفادتها العلمّ ولا يبلغ كنهها رسم القلم))[٤] .

وربما تميزت النكرة بذلك لاحتوائها على خصيصتين الأولى لكونها ذات دلالة إيحائية غنية المعاني لكونها مطلقة في الذهن غير محددة ، وذلك الإطلاق يخلق لدى المتلقي إحساساً عميقاً بالكلية ، ويضفي نوعاً من الغموض والتهويل يعمقه الجانب الآخر للنكرة ، وهو الجانب الصوتي للتنوين ، الذي يرفع وتيرة الإيقاع مما يساعد

(١) الحاشية : ٢/٢٥٦-٢٥٧ .

(٢) الطراز : ٢٠٨ .

(٣) ينظر : الفوائد الغياثية في علوم البلاغة : ١١٦ .

(٤) الطراز : ٢٠٨ .

المتلقي في تمثل اللحظة والتفاعل معها[١] .

وتتضح دلالات التنكير من السياق الذي ترد فيه ، إذ أنّ ((المقام هو الذي يصف النكرة ويحدد معناها))[٢] . فيكون السياق بذلك ((من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم))[٣] . لأن الهيئة واحدة للنكرة وهي التجرد من القرينة اللفظية والمعنوية للتعريف ، ولكن ورودها في سياقات مراعية لحال المخاطب والمتكلم يثري تلك النصوص بالدلالات ويزيد من حيويتها وفاعلية التواصل فيها .

وكانت نظرة شيخ زادة للنكرة وهي في سياقات ورودها ، إذ يتحدد معناها وفق تلك السياقات ، سواء كانت مسنداً أو مسنداً إليه أو من متعلقات الجملة ، وحدد أغراضها بالنظر في سياق ورودها كما سيتضح ذلك في أغراض التنكير . ولعل في نظرة شيخ زادة للنكرة في النص القرآني ، نوعاً من التوسع ، إذا ما قورن مع كبار مؤلفي الإعجاز ، كالجرجاني[٤] (ت٤٧١هـ) ، الذي اعتمد في بيانه سرّ جمالية السياق القرآني حينما يستعمل النكرة على الشاهد التحليلي ، فيبرز بلاغته التي هي في قمة الإعجاز ليفتح الباب أمام متذوقي النص القرآني ليكشفوا عن مواطن الجمال فيه . فيما لم يذكر الرازي (ت٦٠٦هـ) للنكرة ودورها البلاغي في السياق القرآني شيئاً في (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) ومن هنا يبرز جهد شيخ زادة في هذا المضمار كما سيتضح .

تنكير المسند إليه وأغراضه البلاغية :

اهتم شيخ زادة بالكشف عن معاني النص القرآني وتوجيهه من تتبع دلالة عناصره ، كالتنكير مثلاً، فالنكرة في السياق تعطي أغراضاً بلاغية يقتضيها المقام، ومن تلك الدلالات والأغراض عند شيخ زادة :

الدلالة على النوع :

فقد يحيل سياق التنكير إلى معنى من المعاني كالنوعية المبهمة مثلاً ، فتحاول النكرة فيه إزالة ذلك الإبهام لتدل على نوع خاص منه ، غير متعارف للمخاطب وذلك

(١) ينظر : الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي ، د. ابتسام أحمد حمدان : ٢٣١ .
(٢) مواهب الفتاح : ٢٢٤/١ ، وينظر : من بلاغة القرآن : ١٠٢ .
(٣) البرهان في علوم القرآن : ٢١٨/٢ .
(٤) ينظر : دلائل الإعجاز : ٢٨٩-٢٩١ .

في مقام التهويل والتعظيم ، ومثّل له شيخ زادة بقوله تعالى : ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧] .

فسياق النكرة فيه نوع من المعاني المبهمة ، إذ إن لفظ (ختم) في قوله تعالى (ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم) قد أثار حفيظة الوهم لدى المخاطب في طرح تساؤل عن حقيقة ذلك الختم للأبصار والسمع والقلوب ، ثم إذا كان ذلك الختم ، فماذا تكون هيئته ؟ وما نوعه ؟ فجيء بلفظ (غشاوة) مبينة ومزيلة لذلك الإبهام ، إذ صورت هيئة الختم ، ونوعه ، بكونه نوعاً خاصاً من الغشاوة لا تدركه أذهانهم.

وهذه الآية قد وقف عندها المفسرون والبلاغيون في تأويل جمالية التنكير ودلالته ، فذهب شيخ زادة إلى دلالة النوعية في تنكير (غشاوة) ، وكذلك في تنكير قوله تعالى (عذاب عظيم) ، وان احتمل السياق دلالة التعظيم ، إذ يقول : ((والتنكير في الموضعين وان احتمل كونه للتعظيم بأن يكون المعنى على أبصارهم غشاوة أيُّ غشاوة ! ولهم عذاب أيُّ عذاب ! ، ويكون توصيفه بالعظم للتأكيد ... إلا ان حمل التنكير على النوعية في قوله (عذاب عظيم) أظهر من حمله على التعظيم ، بناء على ان التعظيم يستفاد من تصريح وصفه الدال عليه بجوهر لفظه وصيغته ، وتنكيره أيضاً والوصف المشتمل على هذه الأمور الثلاثة كان في تعظيم العذاب فينبغي ان يحمل تنكيره على النوعية ليفيد الكلام فائدة زائدة غير التعظيم ، وإذا حمل تنكير العذاب على التنويع ، حمل تنكير غشاوة أيضاً ليناسب العقوبة العاجلة الآجلة))[١] .

فجعل شيخ زادة غرض التنكير في (غشاوة وعذاب) للتنويع ، لكون غشاوات الدنيا متنوعة فكذلك وجب ان تكون عقوبات الآخرة متنوعة ، وهي دلالة قريبة مما ذهب إليها الزمخشري[٢] (ت٥٣٨هـ) ، إذ يرى ان الغشاوة التي على أبصارهم نوع خاص من الأغطية غير متعارفة ، ولهم من بين الآلام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله .

فيما ذهب السكاكي[٣] (ت٦٢٦هـ) إلى ان التنكير في (غشاوة) لتهويل أمرها .

---

(١) الحاشية : ١/١٢٥ .

(٢) ينظر : الكشاف : ١/٥٣ .

(٣) ينظر : مفتاح العلوم : ٢٨٩ .

وجعلها المغربي[1] (ت١١٢٨هـ) للدلالة على تعظيم نوعية الغشاوة .

ولعل تفسير شيخ زادة للآية أوسع مما ذكروه ، إذ انه فصّل في غرضين هما التعظيم والنوعية ، فجمع بينهما إذ دل على ان التنكير فيه بمعنى ان الغشاء نوع عظيم والعذاب نوع عظيم لا تتعارفه الأذهان .

التفخيم والتعظيم :

إذ يبعث سياق ورود النكرة تفخيماً وتعظيماً لمعنى من المعاني يدلل عليه بالنكرة ، كقوله تعالى : ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الحجر:١-٢] ، إذ يقول شيخ زادة في غرض التنكير : ((وتنكير قرآن ... للتفخيم فيرجع المعنى إلى انه قرآن جامع لفخامة الشأن وغرابة البيان ولما كان في التعريف نوع من الفخامة وفي التنكير نوع آخر وكان الغرض الجمع بينهما عرف الكتاب ونكر القرآن))[2] . فأشار إلى دلالة التفخيم التي انضوت تحت التعريف مرة وتحت التنكير أخرى.

وقد تدل النكرة على التعظيم ، كقوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ﴾ [الزمر: ١٠] فقد نُكرت (حسنة) لغاية معنوية وضحها شيخ زادة بقوله : ((التنكير في حسنة للتعظيم ، أي حسنة عظيمة لا يصل العقل كنه كمالها))[3] . فجاء التنكير هنا دالاً على التعظيم .

التعميم :

ذهب أغلب البلاغيين[4] إلى ان تنكير المسند إليه في سياق النفي يفيد العموم ، وتطرق شيخ زادة[5] إلى تلك الدلالة في مواضع من حاشيته ، ومنها في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلٗى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [الدخان: ٤١] ، إذ يقول شيخ زادة في غرض التنكير : ((ونكر مولى في الموضعين للإبهام والتعميم ، فأن المولى يطلق على القريب ... والمعتق وابن العم والجار والصديق والصهر ، وكل من ولي أمر

(١) ينظر : مواهب الفتاح : ٢٢٥/١ .

(٢) الحاشية : ١٤٤/٣ .

(٣) الحاشية : ١٩٥/٤ ، وينظر : ١٣٦/٤ .

(٤) ينظر : عروس الأفراح : ٢٠٥/١ ، المطول : ٢٢٩ .

(٥) ينظر : الحاشية : ١٣٤/٤ ، وينظر : ٨/٤ ، ١١٧/٤ .

واحد فهو وليه ، ومولاه ، فواحد من هؤلاء ، أيُّ واحد كان لا يغني عن مولاه أي مولىً كان شيئاً))[1] . فأطلقت النكرة لإفادة العموم .

ولكن قد يقتضي السياق القرآني المثبت دلالة العموم ، كقوله تعالى : ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤] إذ يقول شيخ زادة في غرضه : ((المقام مقام الاستغراق والعموم لأن العلم بما أحضرت حاصل لكل نفسٍ حينئذٍ لقوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]))[2] .

فاستدل باستغراق السياق لمعنى حضور الجنس بأكمله على غرض العموم، وان كان مخالفاً بذلك للقاعدة البلاغية، وبين التفتازاني (ت٧٩٢هـ) خروج هذه الآية عن الأصل بالقول: ((والنكرة في الايجاب ظاهرة في عدم الاستغراق وقد يستعمل فيه مجازاً كثيراً في المبتدأ...وقليلاً في غيره نحو (علمت نفسٌ ما قدمت)))[3] .

فأول التفتازاني مجيء النكرة في سياق الإيجاب والثبوت للدلالة على الاستغراق والعموم ، بكونه على المجاز ، ووصفه بكونه قليلاً . ولعل هذا ما قصده شيخ زادة باستشهاده بالآية الدالة على العموم ، لبيان مجيء النكرة في سياق الإثبات لإعطاء دلالة العموم .

تنكير المسند وأغراضه البلاغية :

يؤتى بالمسند نكرة لأغراض بلاغية يقتضيها السياق القرآني ، تطرق شيخ زادة إلى بعضها لبيان هذا الأسلوب المؤثر في تأدية المعاني ومنها :

التفخيم والتعظيم :

فقد تبلغ المعاني مبلغاً لا يصح معه تعريفها ، لجلال وصفها الذي تقتصر المعرفة عن تأديتها ، فينكر لإعطائه غرض التفخيم والتعظيم ، كقوله تعالى :﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦١] ، فجيء بالمسند وهو (صراط) نكرة ، للتعبير

(١) الحاشية : ٣١٦/١ .
(٢) الحاشية : ٦٢٧/٤ .
(٣) المطول : ٢٢٩ .

عن عظمة هذا الصراط الذي لا يُدرك قدره ، فعبرت عن ذلك المعنى لتحررها من قيود الصياغة اللفظية والتحديد الذي يبعثه التعريف وزاد في جمالية ذلك تفخيمه بالوصف ، وهو ما أوضحه شيخ زادة حينما أشار إلى سرّ اختيار النكرة بقوله : ((ان هذا الصراط لارتفاع شأنه وعلو طبقته في كونه صراطاً مستقيماً بلغ مبلغاً لا يمكن تعيينه والإشارة إليه بخصوصية ثابتة له في استقامته واستجماعه جميع ما يحسن ان يكون الصراط عليه وانه لا سبيل إلى الدلالة عليه سوى ان يعبر عنه باسم جنسه كأنه قيل وصية لكم بهذا الصراط لانه في غاية الاستقامة ونهاية الرفعة وعلو الطبقة))[١] .

فيما جعل الزمخشري[٢] (ت٥٣٨هـ) تنكير (الصراط) ، لتوبيخ من ظل في مسلكه ، ووافق أبو السعود[٣] (ت٩٨٢هـ) شيخ زادة في دلالة التنكير على تفخيم الصراط .

وقد يقترن غرض التفخيم مع التعظيم ، عندما يكون اللفظ المنكر مما لا يحيط الوصف به ، أو يدرك كنه عظمته ، كقوله تعالى : ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٦٥-٦٧]، إذ يقول شيخ زادة في دلالة تنكيره : ((التنكير في قوله (لآية) للتعظيم والتفخيم))[٤]. فجيء باللفظ منكراً بغية تعظيمه، وفي سياق مملوء بالتأكيدات التي تمكن المعنى في النفس وتقرره.

وجعل أبو السعود[٥] غرض السياق التعجب والتعظيم . ولكونها آية ، تحتمل كل معاني الجلالة من تعظيم وغيرها ، لكونها مرتبطة بالفعل (أنجينا) المسند في تكلمه (لله تعالى) فكيف لا يكون ما اسند إليه تعالى ، وكان برهاناً ساطعاً للناس في كل زمان عجيباً وعظيماً وفي قمة الفخامة .

ومن مجيء النكرة لغرض التعظيم ، قوله تعالى : ﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [الجاثية: ١١] فأشار إلى كمال القرآن بالنكرة لتعظيمه من ان يبلغ مبلغه كتاب آخر ، إذ يقول شيخ زادة في غرض سياقه : ((ثم انه تعالى لما

(١) الحاشية : ١٣٨/٤ .
(٢) ينظر : الكشاف : ٢٦/٤ .
(٣) ينظر : تفسير أبي السعود : ٣٠٧/٥ .
(٤) الحاشية : ٤٧١/٣ .
(٥) ينظر : تفسير أبي السعود : ٢٤٦/٦ .

وبخهم على كفرهم بالقرآن وذكر أنواع ضلالهم في حقه وهددهم عليها بوجوه متعددة جعله كالجبل المشار إليه بالحس ونكر خبره تنكير تعظيم وتهويل فقال هذا هدى أي الكامل في الهداية وليس بمظنة التكذيب والاستهزاء))[1] . فدلت النكرة مع لفظ الإشارة القريب إلى عظمة هذا القرآن وجلاله ، فساعد سياق النكرة في إيصال الدلالة .

التنكير في غير المسند والمسند إليه وأغراضه البلاغية :

اهتم أغلب البلاغيين[2] ببيان غرض تنكير المسند والمسند إليه . فيما لم يقتصر شيخ زادة على ذلك ، بل تجاوزه فبحث جمالية التنكير في المفعول به ، والاسم المجرور والمعطوف بحسب ورودها في السياقات القرآنية ، فمن الأغراض البلاغية الداعية لتنكيرها عند شيخ زادة :

التبعيض والتقليل :

فقد يرد التقليل في سياق تفخيم القدرة حينما يتعلق الأمر بظهور المعجزة في مدة قليلة ، إذ وردت النكرة في بعض السياقات القرآنية ، لإعطاء ذلك الغرض بوجود قرائن التفخيم التي تحيل إلى معنى البعضية أو التقليل ، وذلك كقوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] ، فقد وقف عند هذه الآية شيخ زادة ، وهو لم يكتفِ كعادته في النظر إلى تنكير المفردة بعيداً عن السياق ، إذ يقول: ((تصدير السورة بالكلمة الدالة على التعجب البليغ قرينة دالة على ان الوارد بعدها أمر خارق للعادة وآية عظيمة لا يقدر عليها إلا الله تعالى عز وجل ، فلما قيل بعدها (ليلاً) تبين بتلك القرينة ان المراد منه بعض الليل ، فان التبعيض قريب من التقليل ، فكأنه قيل أسرى بعبده في بعض ليلٍ من مكة إلى بيت المقدس مسيرة أربعين ليلة فتعين بتلك القرينة ان المراد تقليل مدة الإسراء للدلالة على ان الإسراء وقع في بعض الليل))[3] .

---

(١) الحاشية : ٣٢٢/٤ .

(٢) ينظر : مفتاح العلوم : ٢٨٦ وما بعدها ، و٣١٠ وما بعدها ، وينظر : الإيضاح : ٦٤ ، ١٠٣ ، والطراز : ٢١٠-٢١١ ، وعروس الأفراح : ٢٠٢/١ ، ٣٦١/١ .

(٣) الحاشية : ٢٠٨/٣ .

فيكون المجيء بـ(ليلاً) نكرة ، لغرض تقليل مدة الإسراء ، وفي ذلك ظهور لقدرته عزّ وجل في خرق نواميس الزمان الدنيوي الذي يقتضي ان تكون مدة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى مدة أطول مما أظهره التنكير من تقليل ، ففي ذلك تفخيم عجيب لقدرته عزّ وجل .

التفخيم :

وقد تنتج سياقات التنكير غرض التفخيم عندما تتكاثر احتمالات النكرة وتذهب النفس فيه كل مذهب لكونها مطلقة في الذهن ، ومثل له شيخ زادة بقوله تعالى : ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ [النحل: ٧] .

ويبين شيخ زادة غرض التنكير ، إذ يقول : ((تنكير البلد للتفخيم والتهويل والمعنى إلى بلدٍ غاية البعد بحيث لا يبلغ الإنسان إليه بالمشي على رجليه فضلاً عن ان يبلغه وهو يحمل أثقاله على ظهره ، ولما كان المقام ، مقام توصيف البلد بالبعد ، وتحقيق بُعْدِهِ حسن توصيفه بقوله (لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس)))[1] .

فجيء بلفظ (بلدٍ) نكرة ، للدلالة على عدم تعيين أي بلد بل أطلقه بمعنى كل بلد، ولتفخيمه، قال : (لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) لإعطاء دلالة البعد والتهويل للكشف عن عمق تلك الفضيلة وأهميتها لحياة الإنسان ، وتظهر عناية الله بعباده ورحمته لهم .

وكذلك من دلالة التنكير على التفخيم ، قوله تعالى : ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٦] إذ يبين شيخ زادة غرض تنكير كفاتاً بالقول : ((ان التنكير فيها للتفخيم ... وتنكير اسم الجنس لقصد التفخيم لا ينافي كونه عاماً مستغرقاً لجميع الأفراد ، لأنه في معنى تكفت أحياء لا يعدون وأمواتاً لا يحصرون))[2] . أي ان تنكير (أحياءً) و (أمواتاً) جيء به لغرض تفخيم شأن الأرض التي جُعِلتْ كالوعاء الذي يضم أحياء لا يعدون وأمواتاً لا يحصون . فأطلق دلالة الكفت للأحياء والأموات ولم يحدها لغرض تفخيمها .

---

(١) الحاشية : ١٦٨/٣ .

(٢) الحاشية : ٥٩٩/٤ .

النوع :

فقد تكشف السياقات عن حال المتكلم ودرجة يأسه بذكره نوعاً من الأنواع كيفما كانت صفته ، تعللاً بذكره كقوله تعالى : ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [غافر: ١١] ، وبين شيخ زادة غرض التنكير بالقول : ((ان تنكير (خروج) للنوعية وكذا تنكير (من سبيلٍ) كأنه قيل : فهل إلى خروج سريع أو بطيء شيء من السبيل أو اليأس واقع دون ذلك فلا خروج ولا سبيل إلى ذلك ، وهذا كلام من غلب عليه القنوط يذكره تعللاً عن اكتفاء وقناعة بذكر الخروج عن الخروج حقيقية))[١] .

والى ذلك الغرض ذهب البيضاوي[٢] (ت٦٨٥هـ) ، من غير تفصيل ، وإن كانت دلالة النوعية قريبة من السياق ولكن قد يحتمل السياق معنى التقليل أيضاً ، لكونهم في حال لا يُسمح لهم فيه بتعيين نوع الخروج ، ولكن لعلهم مقابل اعترافهم بذنوبهم يبغون خروجاً قليلاً ، للتعلل برحمته تعالى ، فيكون بذلك التنكير للتقليل .

التعميم :

فقد تستغرق النكرة معنى من المعاني ، لدلالتها غير المحددة التي لا تقيد السياق، كقوله تعالى : ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [يس: ٥٠] إذ دلّ تنكير (توصية) على العموم ، إذ يقول شيخ زادة : ((ان التنكير في توصية للتعميم ، وان المعنى لا يقدرون توصية ما ولو كانت بكلمة يسيرة ، وإذا لم يقدروا عليها يكونون أعجز عما يحتاج إلى زمان طويل من أداء الواجبات ورد المظالم ونحوهما لأن القول أيسر من الفعل ، فإذا عجزوا عن أيسر ما يكون من القول تبين ان الساعة لا تمهلهم في شيء ما))[٣] .

فدل سياق الآية على انتفاء أي نوع من أنواع التوصية بدلالته على العموم المستدل عليه بالتنكير .

التعظيم :

---

(١) الحاشية : ٥٩٩/٤ ، وينظر : الكشاف : ٧٥/٤ .

(٢) ينظر : تفسير البيضاوي : ٣٣٦/٢ .

(٣) الحاشية : ١٣٤/٤-١٣٥ .

إذ يوفر السياق القرآني للنكرة غرض التعظيم ، إذا توافرت قرائن دالة عليها ، كالوعد بالحسنى في قوله تعالى :﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الطور: ١٧-١٨] إذ دّل سياق الوعد على غرض التعظيم في قوله (جناتٍ) و (نعيم) لذلك ذهب شيخ زادة إلى القول بأن ((تنكير جنات ونعيم أما للتعظيم أو النوعية))[١]. ولعله يقصد بالنوعية ، أنواعها الموعود بها .

ومثله قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤] ، إذ يقول في غرضها: ((وتنكير جنات للتعظيم أي في جنات لا يوصف نعيمها وما أُعد لأهلها))[٢] . وقد تقتضي القرائن السياقية في النص أغراضاً أخرى مع غرض التعظيم ، وذلك كقوله تعالى : ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: ١٤] إذ جوّز شيخ زادة لتنكير (قوماً) ثلاثة أغراض إذ يقول : ((نكر تعظيماً لشأنهم ، كأنه قيل ليجزي قوماً أي قوم من شأنهم الصفح عن السيئات والتجاوز عن الأذيات وتجرع المكاره ، والصبر عليها ، وان أريد الكفار المذكورين بقوله تعالى (لا يرجون أيام الله) يكون وجه التنكير تحقيرهم ، وان أُريد به كلا الفريقين يكون التنكير للشيوع والإبهام))[٣] .

وذهب الزمخشري[٤] (ت٥٣٨هـ) إلى دلالة التنكير على المدح للذين آمنوا والثناء عليهم ، فيما أشار البيضاوي[٥] (ت٦٨٥هـ) إلى الأغراض الثلاثة بدون تفصيل فيهن ، ووضح أبو السعود[٦] غرضين هما : المدح والتحقير .

ومن ذلك نخلص إلى ان ما ذكره شيخ زادة قد يكون أقرب للسياق ، لكونه مستوعباً للمعاني المنبعثة منه ، كلفظ وكسياق متناغم .

التهويل :

---

(١) الحاشية : ٤٠١/٤ .

(٢) الحاشية : ٤٢٦/٤ .

(٣) الحاشية : ٣٢٣/٤ .

(٤) ينظر : الكشاف : ١٨٩/٤ .

(٥) ينظر : تفسير البيضاوي : ٣٨٨/٢ .

(٦) ينظر : تفسير أبي السعود : ٥٩/٦ .

كقوله تعالى : ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١١-١٣] إذ أشار السياق القرآني إلى غرض التهويل ، إذ يقول شيخ زادة : ((فأن تعداد ما عنده من أساليب التعذيب بيان لاقتداره على الانتقام منهم ، والجحيم كل نار عظيمة في مهواة ، وهي مابين جبلين ... والطعام ذو الغصة هو الطعام الذي يقف في الحلق لا ينزل ولا يخرج ، وتنكير عذاباً وإبهام كيفيته يدل على كونه في نهاية الهول والشدة بالنسبة إلى ما تقدم عليه من الأمور الثلاثة وكونه للتهويل لا ينافي كونه للنوعية))[١] .

فرفع السياق من وتيرة التهويل ، ابتداءً من اللفظ والمعنى وحتى حركة تنوين التنكير ، التي دلت مع إبهام لفظ العذاب ، ووصفه بكونه أليماً ، على شدة هوله وعظمة شأنه ، وإذ ذهب شيخ زادة إلى دلالة التهويل ، فصّل أبو السعود (ت٩٨٢هـ) في غرض السياق على النوعية إذ يقول : ((وعذاباً أليماً) ونوعاً آخر من العذاب مؤلماً لا يُقادرُ ولا يُدرك كنهه))[٢] .

وكلا الغرضين يوحي بهما السياق ، ففي أفراد العذاب بالذكر لكونه قد يكون نوعاً خاصاً منه ، ولتهويل أمره أيضاً أفرِدَ ونكر .

(١) الحاشية : ٥٦٥/٤ .

(٢) ينظر : تفسير أبي السعود : ٣٢٣/٦ .

الفصل الرابع : الذكر والحذف في حاشية شيخ زادة :

توطئة :

يعد الذكر والحذف من الأساليب البلاغية المهمة ، إذ انها تعبر عن حاجة المتكلم في إيصال الإفادة ، فتارة يكون ذكرُ أحد أركان الجملة ذا فاعلية لإيصال المراد وتارة يكون الصمت عن أحد أركان الجملة معبراً عن ذلك ، لذا فالحذف كثيراً ما يرد أبلغ من الذكر في مواضع ، فيكون : ((ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة وتجدك أنطق ما تكون إنْ لم تنطق وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن))[١] .

وقد يكون الذكر أفصح في مواضع ، لكونه يحقق قيمة معنوية في الأسلوب وفوات هذه القيمة إخلال في بعض السياقات فيكون الذكر الموجز هو المطلوب فيها ، وليس الذكر البليغ هو ما يتمدد به الأسلوب حتى يفيض عن المعنى فيصير التعبير فارغاً ، بل هو الذكر الموجز البليغ الذي يهدف إلى غرض بلاغي[٢] ، لذلك فالذكر في القرآن الكريم له دلالته وكذلك الحذف وإن وجود أحدهما في السياق يستدعي التأمل لمعرفة أغراضه ، فالحذف قد يحقق أسراراً بلاغية وأهدافاً تربوية ، إذ يكون كعامل يضاعف من يقظة الفطن وينبه الغافل ، ويجدد نشاطه إن كان قد فتر نشاطه بحثاً عن الجواب المحذوف الذي تسكن إليه نفسه ويطمئن إليه قلبه[٣] ، كما ان الذكر في القرآن الكريم يثبت المعنى ويوطده في النفس ويقرره مع إفادة أغراض سياقية يقتضيها في كل ذكر من مواضع الذكر في النص المقدس[٤] .

وكان جهد البلاغيين في موضع الذكر في اتجاهين : الأول لم يتطرق فيه بعض العلماء لهذا الفن ، إذ يقول المراغي : ((لم يتطرق لهذا الباب كثير من أئمة هذا الفن كأبي هلال والإمام عبد القاهر ، وكأنهم لم يروا فيه من اللطائف والمزايا ما يسبغ البحث عنه في علوم الفصاحة))[٥] . ونضيف له ابن الأثير[١] (ت٦٣٧هـ) ، الذي

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٧٠ .

(٢) ينظر : خصائص التراكيب : ١٨٠ .

(٣) ينظر : الحذف البلاغي في القرآن الكريم ، مصطفى عبد السلام : ٣٨ .

(٤) ينظر : من بلاغة القرآن : ٩٥ .

(٥) علوم البلاغة : ٧٣ .

أُولِعَ ببيان الحذف وطرقه وبلاغته وأهمل الذكر ، والاتجاه الآخر أقتصر على الذكر في المسند والمسند إليه وعلى أغراض مجيئه فيها ، كالسكاكي[٢] (ت٦٢٦هـ) ، والقزويني[٣] (ت٧٣٩هـ) وشرّاح التلخيص[٤] .

المحور الأول : الذكر :

١-ذكر المسند إليه والمسند عند شيخ زادة :

أما شيخ زادة فتطرق في بحثه إلى ذكر المسند والمسند إليه وإن لم يُبدِ اهتماماً بهما ، وأولى اهتمامه بذكر المتعلقات ، التي لم يهتم بها البلاغيون كالسكاكي والقزويني وشرّاح التلخيص ، مما حدى به إلى ان يجعل جُلّ اهتمامه نحو بلاغة المتعلقات وذكرها ، فمن أغراض ذكر المسند إليه عند شيخ زادة :

لإظهار الأوْلى ببيان الحكم :

كقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [لقمان: ٣٣] إذ خصص لفظ (المولود) بالذكر في موضع ذكر (الولد) ، لكونه أولى ببيان قطع رجاء من يتأمل شفاعة لا يستحقها ، فالمولود الصلبي لا ينفع أباه يوم القيامة وهو الأولى بالدفع يومئذٍ فكيف بغيره ، ويوضح شيخ زادة غرض الذكر في الآية بقوله : ((فان الولد يقع على الوالد الصلبي وولد الولد بخلاف المولود فانه لا يطلق إلا على الولد الصلبي فتخصيص المولود بالذكر لقوة قرابته يدل على أنه أولى بأن لا يجزي ... فقد غير لفظ الولد إلى لفظ المولود ، ووجه التغيير ما ذكر من ان الدلالة على انه أولى ببيان حكمة وقطع طمع من توقع ان ينفع أباه الكافر))[٥] .

وذهب الزمخشري[٦] (ت٥٣٨هـ) إلى ان لفظ (المولود) يبعث نوعاً من التوكيد

---

(١) ينظر : المثل السائر : ٦١/٢ وما بعدها .

(٢) ينظر : مفتاح العلوم : ٢٦٧-٢٦٨ .

(٣) ينظر : الإيضاح : ٥٦ و ٩٥ .

(٤) ينظر : عروس الأفراح : ١٦١/١ و ٣١١/١ ، والمطول : ٢١٣ و ٣٠٨ ، ومواهب الفتاح : ١٩٣/١ .

(٥) الحاشية : ٤٢/٤ .

(٦) ينظر : الكشاف : ٥٣٢/٣ .

لحسم أطماع المؤمنين الذين يتأملون الشفاعة لذويهم ، وقريبُ منه ذهب البيضاوي[١] (ت٦٨٥هـ) إذ جعل غرض الذكر لقطع الأطماع في الشفاعة ، في حين ذهب ابن عاشور[٢] (ت١٣٩٣هـ) ، إلى ان الذكر يبعث دلالة التنبيه على ان تلك الصلة الرقيقة لا تخول صاحبها . وكل الأغراض المطروقة تقترب من نص شيخ زادة ، فالتوكيد والتنبيه طريق لبيان الحكم الذي هو البت في عدم الشفاعة .

أما ذكر المسند

فذهب شيخ زادة إلى ان ذكره في بعض السياقات ذكراً مقصوداً لتأدية غرض بلاغي ومن تلك الأغراض لذكر المسند :

كونه الأولى بالذكر

كذكر المسند في قوله تعالى :﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام: ٧] ، إذ خصص لفظ (لمسوه) من بين طرق الإحساس لغرض أوضحه شيخ زادة بقوله : ((انه خصّ اللمس بالذكر من بين طرق الإحساس والمشاهدة لأنهم لم يتأثروا بالإدراك السمعي ولا الإدراك الذوقي والإدراك اللمسي ، واللمس لكونه لا يقبل التزاوير أقوى من البصري ، لأنهم إذا رأو المكتوب بأبصارهم لاحتمل ان يقول سُكِرت أبصارنا أي سُدّت ... ولأن اللمس يتقدمه الإبصار ويستلزمه من غير العكس فيكون ذكره في قوة ذكرهما معاً فيكون أولى بالتخصيص بالذكر))[٣] .

ولعل في لفظ (اللمس) مراعاة وإشارة لحال المخاطبين الذين يميلون إلى إدراك المحسوس أكثر من ميلهم إلى المدركات الذهنية وتصويراً للجاجتهم وفرضياتهم الباطلة التي تنبئ عن غياب العقول فالقرآن الكريم نصّ للإدراك وللإفهام ولما عبّر ههنا عنه باللمس كان دليلاً على الحط من شأن المخاطب بهذه الصفة ، فالمدركات لا تُلمس بل تصدق وتدرك بالذهن ويُعمل بها ، ولكن من أُفرغت مكنوناته من الحكمة لا يقبل من

(١) ينظر : تفسير البيضاوي : ٢٣٢/٢ .
(٢) ينظر : التحرير والتنوير : ١٩٤/٢١ .
(٣) الحاشية : ١٥٣/٢ .

الغيبيات إلا الظاهر المجسد والمعبر عن حاله بعالم المادة .

٢-الذكر في غير المسند والمسند إليه وأغراضه البلاغية :

لم يخصص البلاغيون لذكر متعلقات الجملة جانباً من الاهتمام بل اقتصروا على بيان ذكر أركان الجملة الإسنادية[١] ، لكون مجيئها يحدد دلالة السياق وغرضه فيما يبعث متعلق الجملة أغراضاً فرعية ، لكون أصل الإفادة تتم بذكر الركنين الأساسيين المسند والمسند إليه إلاّ إنّ ذكر بعض ألفاظ متعلقات الجملة ولاسيما القرآنية له دلالته حتى لو كان خارج دائرة الأهمية في تكوين الجملة بالنسبة لمعيار الإفادة الذي وضعه البلاغيون وكذلك النحاة .

وتنبه شيخ زادة إلى بعض مواضع ذكر متعلقات الجملة ووجد ان بعض الألفاظ تذكر لتأدية أغراض بلاغية يقتضيها السياق منها :

التنبيه على كون المذكور أصلاً :

فغالباً ما يكون ذكر بعض الألفاظ القرآنية للتنبيه على أهميتها لكونها أصلاً ، وذلك كقوله تعالى : ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾[البقرة: ١٠٢] ، فالإنزال وان كان على الملكين ولكنه مراد به القوم للإيمان بالمُنَزَل وذكر هذين الملكين ، لكونهما أصلاً فهما واسطة نقل لذلك الإنزال.

وبين شيخ زادة غرض تخصيصها بالذكر بقوله : ((وخصها بالذكر مع ان قومها مقصود بالإنزال والتبليغ ، لكونهم تبعاً لهما ، وهذا كقوله تعالى لموسى وهارون عيهما السلام :﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤] ، وكان قد أرسلا إلى فرعون وقومه لكن خصّ فرعون بالذكر ، لأنه رئيس قومه ورعاياه أتباعٌ له))[٢] . فكان ذكر اللفظ فيه دلالة على الأصل .

وقد يكون المخصص بالذكر أصلاً ، لكونه المسيطر على غيره كقوله تعالى :

---

(١) ينظر : مفتاح العلوم : ٢٦٧-٢٦٨ ، والإيضاح : ٥٦ وما بعدها ، وعروس الأفراح : ١٦١/١ وما بعدها ، والمطول : ٢١٣ ، ومواهب الفتاح : ١٩٣/١ .

(٢) الحاشية : ٣٧١/١ .

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠] إذ علل شيخ زادة ذكر (الصدور) بقوله : ((أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب فان لولا تحقق البواعث والإرادات في القلوب لما حصلت أفعال الجوارح))[١] . فأعمال الإنسان ونياته تعتمد على ما في صدره من خير وشر ، فهي انعكاس لذلك الأصل المسيطر ، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة: ١٤٩] إذ خصص لفظ (الوجه) بالذكر ، أما غرض ذلك فيبينه شيخ زادة بقوله : ((ولعل لتخصيص (الوجه) بالذكر ، للتنبيه على انه الأصل المتبوع في التوجه والاستقبال))[٢] . فتخصيصه بالذكر انبأ عن كونه الأصل وكذلك فان الوجه هو مركز الشرف لدى الإنسان وعلامته إذا كان مؤمناً أو ضالاً فخصصه بالذكر لكون التوجه يجب ان يكون بأشرف شيء إلى أشرف بقعة .

الدلالة على الفضل :

إذ يخصص اللفظ المراد بيان فضله وعلو شأنه عن غيره بالذكر ، لتنبيه المخاطب لتلك المزية التي خصته وعظمته عمن سواه كقوله تعالى :﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢] ، إذ خصص لفظ (بكرة وأصيلا) بالذكر على الرغم من كون التسبيح مطلوباً في كل آن ويوضح شيخ زادة دلالة ذلك الذكر بالقول : ((ولما كان المراد بالذكر الكثير على الدوام من غير تخصيصه بوقت دون وقت ، كان المراد بالتسبيح المندرج تحته التسبيح في كافة الأوقات أيضاً إلا انه خصّ طرفي النهار بالذكر ، للدلالة على فضلهما وتمحيصاً لما يرى بينها))[٣] . فكان الذكر في (بكرةً وأصيلاً) ذكراً بليغاً ، لكونه منبئاً عن غرض وهو بيان فظلهما من بين سائر الأوقات .

لبيان المبالغة في الشدة :

---

(١) الحاشية : ٦٨٨/٤ .

(٢) الحاشية : ٤٥٣/١ .

(٣) الحاشية : ٦٦/٤ .

كقوله تعالى في حق اليهود : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ [البقرة: ٩٦] فنلحظ ان سياق الآية خصصهم بالذكر لبيان تعلقهم بالحياة كيفما كانت نوعها ، أما غرض إفرادهم بالذكر فيبينه شيخ زادة بالقول : ((انهم مع دخولهم تحت الناس أفردوا بالذكر ، للمبالغة في بيان شدة حرصهم كأنهم لتوغلهم في الحرص على الحياة جنس خارج عن الناس))[1] . فخصصهم بالذكر من بين الناس ، لكونهم متميزين ومبالغين في حبها ، فعبر سياق الآية عن هذا المعنى بذكرهم .

وقد يُظهر سياق المخصص بالذكر تنبيهاً على شدة المذكور كقوله تعالى : ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[البقرة: ١٠٢] ، ويبين شيخ زادة غرض هذا التخصيص بالذكر في قوله (السحر) قائلاً : ((وتخصيص لفظ (السحر) بالذكر تنبيهاً على ان السحر يحصل به سائر الضرر فإن استناد المرء إلى زوجه وركونه إليها معروف زائد على كل مودة فنبه بذكر ذلك على ان السحر إذا أمكن به هذا الأمر على شدته فغيره أولى))[2] . فذكر لفظ (السحر) قد جاء في سياق بيان حميمية العلاقة الزوجية ، لبيان ان تلك العلاقة على شدتها قد يعرض لها ما يؤدي إلى تزعزعها ، للمبالغة في بين ضرر السحر إذ ان مودة الرجل للمرأة على شدتها قد يعمل السحر على تحويلها ، وهذا ما أراده القرآن إيصاله لبيان المبالغة في شدة الضرر .

لإظهار التعجب مما لا دخل للبشر في صنعه :

كذكر السماوات والأرض في كثير من السياقات القرآنية لإظهار التعجب من خلقها ، ومنها في قوله تعالى : ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة:١٠٧] ، أما غرض الذكر فبينها شيخ زادة بقوله : ((وتخصيص (السماوات والأرض) بالذكر وإن كان له تعالى ملك الدنيا والآخرة جميعاً ، لكونها أعظم المصنوعات وأعجبها شأناً

(١) الحاشية : ٣٥٩/١ .

(٢) الحاشية : ٣٧٤/١-٣٧٥ .

ولكونهما منتهى علم الخلق من حيث الظاهر فيكون ذكرهما كذكر الكل))[1] .

وكذلك ذكر السفن وجريها في الماء ، خصصها بالذكر لإظهار قدرته ، (عزّ وجلّ) إذ يقول شيخ زادة : ((ذكر ان الهواء له تأثير عظيم في جري السفن المشابهة للأعلام فقال :﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ [الرحمن: ٢٤] وخصّها بالذكر ، لأن جريها في البحر لا صنع للبشر فيه))[2] . لذلك فهي مدعاة للتعجب وإظهار العجز لتلك القدرة المسيرة والمسيطرة عليها .

التفخيم :

فقد يكون ذكر اللفظ باعثاً لذلك الغرض ، بفضل السياق الذي يوحي بدلائل التفخيم ، كقوله تعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١-٥] ، إذ خصص (الغسق والنفاثات والحسد) بالذكر من بين الشرور لتفخيم ضررها ، ويبين شيخ زادة دلالة ذكر الغاسق مثلاً بقوله : ((قوله تعالى : (من شر ما خلق) يتناول جميع الشرور المتعلقة بعالم الخلق سواء كانت طبيعية أو اختيارية وشر الليل الغاسق مندرج فيه ... ان تخصيصه بالذكر مع اندراجه فيما ذكر قبله للإشارة إلى تفخيم شره لكثرة وقوعه فيه وعسر دفعه ، أما كثرته فلأن السباع تخرج في الليل من آجامها والهوام من مساكنها وكذا السّراق ومتصدي الفرصة من الشر فلأن ظلمة الليل أستر للقاصد بالسوء فيظفر بمن قصده على غرة وغفلة فلا يتمكن من دفعه بنفسه ولا بالاستعانة لأن الغوث يقل فيه))[3] . وكذلك فصّل شيخ زادة في غرض المذكورين بالاستعاذة وتخصيصهما بالذكر، ودلالة ذلك التخصيص على التفخيم[4].

لزيادة التصوير ودفع التجوز :

(١) الحاشية : ٣٨٦/١ .

(٢) الحاشية : ٤٣٠/٤ .

(٣) الحاشية : ٧١٤/٤ .

(٤) ينظر : الحاشية : ٧١٥/٤ ، ٧١٦/٤ ، ٧١٧/٤ .

كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨] ، إذ خصص لفظ (اليمين) ، بالذكر وتساءل شيخ زادة بأسلوب افتراضي عن ذلك السر ، وأجاب عليه ، إذ يقول : ((ما فائدة ذكر اليمين مع ان الكتابة إنما تزاول باليمين فذكر له فائدتين : الأولى زيادة تصوير كونه كاتباً ، كما وصف الطائر بقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] لذلك والثانية دفع التجوز في الإسناد فان الفعل كثيراً ما يسند إلى سبب الآمر فلما قيل بيمينك اندفع ذلك الاحتمال))[١] .

للإشعار بعدم التفاوت والاستمرار :

إذ يكون اللفظ المخصص بالذكر أشبه بالمطلق غير المحدد بحدود معنوية ، كلفظ الليالي والأيام الواردة في قوله تعالى :﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾[سبأ: ١٨] ويبين شيخ زادة غرض التخصيص بالذكر بقوله : ((خصّ الليالي والأيام بالذكر مع ان السير لا يكون إلا فيها ، للإشعار بأن الأمر لا يتفاوت باختلاف الأوقات أو للإشعار بأن الأمر يستمر وان تطاولت مدة السفر على ان يراد بالليالي والأيام الكثرة والمواظبة على السير وعلى الثالث يكون المقصود من ذكر الليالي والأيام الإشعار باستمرار الأمن))[٢] . ولعل لفظ (الليالي والأيام) مخصص بالذكر للإشعار بالأمان بقرينة الحال (آمنين) فلياليهم كأيامهم في السير لصفاء الظروف المصاحبة للسفر .

(١) الحاشية : ١٥/٤ .

(٢) الحاشية : ٨٧/٢ .

المحور الثاني : الحذف :

١- حذف المسند إليه وأغراضه البلاغية :

يعد المسند إليه من الأركان الأصلية للجملة الإسنادية التي تقترن بوجوده الفائدة المرجوة من نظم الجملة فلابد ان يكون لحذفه غاية بلاغية يطلبها الحذف طلباً حثيثاً ، إذ يقول التفتازاني (ت٧٩٢هـ) في بيان أهميته : ((ان المسند إليه أقوم ركن في الجملة وأعظمه والاحتياج إليه فوق الاحتياج إلى المسند))[١] . لذلك لا يحذف المسند إليه إلا عند الحاجة القصوى إذ ان بعض الحذوفات تغير المعنى المساق لغرضه النظم ، لذلك لم يتعرض شيخ زادة إلى هذا النوع من الحذف بالتفصيل فقلته في الكلام حسبما بين التفتازاني هو الذي دعاه ، ومن المقامات الملحة التي اقتضت الحذف عند شيخ زادة :

١-مقام المبالغة :

وذلك في سياق الوصف ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴾ [القارعة: ١٠-١١] ، إذ حذف المسند إليه وهو قوله : (هي نار حامية) ، للمبالغة في الوصف ، إذ يقول شيخ زادة : ((فقوله نارٌ خبر مبتدأ محذوف أي هي نارٌ شديدة الحرارة ... وتوصيف النار بها في مقام المبالغة في بيان هولها يدل على ان سائر النيران بالنسبة إليها ليس فيها شيء من الحرارة))[٢] .

فتركيز السياق على وصف حرارة النار ، قد يكون مبرراً للحذف وكذلك في سياق توصيف القرآن بالكمال في قوله تعالى : ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢] ، إذ جعل شيخ زادة حذف المسند إليه في قوله تعالى (هدى للمتقين) من النكات التي استوجبها مقام المبالغة إذ يقول في الآية : ((فيها خمس نكات الأولى حذف المبتدأ والتقدير هو هدى ، والثاني وصف المسند إليه بالمصدر وهو هدى للمبالغة ، على طريق رجل عدل والثالث إبراز المصدر المذكور منكراً إشارة إلى انه هدى لا يكتنه كنههُ والرابع تخصيص الهدى بالمتقين بإدخال اللام الدالة على

---

(١) المطول : ٣٠١ .

(٢) الحاشية : ٦٨٩/٤ .

الاختصاص على لفظ المتقين))[1] . فضلاً عما ذكره شيخ زادة فان الحذف أضفى على نسق الجمل إنسيابية وانسجاماً عاليين فسرد هذه الجمل بلا فواصل وزوائد كلامية يرفع من بلاغة النص وجماليته إلى القمة في الانتظام .

في مقام التعجب :

إذ يكون السياق معبراً عن حالة تعتري الإنسان تجعله يخفي ما لا داعي لذكره ويُظهر ما يستوجبه المقام منه من الإنبهار والروعة ، وذلك كقوله تعالى حكاية عن زوج إبراهيم (عليه السلام) : ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩] ، إذ لم يذكر المسند إليه في قوله (عجوز عقيم) أي أنا عجوز عقيم ، مراعاة لمقام التعجيب الذي قد يميل فيه الإنسان إلى الإيجاز وإظهار المكنونات بلفظ يسير فلا محل للإطالة وهذا ما لمحناه في سياق الآية التي يقول شيخ زادة في دلالتها : ((وكانت سارّة عقيماً لم تلد قط في صغرها وعنفوان شبابها ، ثم كبر سنها وبلغت سن اليأس استبعدت ذلك وتعجبت فقالت (عجوز عقيم) ، أي أنا عجوز ومع ذلك كنت في الشباب عقيماً))[2] . فأوجزت في كلامها بحذف المسند إليه .

٢-حذف المسند وأغراضه البلاغية :

يعد المسند من أركان الجملة ولابد ان يكون لحذفه غرض يلتمسه المتذوق للبلاغة وقد اختلف البلاغيون في تحديد أغراض حذف المسند كلاً حسب ما يقتضيه مقام حديثه فقد خُصص جانباً منه للشعر ، وخصصوا الجانب الآخر للقرآن[3] ، فيما كان مقام الحديث عند شيخ زادة – كونه مفسراً – الجانب القرآني ، فأشار إلى أغراض ذلك الحذف والتي منها :

(١) الحاشية : ٨١/١ .

(٢) الحاشية : ٣٩٥/٤ .

(٣) ينظر : مفتاح العلوم : ٣٢٩-٣٣٢ ، والإيضاح : ٩١-٩٥ ، والطراز : ٢٥٠-٢٥١.

المبالغة والاختصاص :

كحذف المسند (الفعل) من الجملة القرآنية في قوله تعالى : ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠] ، فقد بين شيخ زادة غرضين للحذف ، هما المبالغة والاختصاص إذ يقول : ((للعدول عن الظاهر إلى طريق الحذف والتفسير فائدتين الأولى المبالغة في ترتيب الجزاء على الشرط ، لان تكرار الشرط يتضمن تكرار الجزاء ، والثانية الدلالة على الاختصاص وهو التعليق وذلك ان أنتم وان كان فاعلاً لفعل مقدر إلا انه لما كان عبارة عن ضمير تملكون المتأخر والمتحد معه بالذات كان من حيث المعنى فاعلاً له قدم عليه))[١] . فحذف الفعل وقُدم فاعلهِ لبيان المبالغة في اختصاصهم في الحرص .

وأشار الزمخشري[٢] (ت٥٣٨هـ) ، والرازي[٣] (ت٦٠٦هـ) إلى غرض السياق على الاختصاص ، فيما أوجز البيضاوي[٤] (ت٦٨٥هـ) ، في دلالتين للحذف ، وهما المبالغة مع الإيجاز والدلالة على الاختصاص ، وذهب القزويني[٥] (ت٧٣٩هـ) والتفتازاني[٦] (ت٧٩٢هـ) إلى ان حذف الفعل الأول لغرض الاحتراز عن العبث لوجود المفسر ، فيما ذهب الزركشي[٧] (ت٧٩٤هـ) إلى ان الحذف للتفخيم ، إذ يرى ان الشيء إذا أضمر ثم فسر كان أفخم لتأثيره على النفس التي يحدث فيها اهتزازاً لهذا الأسلوب وفخامته لكون الفعل في تقدير المذكور مرتين فيتقوى الإسناد بذلك ، ونتبين من عرض آراء العلماء ان دلالة المبالغة والاختصاص التي أشار إليها شيخ زادة هي الأقرب للسياق عند الرازي والزمخشري والبيضاوي ولكن من غير تفصيل .

وأما ما ذهب إليه البلاغيان القزويني والتفتازاني ، في دلالة الاحتراز عن العبث

---

(١) الحاشية : ٢٤٣/٣ .
(٢) ينظر : الكشاف : ٤٣/٣ .
(٣) ينظر : التفسير الكبير : ٤١٣/٢٠ .
(٤) ينظر : تفسير البيضاوي : ٥٨٣/١ .
(٥) ينظر : الإيضاح : ٩٢ .
(٦) ينظر : المطول : ٣٠٤ .
(٧) ينظر : البرهان : ١١٩/٣ .

فكل حذف يقتضي هذا الغرض لذلك فقد تكون نظرة شيخ زادة في التفصيل أوسع مما ذكره العلماء .

الإيجاز والمبالغة :

قد يحذف المسند لهذا الغرض ، كما يرى شيخ زادة في قوله تعالى : ﴿ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١١] ، إذ حذف الفعل في قوله (فسحقاً لأصحاب السعير) مستغنياً بذكر مفعولهِ ، إذ يقول في غرض الآية : ((إن الأصل ذكر الفعل والإتيان في الضمير لكن غيّر الأسلوب فحذف الفعل إيجازاً وهو ظاهر ، وللمبالغة بأن ذكر السحق أولاً مبهماً من غير بيان من يستحقه وانه لمن هو ، ثم جاء بقوله (لأصحاب السعير) وبيان للمعنى بالدعاء ولو ذكر الفعل لفات هذا المعنى))[١] . فقد ركز السياق على ذكرهم عن الحدث زيادة في الوعيد ومبالغة فيه .

لدلالة المذكور عليه :

إذ قد يحذف المسند لدلالة المذكور في السياق ، كقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [هود: ١٧] ، إذ حذف المسند (الخبر) في الآية وبين شيخ زادة المحذوف وغرضه بقوله : ((وان كلمة (من) في قوله تعالى : (أفمن كان) شرطية أو موصولة مرفوعة المحل على انها مبتدأ والخبر محذوف اعتماداً على دلالة همزة الإنكار وفاء التعقيب عليه ... ومثل هذا الحذف في القرآن كثير منه قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۚ ﴾ [فاطر: ٨] ، أي كمن هداه الله وقوله : ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا ﴾ [الزمر: ٩] ، إلى غير ذلك ... المستفاد من نظم القرآن هو إنكار المعاقبة والمقاربة ... والتقدير أمن كان يريد الدنيا كمن كان على بينة في السعادة وحسن العاقبة والمعنى ان الفريق الثاني لا يعاقبه ولا يقاربه الفريق الأول فيما ذكر))[٢] . فللمحافظة على رشاقة النص وبلاغته حذف ما حذف بوجود ما يدل عليه في السياق،

(١) الحاشية : ٥٢١/٤ .

(٢) الحاشية : ٣٩/٣ .

وكذلك لتنشيط السامع وإثارة ذهنه وتطويره وشد المتلقي على التواصل مع النص إذ ترك له الحكم بعدم الاستواء بين من ضل ومن اهتدى .

الحذف إكتفاءً بأحد النظيرين :

تنبه العلماء إلى هذا النوع من الحذف في التعبير القرآني لبلاغته وقد سمّاه الزركشي (ت٧٩٤هـ) (الإكتفاء) وحدّه بالقول : ((هو ان يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط فيُكتفى بأحدهما عن الآخر ، ويختص بالارتباط العطفي غالباً))[١] . فيما ذكر له السيوطي (ت٩١١هـ) مصطلح (الإحتباك) وبين انه من ألطف الأنواع وأبدعها وهو ان يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ومن الثاني ما أثبت نظيره من الأول[٢] ، ولم يُسَمِ شيخ زادة هذا النوع من الحذف ، ولكنه أورد عليه شواهد من التنزيل ، كحذف المسند في قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤] إذ حذف المسند أكتفاءً بذكر الأول ، إذ يقول شيخ زادة : ((قوله تعالى : (أو إياكم) عطف على اسم إن وما ذكر بعده خبر الأول وحذف خبر الثاني للدلالة عليه أي وأنا لعلى هدى أو في ضلال أو أنكم لعلى هدى أو في ضلال))[٣] .

فذكر خبر الأول وترك خبر الثاني إكتفاءً بدلالة الأول بوجود العطف الذي ينبيء على المحذف ؛ وهو بذلك ضرب من ضروب الإيجاز .

وفضلاً عن هذا الحذف فان في التعبير حذفاً آخر هو المسند (الفعل) الذي حذف من تعبير الجواب ، واكتفى بذكر الفاعل (الله) والأصل (قل يرزقكم الله) وقد حذف لدلالة السؤال عليه . وتتوضح الدلالة أكثر في قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ ﴾ [يونس: ٦٧] ، إذ حذف من كل جملة ما ثبت في الأخرى ، ويبين شيخ زادة غرض الحذف في الآية بقوله : ((الآية في غاية الفصاحة حيث حذف من كل جملة ما ثبت في الأخرى فانه تعالى ذكر علة جعل الليل مظلماً ،

(١) البرهان : ١٣٣/٣ .
(٢) ينظر : الإتقان : ١١٩/٢ .
(٣) الحاشية : ٩٠/٤ .

وهي قوله : (لتسكنوا فيه) وحذفها من (جعل النهار مبصراً) وذكر صفة النهار وهي قوله (مبصراً) وحذفها من الليل لدلالة (مبصراً) عليه هو الذي جعل لكم الليل مظلماً لتسكنوا فيه والنهار مبصراً لتتحركوا فيه فتحصلوا أسباب معايشكم فحذف مظلماً لدلالة مبصراً عليه وحذف لتحركوا لدلالة لتسكنوا عليه))[1] . فاكتفى بذكر (لتسكنوا فيه) عن ذكر علة النهار ، فيما حذف صفة الليل (سكونهِ) اكتفاء بوجود صفة النهار (مبصراً) .

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ [الأنعام: ٩٩] ، فيبين شيخ زادة ان في هذا السياق حذفاً أكتفاءً بالمقابل ، فيقول : ((اقتصر على ذكر قنوان دانية ولم يعطف عليها ما يقابلها ، بان يقال ومنها قنوان بعيدة لأن ذكر أحد المتقابلين يدل على الآخر كما قيل : ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] ، ولم يقل سرابيلكم تقيكم البرد لأن ذكر أحد الضدين يدل على الثاني فكذا ههنا وأيضاً ذكر القريبة وترك البعيدة لأن النعمة في القريبة أكمل وأكثر))[2] .

٣-حذف المتعلقات وأغراضه البلاغية :

من المتعلقات التي اهتم شيخ زادة ببيان بلاغة حذفها المفعولات سواء كان مفعولاً به أو مطلقاً أو غيره ، إذ يكون المفعول به ذا فاعلية في الجملة الإسنادية عندما يقترن ذكره أو حذفه بغرض بلاغي تتظافر قرائن السياق لإظهاره لذلك اهتم البلاغيون بالكشف عن أنماط حذف المفعول والأسرار البلاغية الكامنة وراء كل حذف منها ، فذهب الجرجاني (ت٤٧١هـ) ، إلى ان حذف المفعول يكون على وجهين الأول ينزل الفعل المتعدي منزلة اللازم وذلك في كل موضع كان القصد فيه ان يثبت المعنى في نفسه فعلاً للشيء وان يخبر بأن من شأنه ان لا يكون إلا منه ، فأن الفعل لا يُعدى هناك لأن تعديته تنقص الغرض وتغير المعنى فهذا القسم من الأفعال تحذف مفعولاته ولا يمكن النص عليها والثاني يكون للفعل مفعولاً مقصوداً وقصده معلوم إلا انه يحذف

(١) الحاشية : ١٥٥/٢ .

(٢) الحاشية : ١٩٣/٢ .

لدلالة الحال عليه، ويقسم إلى مفعول جلي وخفي[١]، فيما بيّن بعده السكاكي(ت٦٢٦هـ) بلاغة حذف المفعول في الكلام إذ يقول: ((الحالة المقتضية لترك مفعوله فهو القصد إلى التعميم والإمتناع على ان يقصرُ على ما يذكر معه دون غيره مع الاختصار وانه أحد أنواع سحر الكلام حيث يتوصل بتقليل اللفظ إلى تكثير المعنى))[٢] . فالغرض الأصلي للحذف عند السكاكي وكما أشار التعميم ، لأن ذكر لفظ المفعول قد يكون قاصراً عن تأدية المعنى المراد وهذا هو مذهب شيخ زادة أيضاً في تعليل أغلب الحذوفات في المفعول .

ولم يُزد كبار البلاغيين كالرازي[٣] (ت٦٠٦هـ)، وابن الأثير[٤] (ت٦٣٧هـ)، والقزويني[٥] (ت٧٣٩هـ) والعلوي[٦] (ت٧٤٩هـ)، على هذين العلمين شيئاً ، فذهبوا إلى تقسيم أنماطه إلى قسمين مع توضيح الدلالتين ، وغرضنا من عرض جهد هؤلاء العلماء هو بيان شخصية شيخ زادة البلاغية بمن تأثر ، وعلى من زاد في بيانه ، ولعله أضاف إلى ما ذهبوا إليه مع التأكيد على أسسهم النظرية ، فمن الأغراض الداعية إلى حذف المفعول عند شيخ زادة:

القصد إلى بيان الفعل والتركيز عليه :

إذ يهيء سياق الجملة قرائن تناسي المفعول والتركيز على الحدث ، وقد تنبه الزركشي (ت٧٩٤هـ) لذلك بالقول : ((ينزل الفعل منزلة القاصر ، وذلك عند إرادة وقوع نفس الفعل فقط وجعل المحذوف نسياً منسياً))[٧] .

ومثّل شيخ زادة لهذه الدلالة بقوله تعالى : ﴿**يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا** ﴾[الزلزلة:٤]، إذ حذف مفعول التحديث الأول وهو الخلق للتركيز على الحدث فيوضح شيخ زادة ذلك بالقول : ((ان المفعول الأول لتُحدث محذوف ، وهو الخلق وأخبارها مفعولها الثاني

(١) ينظر : دلائل الإعجاز : ١٧٧-١٧٨ .
(٢) مفتاح العلوم : ٣٣٤ .
(٣) ينظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : ١٧١-١٧٣ .
(٤) ينظر : المثل السائر : ٧٧/٢ .
(٥) ينظر : الإيضاح : ١٠٩-١١٠ .
(٦) ينظر : الطراز : ٢٥٢ .
(٧) البرهان : ٢٠٦/٣ .

حذف أولهما ، لأن المقصود ذكر تحديثها الأخبار لا ذكر الخلق بناء على ان السورة نازلة لبيان هول يوم القيامة فنزل قوله تعالى (تحدث) في حق تعلقه بمفعوله الأول ، منزلة اللازم ، ولم يقصد إتيان تعلقه بمفعوله الثاني فانه لا مدخل لذكر الخلق في بيان هوله وإنما يستحق التهويل بذكر ما تُحَدِث به إلا ان الأرض لكونها جماداً لا يمكن لها ان تُحَدِث بلسان المقال وإنما تحدث بلسان الحال فان الأرض لما بطلت حالتها الأولى واضمحل جميع ما عليها بسبب الزلزلة دل ذلك على ان الدنيا قد انقضت مدتها وان الآخرة قد أقبلت بما فيها من البعث والحساب والجزاء فلذلك وقعت هذه الزلزلة والإخراج وهذه الدلالة قد أُقيمت مقام التحديث فعبر به عنها))[1]. فبين شيخ زادة ان وظيفة الفعل (تُحدِث) الدلالية والتصويرية للحدث الكبر وهو يوم القيامة قد أغنت السياق عن ذكر المفعول ، وان التركيز على إظهار أبعاده النفسية والكونية على الإنسان هو الأهم لا ذكر المفعول به لذلك الحدث مما جعل حذفه ذا دلالة على ان المذكور أهم والتركيز عليه أعني للمتكلم من غيره في السياق .

وذلك الغرض قد يكون في المفعول المطلق ، إذ يحذف لتتركز الدلالة على شدة الفعل ونوعه وبيان مدى تعلق الفعل بالمتلبس به ، كماً ونوعاً ، ذلك كقوله تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠] ، إذ يعلل حذف المفعول المطلق بالقول : ((للدلالة على ان الفعل الصادر من الفاعل قوي شديد بالغ أقصى درجات الكمال ، وقد يكون القصد للدلالة على كثرة الفعل وزيادته بحسب الكمية والعدد ، فمعنى يكذبون على الأول يكذبون كذباً عظيماً ، وعلى الثاني يكذبون كذباً كثيراً من جهة الفاعلين))[2] . فوفر حذف مفعول (يكذبون) دلالتين للسياق دلالة الكثرة ودلالة الشدة .

(١) الحاشية : ٦٨٦/٤ .

(٢) الحاشية : ١٣٧/١ .

التعميم :

وهذا الغرض من الحذف في المفعول بينه السكاكي وأوضح بلاغته ودقة مجيئه ووصف تأثيره في السياق ، كالسحر ولكنه لم يدلل عليه بشواهدٍ من التنزيل[١] . ولعل شيخ زادة ركز على تلك الدلالة لبلاغتها ، فأوردها في مواضع من حاشيته كقوله تعالى :﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥] ، فلم يذكر متعلق العبادة والاستعانة وبين شيخ زادة غرض عدم الذكر ، بالقول : ((حذف أما لقصد التعميم أي لا يقدر كل ما يصح ان يكون مفعولاً لذلك الفعل من المهمات المتناولة لأداء العبادات وغيرها بناء على ان تقدير بعض المهمات دون بعض ترجيح بلا مرجح مع ان المقام ، مقام إظهار العجز والاحتياج التام إلى المعونة في جميع المهمات فالعموم مستفاد من الحذف بمعونة المقام ويدخل منه أداء العبادات دخولاً أولياً))[٢]. وقد يكون التعميم أفقاً واسعاً للذهن ينطلق فيه ليذهب كل مذهب، يصدق عليه الفعل، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٥-٦] فحذف متعلق الأفعال المذكورة للتعميم ، إذ يقول شيخ زادة : ((ان عدم ذكر متعلقات هذه الأفعال للتعميم ليذهب ذهن السامع كل مذهب مما يصح تعلق الفعل به فمتعلق الإعطاء جميع ما يتقرب بفعله وإتيانه من العبادات القلبية والبدنية والمالية))[٣] .

وقد يدل الحذف على التعميم والشمول كقوله تعالى : ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] ، إذ يذهب شيخ زادة إلى غرض التعميم في تعليل حذف المفعول (أنعمت) فيقول : ((حذف المفعول (أنعمت عليهم) لقصد التعميم والشمول لأن نعمة الإسلام لاشتمالها على سعادة النشأتين هي النعمة كل النعمة فمن فاز بها فقد فاز بالنعم كلها))[٤] . وقد يكون عدم ذكر المفعول للتعميم صورة من صور الإيجاز والمحافظة على القوام المتناسق للجملة القرآنية ، وذلك كحذف المفعول في قوله تعالى

(١) ينظر : مفتاح العلوم : ٣٣٤ .
(٢) الحاشية : ١/٤٢-٤٣ .
(٣) الحاشية : ٤/٦٦٧ .
(٤) الحاشية : ١/٤٨-٤٩ .

: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧] فبين شيخ زادة غرض حذف المفعول بقوله : ((جاز ان يكون المفعول مقدوراً منوياً ويكون عدم ذكره للتعميم مع الإيجاز ، كما في قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] أي يدعو كل واحد ويكون تقدير هذه الآية انهم لا يبصرون شيئاً))[١] .

للاختصار بوجود قرينة دالة على المحذوف :

والاختصار سمة من سمات الحذف إذ يعمل على الإيجاز والمحافظة على النص من الترهل الذي يصيب بعض السياقات ، ودلل شيخ زادة على هذا الغرض في آيات متعددة ، كالحذف في قوله تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] ، فيُلحظ ان متعلق (تعلمون) قد حذف اختصاراً ، لدلالة القرينة عليه ، وهي سوق الكلام لنهيهم عن إثبات الأنداد له تعالى ، والتقدير وانتم تعلمون ان الأنداد التي تزعمونها لا تماثله تعالى لا في ذاته ولا في شيء من صفات كماله ولا تقدر على مثل ما يفعله الله عز وجل فضلاً عن انه تقدر على منازعته بأن تدفع عنهم يأس الله تعالى الذي أراد ان يصيبهم به أو تمنحهم ما لم يُرِد الله تعالى ان يصيبهم به من خير[٢] .

وقد يكون الحذف للاختصار مع التعميم ، كقوله تعالى : ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧] ، إذ يقول شيخ زادة : ((يعتبر تعلقه بهذا المفعول العام المتناول لكل مصبور عليه وكل مصبور لكنه ترك ذكره اعتماداً على القرينة لقصد التعميم مع الاختصار والتروك فأصبر عليها لأجل أمر ربك))[٣] ، وغيره كثير[٤] يحذف لوجود ما يدل عليه مع إعطاء دلالات سياقية للمقام الواردة فيه .

---

(١) الحاشية : ١٥٩/١ .

(٢) ينظر : الحاشية : ١٨٩/١-١٩٠ .

(٣) الحاشية : ٥٧٠/٤ .

(٤) ينظر : الحاشية : ٢٣/٣ ، ٣٢١/٣ ، ١٢٤/٤ .

للمبالغة :

فقد يدل السياق على المبالغة في التأدب ، وذلك بحذف المفعول كقوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ، إذ يقول شيخ زادة : ((ان ثاني مفعول (أرني) محذوف ، حذف مبالغة في الأدب حيث لم يواجه بالتصريح إلا انه تعالى لما كلمه وقربه نجيا عظم شوقه إلى مشاهدته))[١] . فلم يحدد مفعولاً للرؤية فلم يقل أرني ذاتك أو نفسك إجلالاً له تعالى وإكراماً فأن موسى (عليه الصلاة والسلام) يعلم جيداً انه تعالى (ليس كمثله شيء) فطلب الرؤية ولم يحدد في ذاته تعالى مبالغة في التأدب وكمال العلم به تعالى .

(١) الحاشية : ٢/٢٦٦-٢٦٧ .

الفصل الخامس : الفصل والوصل في حاشية شيخ زادة :

توطئة :

الفصل لغةً : ما يكون حداً بين شيئين ، والفصل من الجسد موضع المِفْصَّل وبين كل فصل وصل ، والفصل أيضاً القضاء بين الحق والباطل فيسمى الحكم بينهما فَصْلاً[١] ، والوصل لغةً : فهو الاتصال إذ يقال لكل شيء اتصل بشيء آخر فيما بينهما وصلة[٢] ، ويقال أتصل الشيء بالشيء أي لم ينقطع[٣] ، فالوصل لغة إذاً هو الاتصال وعدم الانقطاع .

اما في الاصطلاح : فالفصلُ ترك العطف بين المفردات والجمل والوصلُ عطف بعضها على بعض بالواو أو بغيرها من حروف العطف[٤] ، وتمييز مواضع الفصل والوصل من مقتضيات البلاغة ، لذا وقف البلاغيون وقفة طويلة لبيان موقع هذا الموضوع من البلاغة إذ جعلوا حدّ البلاغة معرفته[٥] ، وبيّن الجرجاني[٦] (ت٤٧١هـ) ان ذلك لا يتأتى إلا للعرب الخُلص الذين طبُعوا على البلاغة ، لأن النظر في الكلام البليغ بعد انتظامه في سياقات كما تنتظم لآليء العقود يحتاج إلى دقة وذوق سليم ، وإذا كان الكلام العربي قد بلغ هذا المبلغ من الدقة ، فان القرآن الكريم قد تجاوز ذلك بكثير فقد تميزت تراكيبه بالالتحام والترابط المعنوي فضلاً عن الترابط اللفظي بحروف الوصل ، فيحتاج المتأمل فيه إلى حس بلاغي وذوقي لمعرفة دقة النص واستعمالاته لحروف العطف ، أو تركه لها ، وإذا كان ترابط الألفاظ بحروف العطف له جمالية ودلالة ، فان الفصل في القرآن لا يعني تفكيك النظم ، وانتفاء المناسبة بين الجمل[٧] ، ولكنه فصل له دلالاته البلاغية أيضاً .

---

(١) ينظر : العين (فصل) : ١٢٦/٧ ، (وصل) ١٥٢/٧.

(٢) ينظر : الصحاح في اللغة : ١٨٤٢/٣ (وصل).

(٣) ينظر : لسان العرب (وصل) : ٣١٨/١٥ .

(٤) ينظر : الإيضاح : ١٤٥ ، والتلخيص في وجوه البلاغة : ١٤٥ ، والطراز : ٥٤١ .

(٥) ينظر : البيان والتبيين : ٨٨/١ ، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : ٣٢١ ، والإيضاح : ١٤٥ ، وعروس الأفراح : ٤٧٩/١ .

(٦) ينظر : دلائل الإعجاز : ٢٢٢ .

(٧) ينظر : اللغة في الدرس البلاغي ، د. عدنان عبد الكريم : ١٩٧ .

وقد اهتم العلماء بدراسة مواضع الفصل والوصل في الجملة، فقيد البلاغيون بلاغة الوصل بعطفه بالواو ، لأنها تخفي معناها ولا يظهره إلا السياق ، لذا قسم السكاكي[١] (ت٦٢٦هـ) العطف إلى قريب وبعيد بحسب نوع حرف العطف في سياق الجمل ، فتوسط الواو بينها يدلل على معنى بعيد فيما يقرب المعنى إذا كان بغيرها ، وعلل السبكي[٢] (ت٧٧٣هـ) ذلك ذاهباً إلى ان حروف العطف كالفاء وثم تدل على التعقيب والتراخي ، فيتحدد معنى العطف بدلالتها على التعقيب ، الذي يمتاز بواقع زمني وحدثي ظاهر وموجود فيما يدل العطف بالواو على التشريك الذي له واقع ذهني فقط[٣] ، لذلك يحتاج العطف بها إلى إمعان نظر في دلالته . ومن هنا جعلوا البلاغة كلها معرفة الفصل والوصل ، وقد اهتم شيخ زادة بالتنبيه على مواضع الفصل والوصل مبيناً دلالته في مواضع من حاشيته من خلال تأملاته في علاقة الجمل مع بعضها وفق مراعاةٍ للسياق العام للنص القرآني .

المحور الأول : مواضع الفصل والوصل عند شيخ زادة :

١-مواضع الفصل :

اهتم شيخ زادة بالكشف عن مواضع الفصل في الجمل القرآنية مبيناً سرّ ارتباط هذه الجمل مع بعضها بدون حرف رابط وعلاقة كل واحدة منها مع قبلها وما بعدها ، لتأدية أغراض بلاغية يمكن ان تؤديها الجمل مجتمعة ومن مواضع الفصل الواجبة التي ذكرها شيخ زادة :

كمال الاتصال :

اذ كان بين الجملتين المنفصلتين اتحاد معنوي تام ، فيكون هذا الاتحاد في ثلاثة مواضع عند شيخ زادة :

أ-إذا كانت الجملة الثانية مؤكدة للأولى ومقررة لها :

كقوله تعالى : ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا

(١) ينظر : مفتاح العلوم : ٣٥٧ .

(٢) ينظر : عروس الأفراح : ٤٨١/١ .

(٣) ينظر : أسرار الوصل والفصل ، د. صبّاح دراز : ٣٦ .

رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤-٥] ، إذ بيّن شيخ زادة سرّ تلاحق هذه الجمل من غير فاصل بقوله : ((انها جمل متناسقة أي منتظمة متماثلة يرتبط بعضها ببعض من غير ان يتخلل بينهما حرف نسق ... وجه تناسقها وارتباطها بوجهين الأول ... تقرر اللاحقة منها السابقة أي تؤكدها فيكون بينها كمال الاتصال فيتمتع تخلل العاطف بينها ، والثاني ... تستتبع كل واحدة منها ما يليها استتباع الدليل للمدلول))[1] . أي ان جملة (لا ريب فيه) كانت مؤكدة لجملة (ذلك الكتاب) ، وجملة (هدى للمتقين) مؤكدة لجملة (لا ريب فيه) فالتوكيد بين الجمل كان مانعاً من الوصل ، ومثل له أيضاً بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ، إذ فصلت جملة (أولئك هم الغافلون) عما قبلها ، وبيّن شيخ زادة دلالة ذلك الفصل بالقول : ((فأنهما وان اختلفتا بحسب اللفظ والمفهوم لكنهما قد اتحدا بحسب المقصود والمآل ، فكانت الثانية مقررة للأولى مؤكدة لها ، إذ لا معنى للتشبيه بالأنعام إلا المبالغة في الغفلة ، فلم يفد قوله تعالى (أولئك هم الغافلون) إلا ما أفاد قوله (أولئك كالأنعام) فلم يكن للعطف وجه لتحقق كمال الاتصال بينها))[2] . فالتناسب المعنوي التام بين الجملتين منع تخلل حرف العطف بينهما لأن الشيء لا يمكن ان يعطف على نفسه .

ب-إذا كانت الجملة الثانية بدلاً من الأولى :

وذلك كقوله تعالى : ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤] ، إذ بيّن شيخ زادة ان جملة (إنما نحن مستهزئون) قد فُصلت عما قبلها ، لكونها بدلاً في إحدى احتمالاته ، إذ يقول : ((أن قوله تعالى(إنما نحن مستهزئون) لم يعطف على ما قبله ، لكمال الاتصال بينهما ، اما بكون الثاني تأكيداً للأول أو بدلاً منه أو استئنافاً ، وعلى تقدير كونه بدلاً من الجملة الأولى لا يحتاج إلى اعتبار التلازم بين مضموني الجملتين بل يكفي التصادق بين

(١) الحاشية : ٨٠/١ .

(٢) الحاشية : ١٠٤/١ .

المستهزيء بالحق والثابت على الباطل))[1] .

ج-إذا كانت الجملة الثانية بياناً للأولى :

وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴾ [غافر: ٣٨-٣٩] ، إذ بيّن شيخ زادة علة فصل جمل النداء بقوله : ((ولكون الكلام الذي دخل عليه النداء الثاني بياناً لما قبله لم يعطف النداء الثاني على النداء الأول ، لان النداء حكمه حكم ما دخل عليه من الكلام))[2] . إذ فصلت جملة (يا قوم إنما هذه الحياة) عما قبلها من الجمل في قوله (يا قوم اتبعون) لكونها بياناً لها ، فالاتصال المعنوي كافاً بالنسبة إلى الاتصال اللفظي بالحروف . وقد سار شيخ زادة مع البلاغيين في هذه المواقع من الفصل الوجوبي .

شبه كمال الاتصال :

ومن مواضع الفصل لشبه كمال الاتصال عند أغلب البلاغيين هو (الاستئناف)[3] ، وهو ان تكون الجملة الثانية جواباً عن سؤال مقدر، يُفهم من سياق الجملة الأولى فتفصل الجملة الثانية عن الأولى ، كما يفصل الجواب عن السؤال ، لما بينهما من الاتصال، ويسمى فصل الجملة الثانية عن الأولى استئنافاً والجملة الثانية تسمى مستأنفة[4]، وذهب شيخ زادة مع البلاغيين، في كون الجملة المستأنفة وهي المفصولة عما قبلها مرتبطة مع ما قبلها في المعنى، لذلك تفصل، ومنه قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ١-٣] ، فقد أُستئنفت الجمل بعد قوله : (هدى للمتقين) ، للإجابة عما أثارتهُ هذه الجملة من تساؤلات ، هذا ما وضحه شيخ زادة بقوله : ((ان الاستئناف مبني على تقدير سؤال، فكأنه قيل ما بال المتقين مخصوصين بأن الكتاب هدى لهم ، فأُجيب بأن الموصوفين

---

(١) الحاشية : ١٤٦/١ .

(٢) الحاشية : ٢٣٥/٤-٢٣٦ .

(٣) ينظر : مفتاح العلوم : ٣٦٧ وما بعدها ، والإيضاح : ١٥١ ، وعروس الأفراح : ٥٠٩/١ ، ومواهب الفتاح : ٥٥٨/١ .

(٤) ينظر : المعاني في ضوء أساليب القرآن : ٣٣٣-٣٣٤ .

بهذه الثلاثة على هدى فيكون جواباً له بذكر اتصاله بما قبله، ويكون تابعاً له في المعنى وجارياً عليه ثابتاً له ، فلذلك ترى علماء المعاني يعدّون اتصال الكلام المستأنف بما قبله من قبيل كمال الاتصال المانع من العطف))[1]. ذاهباً بذلك مع أغلب البلاغيين الذين جعلوا اتصال الجواب بالسؤال المقدر اتصالاً تاماً كاملاً من حيث المعنى .

وتنبه البلاغيون كالسكاكي[2]، ان لهذا النوع من الفصل بلاغة إذ ينبه السمع لموقع السؤال وأهميته، أو يغني السامع ان يسأل، فيؤتى بالجملة المستأنفة جواباً لذلك السؤال. وحاكى شيخ زادة البلاغيين في بيانه لثلاثة أحكام للاستئناف تفصل فيها الجملة الواقعة جواباً على سؤال مقدر وتسمى بالجملة المستأنفة وهذه الأحكام هي:

أولها : ان يكون الجواب بياناً لسبب حكم مطلق :

وأورد شيخ زادة هذا الحكم في قوله تعالى : ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤-٥] ، ففصلت جملة (أولئك على هدى) عما قبلها ، لكونها استئنافاً، إذ هي بمثابة الجواب عن سؤال أثارته الجمل المتقدمة عليها، فعللت الجملة المستأنفة هداية المتصفين بالأوصاف المذكورة في الجمل المتقدمة، وفي هذا الاستئناف – كما يرى شيخ زادة – تنبيه ، إذ يقول: ((ان الاستئناف ثلاث أنواع، الأول ان يكون السؤال عن سبب الحكم مطلقاً ... ان جملة (أولئك على هدى) من قبيل النوع الأول من أنواع الاستئناف ، كأنه قيل ما سبب اختصاص الموصوفين بها ، بكون الكتاب هدى للمتقين ، فأجيب بأن الاتصاف بهذه الأوصاف كافٍ لذلك الاختصاص ففي هذا الجواب تنبيه على غفلة السائل عن فضيلة تلك الصفات))[3] . فنزل سؤالهم ، منزلة السؤال عن الحكم المطلق والعام، لغفلتهم عن تلك الأوصاف الظاهرة والباطنة التي تميزهم بالهدى ، فاحتوى الجواب الذي هو الجملة المفصولة

(١) الحاشية : ١/٨١-٨٢ .

(٢) ينظر : مفتاح العلوم : ٣٦٠-٣٦١ .

(٣) الحاشية : ١/١٠٢ .

على بيان ذلك الحكم المطلق .

ومن الاستئناف لأجل الإجابة عن سبب المطلق للحكم قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦-٧] ، إذ فصلت جملة (ختم الله على قلوبهم ...) عما قبلها ، ويبين شيخ زادة سرّ ذلك الفصل بقوله : (انه استئناف لبيان سبب الحكم السابق وهو الحكم بعدم كون الإنذار نافعاً لهم حيث لا يؤمنون على كل واحد من التقديرين فان الحكم باستواء وجود الشيء وعدمه ومعناه الحكم بعدم كون ذلك الشيء نافعاً ثم بين معنى عدم نفع الإنذار لهم بقوله : (لا يؤمنون) فتوجه للسائل ان يسأل ويقول ما السبب في عدم نفع الإنذار لهم ، وفي أنهم لا يؤمنون فَنُزِل هذا السؤال المتوهم منزلة المتحقق ، فأجيب بان الله عزّ وجل (ختم على قلوبهم) فهو جواب عن السؤال عن سبب الحكم مطلقاً ... فلذلك لم يتخلل العاطف بين هذه الجملة وما قبلها لأن كمال الاتصال بين الجملتين مانع من العطف وقد بين بهذه الجملة سبب الحكم السابق ومقتضيه))[1] .

وثانيهما : ان يكون الجواب بياناً للسبب الخاص للحكم :

وذلك عندما تثير الجملة الأولى سؤالاً عن خصوصية الحكم المذكور في السياق فتجيب الجملة التي بعدها عن سبب ذلك الحكم وذلك كقوله تعالى حكاية عن يوسف (عليه الصلاة والسلام) وقيل على لسان زليخة : ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣] ، فذهب شيخ زادة إلى ان جملة (ما أُبريء نفسي) أثارت سؤالاً بأن قيل هل النفس أمارة بالسوء ، فقيل في جوابها نعم انها أمارة بالسوء وأكد الجواب للدلالة عن السبب الخاص[2] ، ففصلت الجملتان لكونهما بمنزلة السؤال والجواب .

وثالثهما : إذا كان الجواب عن غير هذين السببين :

كقوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

(١) الحاشية : ١١٧/١ .

(٢) ينظر : الحاشية : ١٠١/١ ، و ٢٠٩/١ .

﴿ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥] ، إذ أثار الرزق الذي رزقوه سؤالاً عن نوعه وجنسه فاستُئنِفَ الكلام لبيانه، إذ يقول شيخ زادة: ((يسأل السامع ويقول أيشبه ثمار تلك الجنان بثمار الدنيا أم لا فأزيح أي أزيل هذا الاشتباه ببيان ان ما رزقوه وأطعموه في الجنة يشبه ما رزقوه في الدنيا من حيث إنهما متحدان في الماهية، وان اختلفا بحسب الأوصاف والعوارض بحيث لا يعلم تفاوت ما بينهما إلا الله تعالى، وهذا من الاستئناف الذي يكون السؤال فيه عن غير السبب المطلق والسبب الخاص للحكم السابق))[١]. ففصلت الجمل (كلما رزقوا منها من ثمر رزقا ...) عما قبلها للاتصال المعنوي بينهم، إذ أوضحت ما أثاره النص المتقدم عليها .

وذهب الزمخشري[٢] (ت٥٣٨هـ) إلى ان سياق الآية في (أن لهم جنات) قد أثار خلد السامع ان يقع سؤال عن نوع تلك الثمار .

وقد أضاف شيخ زادة إلى ما جاء به البلاغيون أغراضاً ودلالات للفصل في موضع الاستئناف لم يتطرق إليها بلاغيون كبار[٣] ، وتنبه شيخ زادة إلى ما يضفيه هذا الفصل من ثراء دلالي لا يقتصر على ما ذكره البلاغيون من موجبات الفصل لأجل الاستئناف وإنما أوجبها السياق الذي يرد الفصل فيه ، ومن تلك الأغراض التي تطرق إليها شيخ زادة في بحثه :

أ-الاستئناف للتعليل :

إذ تعلل الجملة المستأنفة الحكم السابق في الجملة الأولى ، كقوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[البقرة: ١١٨] ، فعللت الجملة المستأنفة (تشابهت قلوبهم) تماثل هؤلاء في المقولة ، لذلك فصلت عما قبلها ، ولم

(١) الحاشية : ٢٠٩/١ .

(٢) ينظر : الكشاف : ٩٩/١ .

(٣) ينظر : دلائل الإعجاز : ٢٤٢ وما بعدها ، ومفتاح العلوم : ٣٧٠ وما بعدها ، والإيضاح : ١٥١ وما بعدها ، والمطول : ٤٤٨ وما بعدها ، وعروس الأفراح : ٥١٠/١ .

تعطف ، وبيّن شيخ زادة دلالة هذا الاستئناف بقوله : ((تشابهت قلوبهم) استئناف على وجه تعليل تشابه مقالتهم ، بمقالة من قبلهم ، فان الألسنة ترجمان القلوب ، والقلب متى استحكم فيه الكفر والقسوة والعمى والسفه والعناد لا يجري على اللسان إلا ما ينبي عن التعلل والتباعد عن الإيمان))[١] .

وقد يُعلل النص القرآني الردع فيأتي بصورة الاستئناف كقوله تعالى : ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدًا ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١٦] ، فيبين شيخ زادة سرّ فصل قوله (انه كان لآياتنا عنيدا) بقوله: ((ان قوله (كلا) ردع وقوله (انه كان لآياتنا عنيدا) تعليل للردع على سبيل الاستئناف كأنه قيل ولِم حرم مما طمع فيه وانعكس حاله فأجيب بأن شأنه أن يعاند آيات الله فكيف يبق ما أنعم به عليه فضلاً عن ان يزيد عليه))[٢] .

ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ [النحل: ٩١] ففصلت جملة (يعظكم لعلكم تذكرون) عما قبلها على الرغم من كون ما قبلها من الجمل معطوفة بالواو على بعضها البعض ، وبيّن شيخ زادة سرّ هذا الفصل بقوله : ((قوله تعالى (يعظكم) الظاهر انه مستأنف في قوة التعليل للآمر بما تقدم أي ان الوعظ سبب لما تقدم من الأمر والنهي المذكورين))[٣] . ففصلت جملة (يعظكم) عما قبلها ، لأن معناها مرتبط بمعنى الجمل المتقدمة فكان الاتصال مانعاً.

ب-الاستئناف للاهتمام بالحكم :

إذ تفصل الجملة عن الأخرى لتعامل معاملة الحكم المستقل عنها لأهميتها ، وذلك كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت: ٣٤] ، فيرى البيضاوي[٤] (ت٦٨٥هـ) ، ان قوله تعالى

(١) الحاشية : ٤٠٢/١ .
(٢) الحاشية : ٥٧٢/٤ .
(٣) الحاشية : ١٩٦/٣ .
(٤) ينظر : تفسير البيضاوي : ٣٥٤/٢ .

: (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة) قد أثار سؤالاً مفادهُ : كيف أصنع إذا كانتا لا تستويان ، فاستئنف حكماً لأجل الإجابة بقوله : (أدفع بالتي هي أحسن) ، لذلك فصلت عما قبلها لكونه كإجابة عن سوأ لها ، وبين شيخ زادة غرض هذا الاستئناف بقوله : ((ان الظاهر ان يقال (فادفع) بالفاء ، الدالة على السببية لأن نفي الاستواء بينها سبب للدفع بالأحسن ، وتقرير الجواب ان صورة الاستئناف أبلغ في الحث على دفع السيئة بالحسنة والحمل عليها لأن إخراج الكلام على صورة الاستئناف إنما يكون في مقام الاهتمام بالحكم))[1] . فكان الاهتمام ببيان حكم الجملة الأولى مانعاً من الوصل ، إذ استئنف لبيانه جملة جديدة .

ج-الاستئناف للتهويل :

كقوله تعالى : ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣] ففصلت جملة (سوف يعلمون) عما قبلها في هذه الآية ، للتهويل في الإجابة عن تساؤلهم ، فيما جيء بها متصلة في سياق مشابه لهذه الآية في [سورة الزمر آية ٣٩-٤٠] ، وبين شيخ زادة دقة التعبير في كليهما ، بالقول : ((حذف الفاء لاستلزام ان يكون الكلام استئنافاً جواباً لما يقال فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وأنت على مكانتك ، أبلغ في باب التهويل من ربط الكلام بما قبله بالفاء السببية المؤذنة يكون ما قبلها سبباً لما بعدها ، فان سلوك طريقة الاستئناف ان يكون المخاطب طالب* لمعرفته بحالهم فيكون الجواب بالتهويل أوقع في ذهنه بخلاف ما لو ربط الكلام بلفظة الفاء))[2] . فأدى الفصل دلالة بلاغية يقصر عن تأديتها الوصل في هذا الموضع .

د-الاستئناف للتأكيد :

كقوله تعالى : ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه:٦٧-

---

(١) الحاشية : ٢٦٢/٤ .

* الأصوب طالباً .

(٢) الحاشية : ٦٢/٣ .

٦٨] ، ففصلت جملة (إنك أنت الأعلى) عما قبلها ، أما دلالة ذلك الفصل فبينه شيخ زادة بقوله : ((كأنه قيل له لا تخف ، سأل كيف لا أخاف والحال يقتضي استشعار الخوف ، فأجيب إنك أنت الأعلى ، ووجه دلالة الاستئناف على التأكيد انه يدل على الاهتمام بشأن المستأنف منه ، ووجه دلالة تعريف الخبر عليه ، ان اللام لتعريف الجنس وقد دخلت على الخبر لإفادة إن حقيقة العلو والغلبة مختصة بك لا تتعدى إلى غيرك))[١] . فاستئنف الحكم لتأكيد رعايته تعالى لموسى (عليه الصلاة والسلام) .

هـ-الاستئناف للاستعظام :

وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة: ١٤-١٥] وبين شيخ زادة غرض الاستئناف بالقول : ((ان قوله تعالى (يستهزي بهم) لم يعطف على ما قبله بل أورد على انه كلام ابتدائي مستأنف ... وأعلم ان ههنا امرين الأول انه ترك العطف ، والثاني إخراجه على صورة مخصوصة وهي كونه مصدراً باسم الله تعالى لا بذكر المؤمنين مع انهم هم الذين يُستهزئ بهم ... ونكتة الأمر الأول انه تعالى لما حكى عنهم قولهم : إنما نحن مستهزئون ، وكان الاستهزاء بإظهار الإيمان في غاية الشناعة والقباحة استعظمه كل من سمعه وتوجه له ان يسأل ويقال : سبحان الله هؤلاء الذين هذا شأنهم ما مصير أمرهم وعقبى حالهم ، وكيف معاملة الله تعالى بهم فأجيب عن السؤال المتوهم ببيان ان عاقبة استهزائهم ما هي ... نكتة الأمر الثاني ... تعظيم لشأن المؤمنين))[٢] . فاستئنف بجملة (يستهزئ بهم) لبيان حكم الجملة الأولى وتعظيمه .

وهذه الدلالات والأغراض التي فصّل شيخ زادة فيها ، مما ميزته عن معظم البلاغيين الذين اكتفوا ببيان أحكام الاستئناف الثلاثة ، من غير بيان لأغراض الاستئناف والتي يوجبها السياق .

الفصل (لكمال الانقطاع) :

---

(١) الحاشية : ٣/٣٢٤ .

(٢) الحاشية : ١/١٤٧-١٤٨ .

ذهب شيخ زادة مع البلاغيين في كون الفصل وجوباً (لكمال الانقطاع) يكون في موضعين :

الأول : **لاختلاف الجملتين خبراً وانشاءاً لفظاً ومعنى** :

ومثّل له بقوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥-٦] ، ففصلت جملة (اهدنا الصراط المستقيم) عما قبلها ، وأوضح شيخ زادة سرّ الفصل بقوله : ((ويجوز ان يكون طلباً ابتدائياً لا تعلق له بما قبله ، تعلق البيان ، حيث أخبر أولاً انه لا يستعين في تحصيل ما أراده إلا به تعالى ، ثم أفرد من جملة ما يصح ان يكون مطلوباً للإنسان ما هو أعظم المطالب وهو الهداية لأقوم السبيل الموصلة إلى مرضاته تعالى فسأله من الله تعالى ، فيكون ترك العطف حينئذٍ لكمال الانقطاع بين الجملتين لاختلافهما خبراً وانشاءاً))[1] .

في حين ذهب الزمخشري (ت٥٣٨هـ) ، إلى كون سياق الآية يدل على ان الفصل فيها لكمال الاتصال ، إذ قدر الجملة الثانية مستأنفة ، بالقول : ((كأنه قيل كيف أعينكم ؟ فقالوا (اهدنا الصراط المستقيم)))[2] . وهو الأقرب للسياق لأن كمال الاتصال فيه مراعاة لجانب المعنى ، فكأن قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) مرتبط بمعنى الدعاء والتوجه في قولهم (إياك نعبد وإياك نستعين) .

والآخر لانتفاء الجامع بين الجملتين :

والجامع هو المعنى المشترك بين الجملتين الموصولتين لفظاً أو معنى وانتفاؤه يعني تجرد الاتصال منه ، وجعل شيخ زادة منه قوله تعالى : ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:١-٦] ، وعلى الرغم من كون سياق الآية موجهاً لبيان وصف المتقين والكافرين إلا ان السياقين اللذين تضمنا ذلك ، قد فصلا عن بعضهما البعض أما سبب ذلك الفصل، فأوضحه شيخ زادة بقوله: ((ووجه تباينهما في الغرض ان

(١) الحاشية : ٤٤/١ .

(٢) الكشاف : ٢٥/١ .

المقصود من الجملة الأولى بيان الكتاب متصف بغاية الكمال في الهداية ... والمقصود من الجملة الثانية هو بيان اتصاف الكفار بالإصرار على ما هم عليه من الكفر والضلال بحيث لا يجدي فيهم الإنذار فكان بين الجملتين كمال الانقطاع بانتفاء الجامع بينهما ، لعدم المناسبة بين الاسمين اللذين هما المسند إليه فيهما وبين المسندين))[١] .

٢-مواضع الوصل :

يكون الوصل إذا اتفقت الجملتان خبراً وإنشاءً لفظاً ومعنى ، أو معنى لا لفظاً ، بأن تكون خبرية لفظاً وهي انشاء بالمعنى أو بالعكس ، وهو ما سمّاه البلاغيون[٢] (التوسط بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع) :

إذ ذكروا ان حكم الجملتين في هذه الحالة الوصل ، وجعلوا التناسب بينها خبراً وانشاءً من محسنات الوصل ، إذ اقتضى المقام هذا التناسب ، وكان منهج شيخ زادة في هذا الموضوع ذا مسارين الأول سار فيه مع البلاغيين ، في تضمين الخبر معنى الطلب أو بالعكس ، إذا تخالفت جمل السياق خبراً وانشاءً ، وتابع بذلك السكاكي (ت٦٢٦هـ) ، الذي قنن لهذا الأمر بقوله : ((إن اختلفتا خبراً وطلباً ان يكون المقام مشتملاً على ما يزيل الاختلاف من تضمين الخبر معنى الطلب أو الطلب معنى الخبر))[٣] . فمن المواضع التي اتصلت الجمل مع بعضها البعض فيها ، وهي مختلفة خبراً وانشاءً قوله تعالى : ((﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [هود: ٥٤] ، إذ عطفت الجملة الطلبية (واشهدوا) على الجملة الخبرية (اني أُشهدُ الله) ، فوجه شيخ زادة السياق نحو تضمين الطلب فيه معنى الخبر في قوله : (واشهدوا) إذ يقول : ((الفرق بين إشهاد الله تعالى وإشهاده إياهم بان إشهاد الله تعالى إشهاد على التحقيق جيء به ليؤكد به ما ذكره من البراءة من شركهم وشركائهم بخلاف إشهاده إياهم على البراءة فانه ليس إشهاداً على التحقيق إذ لا يقول أحد لمن يعاديه اشهدك على انني بريء منك إلا وهو يريد عدم المبالاة ببراءته

(١) الحاشية : ١٠٦/١ .

(٢) ينظر : مفتاح العلوم : ٣٦٧ ، والإيضاح : ١٥٤ ، والمطول : ٤٥٣ وما بعدها ، وعروس الأفراح : ٥١٧/١ .

(٣) مفتاح العلوم : ٣٦٧ .

والاستهانة بعداوته ، فلما اختلف الإشهادان في المعنى خولف بينهما في الصيغة فجيء بصيغة الأمر وان كان المراد بها الخبر ، لأن الجملتين إذا اختلفتا خبراً وطلباً فلابد ان يقدر الطلب بالخبر أو بالعكس))[1] . فلغرض الدلالة على تحقيرهم والحط من شهادتهم توجه اليهم بأمرهم فقال (واشهدوا) ، فيما جيء بالجملة الأسمية مؤكدة مع شهادة الله تعالى ومع اختلاف الجملتين قد عطفتا ، فأول شيخ زادة ذلك . ومنه أيضاً قوله تعالى ﴿الٓمٓصٓ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١-٢] ،إذ ضمن شيخ زادة جمل السياق، لتتناسب خبراً وانشاءً ، إذ اختلفت الجملتان في قوله : (كتاب أنزل إليك) بالخبرية، وقوله (فلا يكن في صدرك حرج منه) بالإنشائية ، ويوجه شيخ زادة تخالف السياق بقوله : ((فلا يجوز عطف أحدهما على الأخرى فلابد ان تؤول جملة (لا يكن حرج) بالإخبار ، على معنى لا ينبغي أن يكون حرج ، أو تؤول جملة (أنزل إليك) بالانشاء على معنى تيقن بإنزاله إليك من ربك فلا يكن في صدرك حرج))[2].

أما المسار الثاني لمنهج شيخ زادة في هذا الموضوع ، فقد تميز فيه بذكر نوعٍ خاص من العطف لم يكن شائعاً عند البلاغيين[3]، سمّاه (عطف القصة على القصة) ، الذي كانت بداية الإشارة إليه عند الزمخشري[4] (ت٥٣٨هـ)، والبيضاوي[5] (ت٦٨٥هـ)، إذ أشارا إلى ان التناسب الموضوعي أهم في بعض السياقات القرآنية، من التناسب في الخبر والإنشاء، أما شيخ زادة فكان له فضل التأسيس لحد هذا النوع من العطف والتركيز عليه، للمحافظة على وحدة النص القرآني المتماسك فلا يحتاج هذا النوع من العطف قيد التناسب خبراً وانشاءً بل يحتاج إلى التماسك المعنوي في السياق العام للآية ، أما حدّ هذا العطف فيبينه شيخ زادة بقوله: ((عطف مجموع جمل متعددة مسوقة لغرض على جمل مسوقة لغرض آخر والمعتبر في هذا العطف تناسب

(١) الحاشية : ٣/٥٠ .

(٢) الحاشية : ٢/٢٢٦ .

(٣) ينظر : دلائل الإعجاز : ٢٣٢ وما بعدها ، ومفتاح العلوم : ٣٥٧ وما بعدها ، والإيضاح : ١٤٥ وما بعدها ، والطراز : ٥٤١ وما بعدها .

(٤) ينظر : الكشاف : ١/٩٩ .

(٥) ينظر : تفسير البيضاوي : ١/٤٠-٤١ .

القصتين لا تناسب جمل القصتين))[1] .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٥] ، فالظاهر ان النص عطف الجملة الإنشائية (وبشر الذين آمنوا) على الجملة الخبرية (وان كنتم في ريب) ، وهو عند البلاغيين خروج عن قانون تناسب الجمل خبراً وانشاءً ، فذهب السكاكي[2] (ت٦٢٦هـ) ، إلى تقدير طلبٍ ، وهو قوله (قل) مقدرٍ قبل قوله تعالى (يا ايها الناس اعبدوا ربكم) في أول السورة فما عطف عليها طلبٌ أيضاً ، كما يرى السكاكي ، في حين ذهب القزويني[3] (ت٧٣٩هـ) إلى تقدير طلبٍ محذوفٍ أيضاً تقديره فأنذرهم وبشر المؤمنين معارضين بعض المفسرين الكبار ، كالزمخشري[4] (ت٥٣٨هـ) ، والبيضاوي[5] (ت٦٨٥هـ) ، اللذين ذهبا إلى ان العطف هنا لمناسبة الأغراض المساق لها النص . أما شيخ زادة فذهب مع الزمخشري والبيضاوي ولكن بفكرة أوضح وأوسع إذ يقول : ((المعطوف عليه هو مجموع القصة المتعلقة بأحوال المرتابين في حقية القرآن من تكليفهم بإتيان ما يساوي أقصر سورة مما نزل وتقريعهم وتهديدهم وإيعادهم بالنار الموصوفة والمعطوف هو مجموعة القصة المتعلقة ببشارة المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والأعمال الصالحة))[6] . وبين نوعه بقوله : ((عطف هذا المجموع على المجموع الأول على طريق عطف القصة على القصة))[7] ، أما المناسبة بين القصتين فهي التضاد على

(١) الحاشية : ٢٠٤/١ .
(٢) ينظر : مفتاح العلوم : ٣٦٧ .
(٣) ينظر : الإيضاح : ١٥٥ .
(٤) ينظر : الكشاف : ٩٩/١ .
(٥) ينظر : تفسير البيضاوي : ٤٠/١-٤١ .
(٦) الحاشية : ٢٠٤/١ .
(٧) الحاشية : ٢٠٤/١ .

ما ذهب إليه شيخ زادة[١] .

ومنه أيضاً قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٣-١١٥] ، فقد عطفت جملة (لقد عهدنا إلى آدم من قبل) على ما قبلها ، ووجه شيخ زادة غرض السياق في وصله بقوله : ((انها معطوفة على الجملة التي قبلها على طريق عطف القصة على القصة والجملة الثانية وإن كانت إنشائية والأولى خبرية لكن الإنشائية مشتملة على ذيل وقصة في حكم الخبرية فعطفت على الخبرية كما تعطف الخبرية على مثلها ، ووجه المناسبة بين القصتين انه تعالى يبين بالجملة الأولى ان الإنسان إنما يثبط عن المعاصي والمنكرات بتكرير آيات الوعيد وبتجديد التهديدات حيث قال: (صرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يُحدث لهم ذِكرا) ثم أردفه بقصة آدم كأنه قال إن طاعة بني آدم للشيطان وتركهم التحفظ من وساوس الشيطان أمر قديم ، فأنا قد عهدنا إلى آدم من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد وبالغنا في تنبيهه ... مع ذلك نسى وترك ذلك العهد))[٢] . فتتبع شيخ زادة المناسبة الموضوعية بين القصص المتعاطفة ، ولم يلتفت إلى التأويل والتضمين للجمل سواء كانت خبراً أو انشاءً ، وفي ذلك مراعاة لظاهر النص القرآني المعجز ، وملائمته ووحدته الموضوعية كنص متكامل تترابط عناصره ارتباطاً جمالياً وبلاغياً ، ونبه شيخ زادة على كثير من هذه النماذج القرآنية التي يُعتبر في وصلها المناسبة بين الموضوع العام للسياق ولا يعتبر فيه توافق جملها خبراً وانشاءً[٣] .

(١) ينظر : الحاشية : ٢٠٤/١ .

(٢) الحاشية : ٣٣٤/٣ .

(٣) ينظر : الحاشية : ١٢٦/١ ، و٢٥٦/١ ، و٤٢٧/١ ، و٢٣٩/١ .

المحور الثاني: الوصل بالحروف وأغراضه البلاغية عند شيخ زادة:

١-الوصل بالواو :

اهتم البلاغيون[١] بالعطف بالواو ، وجعلوا أسرار البلاغة في معرفة دلالة ذلك العطف ، وعلل الجرجاني[٢] (ت٤٧١هـ) ذلك ، لكون الواو لا تفيد معنى سوى الاشراك في الحكم الإعرابي ولا يتصور اشتراك بين شيئين حتى يكون هناك معنى يقع ذلك الاشتراك فيه ، أما إذا أخفي ذلك المعنى فهنا يبدأ البحث عن أسرار الاشتراك وهي من أسرار بلاغة الوصل . فيما يدل العطف بغير الواو في الحروف كالفاء على الترتيب المتعاقب ، وثم على الترتيب المتراخي فعند العطف بهما تظهر الدلالة[٣] ، لذلك تركز جهد البلاغيين في بيان سرّ العطف بالواو ، فيما اهتم شيخ زادة ، بحروف العطف الواردة في القرآن ودلالة العطف بها ، سواء كان السياق حقيقياً أو مجازياً ، فاهتم (بالواو والفاء وثم) ، أما الواو فذهب شيخ زادة إلى انها قد تعطف مفرداً على مفرد لغاية بلاغية، وقد تعطف مجموعاً على آخر لغاية بلاغية، فمن عطف المفرد على المفرد قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] ، إذ عطفت الواو المفردات على بعضها بعض ، لتنبيء عن تغايرها وكمالها في الموصوف ، وهذا الكمال حاصل في كل صفة من هذه الصفات ، إذ يقول شيخ زادة : ((وتوسيط الواو أي العطف المنبيء عن تغاير المعطوف والمعطوف عليه ولا تغاير ههنا ... تنزيلاً لكل واحدة من الصفات المعلومة منزلة الذوات المتباينة على ان كل واحدة منها لما بلغت من الكمال مبلغاً خرجت به عن عداد أمثالها ، صارت كأنها لا يتحملها ذات الموصوف فلا تكون من الصفات القائمة، منزلة ذوات مستقلة عن الموصوف))[٤]. فجيء بالواو التي تعطف المفردات المتغايرة للعطف بين الصفات التابعة لموصوف واحد لإعطاء دلالة الكمال لكل صفة

---

(١) ينظر : دلائل الإعجاز : ٢٣٣ ، ومفتاح العلوم : ٣٥٧ ، والطراز : ٥٤٣ وما بعدها ، والإيضاح : ١٤٥ وما بعدها ، وغيرهم من البلاغيين .

(٢) ينظر : دلائل الإعجاز : ٢٣٣-٢٣٤ .

(٣) ينظر : عروس الأفراح : ٤٩٣/١ .

(٤) الحاشية : ٦١١/١ .

إذ أنها لكمالها في ذات الموصوف أصبحت كأنها متغايرة عن نظيراتها في الذات الواحدة ، أما عطف المجموع على المجموع لغاية بلاغية فناقشها شيخ زادة في مواضع منها في قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] ، فيرى شيخ زادة ان عطف قوله تعالى (هو الظاهر والباطن) على قوله (هو الأول والآخر) ، أبين للعظمة وأدق للسياق ، لكونه ينبيء عن اجتماع تلك الأوصاف على نحو من الإعجاز في ذاته المقدسة ، إذ يقول : ((ان الواو المتوسطة بين الأول والآخر لعطف المفرد على المفرد وكذا المتوسطة بين الظاهر والباطن* ، وأما الواو الثانية المتوسطة بين الظاهر والباطن فهي لعطف المجموع الثاني على المجموع الأول ، ولو جعلت لعطف الظاهر على احد الوصفين الأولين لفات التناسب بخلاف ما إذا عطف أحد الوصفين المتقابلين المذكورين أولاً على الآخر ثم أخذ المتقابلين المذكور ثانياً على الآخر ثم جمعت بين المجموع الأول والمجموع الثاني بالواو المتوسطة فان الكلام حينئذٍ يفيد انه تعالى كما انه متصف بكل واحد من الوصفين الآخرين أزلاً وأبداً فهو أيضاً متصف بكل واحد من المجموعين أزلاً وأبداً فما من وقت يصح اتصافه تعالى بالأولية والاخروية إلا ويصح فيه اتصافه بالظاهرية والباطنية معاً))[١] . فهذا الجمع بين الصفات المتضادة ، التي هي من التضاد المعجز الذي لا يوجد في غيره تعالى ، قيمة معنوية أنتجها السياق في الوصل بالواو الجامع بين الصفات المفردة ، وبين الصفات المجموعة .

٢-الوصل بـ(ثم) :

لم يقتصر شيخ زادة في بحثه البلاغي على العطف بالواو بل تجاوزه إلى (الفاء وثم) وفصل في دلالات السياق وأغراضه الذي ترد حروف العطف فيه ووجد ان تلك الحروف تخرج عن معناها الحقيقي ، وهو التراخي أو التعاقب الزماني إلى التراخي الرتبي ، وهي معانٍ مجازية ، فأولى شيخ زادة تلك السياقات المجازية عناية كُبرى لم يسبق ان ذكرها كبار البلاغيين[٢] ، إذ قصروا جهدهم عن البحث في أسرار العطف

* الأصوب بين الظاهر والآخر .

(١) الحاشية : ٤٤٨/٤ .

(٢) ينظر : دلائل الإعجاز : ٢٣٣ ، ومفتاح العلوم : ٣٥٧ ، والإيضاح : ١٤٥ وما بعدها .

بالواو ، فيما أوضح شيخ زادة الدلالة المجازية لحروف العطف واستعمالاته عندما تدل (الفاء) على التعقيب الرتبي و (ثم) على التراخي الرتبي .

وهذا الانزياح الدلالي في دلالة حروف العطف يولد معاني وأغراضاً بلاغية ، إذ تبعث حروف العطف ومن خلال دلالتها على التباعد الرتبي دلالات وأغراضاً فرعية ، يعمل السياق على إظهارها ، ومن تلك الأغراض التي أشار إليها شيخ زادة للعطف بـ(ثم) :

الاستعظام :

إذ يكون مدخول (ثم) أشد وأعظم وأبعد عذاباً مما قبلها ، فتتفاوت الرتبة لذلك ، كقوله تعالى : ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٩-٢٤] ، فدل العطف على الاستعظام ، اما تفصيل دلالته عليه فيبينها شيخ زادة بقوله : ((جيء بكلمة (ثم) للدلالة على ان الكرة الثانية أبلغ في الاستعظام واللعن من الكرة الأولى يعني ان كلمة (ثم) في قوله (قتل) للتراخي بحسب الرتبة وفيما بعده على أصلها ، أي للتراخي بحسب الزمان ، أي ثم أعاد النظر والتأمل في طلب ما يدفع به القرآن ويرد ما رجا ان يتضح له ما لم يطلع عليه في المرة الأولى فلم يتهيأ له ذلك فلذلك عبس))[1] . فعطفت (ثم) الجمل بحسب تصاعد رتبة العذاب بغية استعظامه .

الدلالة على كمال القدرة :

إذ يكون المعطوف بثم ، وهو ما بعدها أدل على القدرة وأعجب للسامع مما قبلها ، فتعبر (ثم) عن ذلك المعنى ، لكونها دالة على التباعد الرتبي ، وذلك كقوله تعالى : ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦] فقد لحظ شيخ زادة ان (ثم) في هذا السياق كانت ((للتراخي في الرتبة لأن كل واحد من المعطوف عليه والمعطوف جيء به للدلالة على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته ، فالجملة الثانية وان كان مضمونها مقدماً على مضمون الأولى زماناً إلا انه متأخر عنه رتبة من حيث ان مضمون الثانية أدل على كمال القدرة وأدخل في كونها آية دالة على التفرد في إلوهيتهِ

(١) الحاشية : ٥٧٢/٤ .

وأجلب لتعجب السامع بالنسبة إلى مضمون الأولى والثاني أدل عليها وأدخل في كونها آية وأجلب لعجب السامع ، وذلك لان تشعيب الخلائق من نفس واحدة بطريق التناكح والتوالد عادة مستمرة بخلاف خلق حواء من ضلع آدم فانه خارق للعادة إذ لم تخلق أنثى غير حواء من قصيري رجل))[1] . فدلت (ثم) على تفاوت رتبة المعطوف بها بحسب قوة التأثير والتعجيب على المتلقي إذ كان ما بعدها أعجب وأتم من المذكور ما قبلها .

والى ذلك الغرض ذهب الزمخشري[2](ت٥٣٨هـ)، وأبو حيان[3] (ت٧٤٥هـ) ، وأبو السعود[4] (ت٩٨٢هـ) ، والآلوسي[5] (ت١٢٧٠هـ) ، وابن عاشور[6] (ت١٣٩٣هـ) ولكن من غير تفصيل كما فصّل شيخ زادة في السياق .

للدلالة على الفضل والعظمة والتدرج بالمنفعة :

وذلك كالدلالة المستوحاة من قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٤٥-٤٦] ، إذ يبين شيخ زادة دلالة العطف بالقول : ((ووجه كون الأمور متباعدة في الرتبة والفضل ان حدوث الظل ممدوداً مبسوطاً على وجه الأرض وإن كان في نفسه دالاً على وجود الصانع الحكيم إلا ان جعل الشمس دليلاً عليه لدلالته على أمر زائد مرتب على ذلك أفضل منه رتبة ، وقبض الظل قبضاً يسيراً أعظم من الثاني ، لان الإزالة مع التدرج والمهلة بانبساط ضوء الشمس على الأجرام تحصل بها المنافع المرتبة على الشمس مع عدم ارتفاع منافع الظل بالكلية ، وهي منفعة زائدة على قبض انبساط الظل وقيام دليل وجوده مع معرفة الساعات والأوقات التي يناط بها أكثر أحكام الشرع ولأن

(١) الحاشية : ١٩٢/٤-١٩٣ .
(٢) ينظر : الكشاف : ٣٩/١ .
(٣) ينظر : تفسير البحر المحيط : ٥٥٤/٧ .
(٤) ينظر : تفسير أبي السعود : ٣٨٠/٥ .
(٥) ينظر : روح المعاني : ٣١٧/٢٣ .
(٦) ينظر : التحرير والتنوير : ٣٣١/٢٤ .

في التدرج حكماً ومصالح أخرى))[1] . فقد بين شيخ زادة ان كل مرة تعطف بها (ثم) هنا على ما قبلها يكون هناك دلالة وغرض بلاغي وراء هذا العطف إذ يكون ما بعدها أعلى رتبة ، والرتبة ههنا اختصت بالمنفعة فجيء بـ(ثم) لتدل على تدرج هذه المنفعة ، وان كان شيخ زادة يذهب مع الدلالة المجازية لـ(ثم) فان الدلالة الحقيقية واردة أيضاً فيجوز والله أعلم حمل السياق على التراخي الزماني إذ ان مدّ الظل يكون أولاً ثم ازدياده في طلوع الشمس ثم يختفي اختفاءً مستتراً بعد ذلك فتكون (ثم) للتراخي الزماني.

٣-الوصل بالفاء :

فالعطف الحقيقي بها يدل على الترتيب المتعاقب[2] ، ولكن نبه شيخ زادة إلى ان بعض السياقات لا تحتمل هذا الغرض بل تخرج الفاء إلى معنى مجازي هو (التعقيب الرتبي) إذ يكون المعطوف بها أفضل مما ذكر قبلها في الرتبة ، وقد جاءت هذه الأغراض في سياقات متعددة حاملة معها دلالات فرعية يضفيها السياق على أداة العطف الواردة فيه ومنها :

الدلالة على الفضل :

وذلك في سياق سرد الأوصاف ، فيكون سردها متعاقبة لا بحسب الزمان وإنما بحسب الرتبة والفضل فيقول شيخ زادة: ((يكون بعض الصفات أرفع قدراً أو أفضل من الباقية فتكون الباقية متأخرة عنه بهذا المعنى وإن لم تتأخر عنه في الوجود))[3] وذلك كقوله تعالى: ﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ [الصافات:١-٣]، إذ عطفت الفاء الأوصاف بحسب الفضل والرتبة لا بحسب تعقيبها الزماني فيوضح شيخ زادة غرض العطف بها قائلاً: ((وكون الفاء لترتيب المعطوفات في الفضل ان يكون الطوائف الصافات ذوات فضل والزاجرات أفضل والتاليات أبهر فضلاً))[4] .

---

(١) الحاشية : ٤٥٥/٣ .

(٢) ينظر : عروس الأفراح : ٤٩٣/١ .

(٣) الحاشية : ١٤٤/٤ .

(٤) الحاشية : ١٤٤/٤ ، وينظر : البرهان للزركشي : ١٧٩/٤ .

الدلالة على ترتيب الأقسام بحسب دلالتها على القدرة :

وذلك كالعطف بالفاء في سياق قوله تعالى : ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ١-٤] ، فقد يدل العطف بالفاء على أهمية المقدم في ترتيب ذكر الموصوفات ، إذ يقول شيخ زادة : ((فالفاء ... لترتيب الأقسام ، أقسم أولاً بالرياح الذاريات فبالسحب الحاملات للأمطار ، فبالسفن الجاريات في البحر فبالملائكة المقسمات للأمر ، ولما كانت هذه الأمور الأربعة متفاوتة في الدلالة على كمال القدرة قدم في الأقسام بها ما هو أدل عليه ... فالمناسب في ترتيب الأقسام بالأمور المتباينة ان يقدم ما هو أول على كمال القدرة والرياح أدل عليه بالنسبة إلى السحب ، لكون الرياح أسباباً لحدوثها ، والسحب لغرابة ماهيتها وكثرة منافعها ورقة حاملها الذي هو الريح أدل عليه بالنسبة إلى السفن ، وهذه الثلاثة لكونها من قبيل المحسوسات أدل عليه بالنسبة إلى الملائكة والغائبين عن الحس إذا الخصم ربما ينكر وجود من هو غائب عن الحس فلايتم الاستدلال))[١] .

وفيما ذهب شيخ زادة إلى بيان غرض العطف بالفاء بحسب الأهمية والدلالة على القدرة ، إذ رتبت وفق التعاقب الرتبي ، ذهب أبو السعود (ت٩٨٢هـ) إلى تجويز حمل الآية على الحقيقة ، أي دلالة العطف على الترتيب المتعاقب ، إذ يقول: ((فهي لترتيب ما صدر من الريح من الأفاعيل فأنها تذروا الأبخرة إلى الجو حتى تنعقد سحاباً فتجري به باسطة له إلى ما أُمرت به فتقسم المطر))[٢] . ولعل في بيان شيخ زادة جمالاً وبلاغة ، إذ ان السياق قسمي فلابد ان يكون المقسم به من عظائم المخلوقات فجيء بـ(الفاء) لبيان تعاقبها في الفضل لذلك قدم الأفضل في سياق العطف القسمي.

الدلالة على الشدة :

وذلك كقوله تعالى : ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[الشعراء: ٢٠١-٢٠٢] فقد بين شيخ زادة دلالة الآية والعطف بها بقوله: ((الذي يقع أولاً هو المفاجأة ثم الرؤية ثم سؤال النظرة ، فوجب ان لا تكون كلمة

(١) الحاشية : ٣٨٩/٤ .

(٢) تفسير أبي السعود : ١٣٤/٦ .

(الفاء) فيهما للتراخي الزماني بل تكون للتراخي الرتبي ، بأن يكون المعنى لا يؤمنون بالقرآن حتى يروا العذاب الملجيء إلى الإيمان فما هو أشد من رؤيته ، وهو لحوقه بهم مفاجأة فما هو أشد منه وهو سؤالهم النظرة مع القطع بامتناعها))[١].

والى قريب من هذا الغرض ذهب الزمخشري[٢] (ت٥٣٨هـ) ، في حين عارضهم الآلوسي[٣] ، فيما بعد ليرجح الدلالة الحقيقية للعطف بالفاء ، وهي التعقيب الزماني في رؤية العذاب . ولعل السياق الحقيقي أدق ، لكون الآية صريحة الدلالة على ان بين رؤية العذاب ولحوقه بهم فترة زمنية قليلة فقال (بغتةً) أي وهم منشغلون عنه غير ملتفتين إليه وهذه الحالة أقرب إلى التعاقب الزمني إذ ان لحوقه بهم كان في زمن هم منشغلين به في رؤيته فتكون الفاء والله أعلم للتعاقب الزمني .

وقد تتوارد حروف العطف كالفاء ، وثم ، والواو على سياق واحد ، وذلك له أغراضه عند شيخ زادة ، وذلك كتعاقب الفاء والواو في قوله تعالى : ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ١-٥] ، فأنه ينبيء عن غاية بلاغية من استعمال الواو في موضع والفاء في موضع آخر من السياق نفسه ، بينها شيخ زادة في القول : ((والفاء للدلالة على اتصال جريهن في نزولهن بالإرسال من غير مهلة ... وعطف قوله والناشرات على المرسلات بالواو لعدم كون نشر الشرائع متفرعاً على الإرسال ومتعقباً له ، فان الملائكة أول ما يبلغون الوحي إلى الرسل لا يصير ذلك الدين في الحال مشهوراً منتشراً بل أكثر الخلق يكذبون الرسل مكابرة وعناداً فلم يعطف النشر على ما قبله بفاء التعقيب بل عطف بالواو الدالة على الاجتماع في الوجود مع قطع النظر عن إفادة معنى التعقيب والتراخي ثم إذا حصل النشر رتب عليه حصول الفرق بين الحق والباطل))[٤] .

وكذلك توارد (ثم والفاء) في سياق واحد نحو قوله تعالى : ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ

(١) الحاشية : ٤٨٠/٣ .
(٢) ينظر : الكشاف : ٣٨٢/٣ .
(٣) ينظر : روح المعاني : ١٧٤/١٩ .
(٤) الحاشية : ٥٩٦/٤ .

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠-٣٢] ويوضح شيخ زادة غرض تعاقب هذه الحروف بالقول: ((ان قوله فغلوه عطف على ما قبله بفاء التعقيب وعطفت الجملتان اللتان بعدها بكلمة (ثم) للدلالة على التراخي وظاهراً ان التراخي الزماني غير مراد لأن المقام مقام التهديد والتهويل ، ولاشك ان التهديد بتولي العذاب أشد وأفظع من التهديد بتفريقه في الأزمنة فتعين ان المراد التراخي الرتبي ... أي قيل لخزنة النار : خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم قيل لهم : في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ، وتكون الفاء لعطف المقول على المقول مع إفادة معنى التعقيب ، وكلمة (ثم) لعطف القول على القول مع الدلالة على ان الأمر الأخير أشد وأهول مما قبله من الأوامر مع تفاوت المأمور بها من الأخذ ، وجعل يده مغلولة إلى عنقه وتصلية الجحيم وسلكهم إياه في السلسلة الموصوفة وأشير بكلمة (ثم) إلى ان أمرهم بالأخير أشد من أمرهم بما أمروا به قبله))[١] . والى تفاوت شدة العذاب ومراتبه ذهب الزمخشري[٢] (ت٥٣٨هـ) ، والبيضاوي[٣] (ت٦٨٥هـ) ، ورجحه الآلوسي[٤] (ت١٢٧٠هـ) ، وعلل ابن عاشور[٥] (ت١٣٩٣هـ) اختيار تلك الدلالة للعطف ، بالذهاب إلى ان التراخي الرتبي أبلغ ، لكون قوله تعالى (ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه) أشد في العذاب مما قبلها ، لكونه في معنى اجعلوه في الجحيم مكبلاً بأغلاله وهذه الدلالة متضمنة معنى العطفين السابقين ، فيما ذهب أبو حيان[٦] (ت٧٤٥هـ) إلى حمل النص على الدلالة الحقيقية للعطف بثم ، فيرى ان المُعاقب يُغل أولاً ولا يُعاجل بالعقوبة ثم يصلى الجحيم ، وذلك أبلغ العذاب إذ جاء بعد مهلة سكنت فيه نفسه قليلاً ، ثم يُسلك في السلسلة لأشد العذاب الذي ليس معه حِراك ولا انتقال . ولعله الأقرب لسياق الآية إذ ان إعداد المذنب للعقاب عندما يكون سريعاً ثم يتباطأ في عقابه يكون أشدُ عليه إذ يكون الوقت قاتلاً له ويكون أكثر إذلالاً وإهمالاً .

---

(١) الحاشية : ٥٤٠/٤ .

(٢) ينظر : الكشاف : ٤٥٨/٤ .

(٣) ينظر : تفسير البيضاوي : ٥٢٣/٢ .

(٤) ينظر : روح المعاني : ٨٠/٢٩ .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير : ١٣٧/٢٩ .

(٦) ينظر : البحر المحيط : ٤٥٨/٨ .

وتطرق شيخ زادة إلى اختلاف حرف العطف في السياق الواحد وذلك ، كقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، فتارة يكون العطف بالفاء ، وتارة يكون بثم ، أما دلالة هذا الاختلاف بالعطف وبحروفه فأوضحه شيخ زادة بالقول : ((ان النظر إذا عطف على السير بالفاء ، يكون كل واحد منها مطلوباً إلا ان الأول يكون مطلوباً لأجل الثاني وإذا عطف بثم لا يكون بينهما ما يدل على السببية بل ما يدل على كون الثاني متراخياً عن الأول ، ولا وجه لحمله على التراخي الزماني ، لأن النظر في آثار الهالكين والاعتبار بحالهم واجب على الفور ليس من حقه ان يتراخى عن السير فلذلك حمل على التراخي الرتبي ، بأن حمل الأمر بالسير على الإباحة والأمر بالنظر على الوجوب))[١] .

ووافق هذا الرأي الزمخشري[٢] (ت٥٣٨هـ)، والرازي[٣] (ت٦٠٦هـ) ، اللذان جعلا (ثم) للتراخي الرتبي بين الواجب والمباح ، وتبعهم ابن عاشور[٤] (ت١٣٩٣هـ) ، الذي جعل النظر في عاقبة المكذبين أهم من السير إذ ان الأخير يكون لأجل النظر ، فيما تطرق أبو السعود (ت٩٨٢هـ) إلى الغرض الحقيقي للعطف بـ(ثُمّ) إذ يقول : ((وكلمة (ثم) أما لان النظر في آثار الهالكين لا يتسنى إلا بعد انتهاء السير إلى أماكنهم))[٥] . ولعل ما ذهب إليه أبو السعود هو الأقرب ، وان كان النظر أهم بالحقيقة من السير إلا انه في السياق قد رُبط بالسير فلا يحصل النظر إلا بالسير في أرض الله ، لذلك فهو مطلوب أيضاً ، وجيء بثم لتنبئ عن المسافة أو التراخي الزماني بين السير والنظر في آثار الهالكين ، إذ لا يُتوصل إلى آثارهم إلا بعد السير إليها ، فبينهما تراخٍ من الزمان بين المسير والنظر .

ومن خلال هذا العرض لجهد شيخ زادة في بيان دلالة العطف بـ(ثم والفاء) وتواردها على سياق واحد ، أو اختصاصها بسياق واحد ، وبالاستعانة بآراء المفسرين

---

(١) الحاشية : ١٥٤/٢ .

(٢) ينظر : الكشاف : ٨٢/٢ .

(٣) ينظر : التفسير الكبير : ٤٨٨/٤ .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير : ١٤٩/٧ .

(٥) ينظر : تفسير أبي السعود : ٣٥٩/٢-٣٦٠ .

الذين لهم جهد في هذا الموضوع ، نتبين أن للمفسرين جهداً لا يخفى في بيان بلاغة هذا النوع من العطف ، فهو بذلك يعد مكملاً لبلاغة العطف بالواو الذي ركز عليه البلاغيون ، وبذلك تكون النظرة واسعة وشاملة إذا أخذنا دور المفسرين في التحليل والتقعيد بالحسبان ، ولم نقتصر على ما أُلِف في البلاغة المتخصصة ، إذ ان للمفسرين آراء يمكن ان تكمل النظرة المتخصصة للبلاغيين .

الفصل السادس : الإيجاز والإطناب والمساواة في حاشية شيخ زادة :

المحور الأول : معنى الإيجاز وأنواعه :

لغةً ، يدل الإيجاز في اللغة على الاختصار والتقليل ، إذ يقال أمرٌ وجيز وكلامٌ وجيز أي مُختصر[١] ، ويقال أوجز كلامه أي قلله[٢] ، فالوجازة في اللغة الاختصار والتقليل ، أما في الاصطلاح فيعرفها الرماني (ت٣٨٦هـ) ، بالقول هو : ((تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى وإذا كان المعنى يمكن ان يعبر عنه بألفاظ كثيرة ، ويمكن ان يعبر عنه بألفاظ قليلة ، فالألفاظ القليلة إيجاز))[٣] .

فيما ذهب المتأخرون ، كالقزويني (ت٧٣٩هـ) إلى أنّ الإيجاز أداء المقصود من الكلام بأقل عدد ممكن من الألفاظ أي ان يكون اللفظ أقل من المعنى شرط الوفاء بالمعنى ، من غير إخلال يفسد الكلام[٤] ، وهما متقاربان في الدلالة على كون الإيجاز أداء المعنى بقليل من اللفظ ، لاقتضاء البلاغة ذلك التقليل ، إذ يعد الإيجاز مظهر من مظاهر الغزارة والثراء الدلالي في اللغة العربية ، لكونه يزيد في دلالة الكلام ، فيُضيف على المعاني ظِلالاً يشغل بها الذهن ويُعمل فيها الخيال ، حتى تبرز وتتلون وتتسع ، ثم تتشعب إلى معانٍ أخرى يتحملها اللفظ بالتفسير أو التأويل لذلك جاء القرآن غاية الإيجاز الذي جعله معجزة الدهر في هذا الصدد[٥] .

ولأهميته ، وبلاغته في الكلام جعله الرماني[٦] (ت٣٧٢هـ) قسماً من أقسام الإعجاز القرآني . ويرى أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) ان الإيجاز هو البلاغة كلها إذ يقول : ((وقد قيل لبعضهم ما البلاغة ؟ فقال الإيجاز ، فقيل : وما الإيجاز ؟ قال حذف الفضول ، وتقريب البعيد))[٧] .

---

(١) ينظر : العين (وجز) : ١٦٦/٦ .

(٢) ينظر : القاموس المحيط (باب الزاي) : ٢٢٠/٢.

(٣) النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل) : ٧٦ .

(٤) ينظر : الإيضاح : ١٦٦ .

(٥) ينظر : المعاني في ضوء أساليب القرآن : ٣٤٤ .

(٦) ينظر : النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل) : ٧٦ .

(٧) الصناعتين : ١٧٩ .

والإيجاز كمظهر من مظاهر الاقتصاد اللغوي ينقسم إلى قسمين كما ذهب البلاغيون[١] ، إلى إيجاز قصر ، وحذف ، وبحث شيخ زادة في هذا الأسلوب الناضج في الدلالة بحثاً بلاغياً دقيقاً ، لم يكتفِ فيه بتعيين الأسلوب وحسب ؛ وإنما على ما يبعثه هذا الأسلوب من دلالات يستنبطها المتذوق للبلاغة ، كما سيكشف عن ذلك في بيان نوعي الإيجاز عند شيخ زادة ، إيجاز الحذف وإيجاز القصر .

أولاً : إيجاز الحذف وأغراضه البلاغية :

ونعني به التعبير عن المعاني الكثيرة في عبارة أقل منها ، بحذف شيء من التركيب مع عدم إخلال بالمعنى[٢] ، واشترط السُبكي (ت٧٧٣هـ) ان يكون المحذوف لغرض الإيجاز أصلاً في الكلام[٣] ، ليكون لحذفه دلالة بلاغية يبعثها السياق فحذف أحد أركان الجملة يستدعي انتباه المتلقي ويشده لما يريد المتكلم إيصاله من دلالات نفسية خفية وإشارات ذهنية ، وفي ذلك مراعاة أيضاً لما تقتضيه البلاغة من اقتصاد في الكلام في المواضع التي تستدعي ذلك .

وقد تنبه ابن الناظم (ت٦٨٦هـ) إلى وظيفة الحذف في تقوية دلالة المحذوف ، إذ يقول : ((سلوك طريق التضييق بحذف بعض الكلام تحقيقاً لقوة الدلالة على معناه))[٤] .

فالحذف قد يركز الدلالة على المحذوف ، ويقرره في الأذهان ويبعث الشعور بخفائه حالة التواصل مع النص المحذوف إذ يتعلق الذهن بأطراف معرفته ، وقد جاء القرآن الكريم في غاية الجمال والدقة في ذلك ، وبحث شيخ زادة مواطن ذلك الجمال وأشكاله ودلالاته بحثاً كاشفاً عن مكامنه ، وما يميز بحثه عن غيره تطرقه إلى صنوف الإيجاز من حذف مفرد وجملة وحذف الجمل ، مما لم يتطرق إليه بلاغيون كبار كالجرجاني[٥] (ت٤٧١هـ) والرازي[٦] (ت٦٠٦هـ) ، اللذين اكتفيا ببيان بعض أنماط

(١) ينظر: المثل السائر: ٥٨ ، والإيضاح : ١٧٠ وما بعدها ، الطراز :٢٥٠ وما بعدها ، عروس الأفراح: ٥٨٦ .
(٢) ينظر : الإيضاح : ١٦٨-١٦٩ ، وينظر : المعاني في ضوء أساليب القرآن : ٣٤٥ .
(٣) ينظر : عروس الأفراح : ٥٩١/١ .
(٤) المصباح في علوم البلاغة : ٣٦ .
(٥) ينظر دلائل الإعجاز : ١٧٠ وما بعدها .
(٦) ينظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : ١٧١ وما بعدها .

حذف المفرد ، فبحثه بروح ابن الأثير[1] الذي أُولِعَ ببيان أنماط الحذف ودلالاته .

ففصل شيخ زادة في السياقات الوارد الحذف فيها مبيناً نمط الحذف وأغراضه ، فمن أشكال الحذف التي بحثها شيخ زادة :

أ- حذف الحرف :

بيّن شيخ زادة ان حذف الحرف في القرآن الكريم له دلالته وأغراضه البلاغية ، ومنها حذف حرف النداء ، للاحتراز عن صورة الأمر ، كقوله تعالى : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وغيرها من الآيات ، فيوضح شيخ زادة الحرف المحذوف وغرضه بقوله : ((وقد كثر حذف حرف النداء في نداء الرب تعالى ، تعظيماً له وتنزيهاً عما لا يليق بشأنه ، فان صورة النداء صريح في الدلالة على معنى الأمر ، والدعوة فان قولك يا زيد معناه تعالَ يا زيد ، أو أدعوك يا زيد فحذف حرف النداء احترازاً من صورة الأمر والدعوة))[2] . وكذلك فان النداء أكثرهُ يكون للبعيد والله تعالى أقرب للمؤمنين من حبل الوريد لذلك حذف حرف النداء في السياق .

وقد يحذف الحرف كاللام مثلاً ، لارتباط دلالته بالأهمية ، كقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٧٠] ، إذ ارتبط جواب الشرط الأول باللام في آية المطعوم في قوله تعالى (لو نشاء لجعلناه حطاما) بينما حذفت اللام من جواب الشرط في آية المشروب في قوله تعالى (لو نشاء جعلناه أجاجاً) ويعلل شيخ زادة حذف اللام في المشروب ، لقلة أهميته ، ولكونه تبعاً للمطعوم بالنسبة لحاجة الإنسان إلى المطعوم ، فيقول : ((فلم اختصت آية المطعوم بذكر اللام فيها ، وآية المشروب بحذفها اعتماداً على القرينة الحالية ، ولم يعكس الأمر وتقرير الجواب ان المطعوم مقصود لذاته والمشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم فكان الأول أهم وفقدانه أصعب وأشد فكان

(١) ينظر : المثل السائر : ٦١/٢ وما بعدها .

(٢) الحاشية : ٢٣٤/٢ .

هذا مرجحاً لاختصاصه بمزيد التأكيد للارتباط وعدم الاكتفاء بالقرينة))[١] .

ب-حذف المسند إليه والمسند والمفعول : وتناولناه في محور الحذف في المبحث السابق ، فلا حاجة لذكره هنا تجنباً للتكرار .

ج-حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه :

قد يحذف المضاف ، لغرض بلاغي كالمبالغة في التلبس بالحدث ومثّل شيخ زادة لهذه الدلالة بقوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فلم يقل (كوني ذات برد) ، وإنما قال (كوني برداً) على حذف المضاف مبالغة في امتثالها للقدرة وتلبسها بالبرودة إذ يبين شيخ زادة دلالة ذلك بالقول : ((وفي ورود التنزيل على هذا النظم مبالغات في إظهار عظمة الله تعالى وكمال قدرته ونفاذ مشيئته ، وإرادته حيث عبر عن تأثير قدرته من تدبير النار بما يدل على جعل النار مسخرة لقدرته مأمورة مطيعة مع انه ليس هناك أمر وامتثال بل ليس هناك إلا تسخرها للقدرة والإرادة لأن أثر القدرة هو كون النار باردة لا كونها نفس كيفية البرد ، والعبارة الدالة على هذا المعنى ان يقال ابردي إلا انه اقيم كوني ذات برد مقام ابردي ثم حذف المضاف واقيم المضاف إليه مقامه ، للمبالغة في الدلالة على زوال كيفية الحرارة والإحراق من النار بحيث تكون ذاتها كأنها برد وسلام))[٢] .

وأشار البيضاوي[٣] (ت٦٨٥هـ) إلى تلك المبالغات بإيجاز ، عند تحليله للآية بلاغياً ، ووافق الآلوسي[٤] (ت١٢٧٠هـ) ، البيضاوي وشيخ زادة إلى ذلك الغرض ، التي تحمل في مكامنها تشخيصاً للنار المطيعة التي لشدة انقيادها لأمر الله تعالى تلبست به ، فأصبحت برداً بذاتها مبالغة في بيان الانقياد له (جلّ وعلا) .

د-حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه :

واهتم شيخ زادة بهذا النوع من الحذف ، لكونه يبعث دلالات وأغراضاً بلاغية في

(١) الحاشية : ٤٤٥/٤ .

(٢) الحاشية : ٣٥٧/٣ .

(٣) ينظر : تفسير البيضاوي : ٧٤/٢ .

(٤) ينظر : روح المعاني : ٦٦/٩ .

السياق الذي ترد فيه ، ومنها :

الدلالة على شدة الصفة :

وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ [الفلق: ٣] ، إذ حذف الموصوف وهو الليل للتركيز على الصفة وهي شدة الظلمة ، وبين شيخ زادة دلالة الحذف ونمطه بالقول: ((ان الغاسق بمعنى عظيم الظلام صفة لمحذوف وهو الليل، كأنه لشدته ، وتكاثفه ظرف امتلأ ظلمة ... واسند الشر إلى الليل الغاسق وان لم يكن من فعله لملابسته له واشتماله عليه من حيث وقوعه فيه))[1] . فكأن الصفة لتلبسها بالموصوف أصبحت هي الحقيقة المعبرة عنه لشدتها فيه .

لكون الصفة كاشفة عن ماهية موصوفها :

كقوله تعالى : ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [القمر: ١٣] ، إذ حذف الموصوف وهو السفينة ، وأقيمت صفتها مقامه وبين شيخ زادة غرض الحذف بقوله : ((ان قوله تعالى : (ذات ألواح ودسر) لما كانت صفة كاشفة للسفينة مبينة لماهيتها ، لكونها مركبة من ألواح ودسر ، حسن إقامتها مقام السفينة فان تقدير الكلام وحملناه على سفينة ذات ألواح ودسر فحذف الموصوف))[2] .

للمبالغة في الاتصاف بالصفة :

إذ تكون الصفة عين الموصوف ، فكأنها ذاته المعبرة عنه عندما تستحوذ هذه الصفة على موصفها ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾ [النحل: ١١٦] ، إذ يقول شيخ زادة في دلالة الحذف : ((ان مقتضى الظاهر ان يقال مما تصف ألسنتكم الكلام الكاذب ، وتظهره إلا انه جعل الظاهر المتبين بألسنتهم نفس الكذب وحقيقته مبالغة في وصف الكلام الكاذب ، فان أصل الكلام مما تصف ألسنتكم الكلام الكاذب ، ثم عدل عنه فقيل الكلام الكذب مبالغة على طريق رجل عدْل ، ثم حذف الموصوف وأقيم الكذب مقامه فقيل لما تصف

(١) الحاشية : ٤/٧١٤ .

(٢) الحاشية : ٤/٤٢١ .

الكذب))[1].

فلتملك الكذب منطقهم ، أصبح بجوهره كذباً ، فكأنما كلامهم الكذب بذاته ، مبالغة في بيان شدة التصاقه بهم، لذلك حذف الموصوف وأبقى صفته المعبرة عنهم.

للتفخيم والتعجيب :

كحذف الموصوف الدال على الفخامة ، في قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٧-٨] ، وبيّن شيخ زادة سرّ هذا الحذف ، إذ يقول : ((كأنه قيل : فعدلك في صورة أي صورة ! أي في صورة عجيبة ، ثم حذف الموصوف لزيادة التفخيم والتعجيب))[2] .

للتعميم وليذهب ذهن السامع كل مذهب :

كقوله تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٩] ، فحذف الموصوف في قوله (يهدي للتي) ، لكي لا يقتصر الذهن في تحديد معناه على مُحدد ، فيوضح شيخ زادة دلالته بالقول : ((قوله (للتي) صفة لمحذوف أي للطريقة التي هي أقوم الطرق وعدل إلى الحذف مع ان الذكر هو الأصل ، ليذهب ذهن السامع كل مذهب مما يهدي إليه ... فان إبهام الموصوف وعدم تعيينه بنحو الملة أو الطريقة أو الحالة أو الخصلة يؤدي إلى ان ينتقل الذهن إليها ، والى ما يشاكلها فكأنه قيل يهدي لما لا يدخل تحت الوصف والحصر ، بخلاف ما لو ذكر واحد من الأمور المذكورة فان ذلك يتعين حينئذٍ))[3] .

فيما لم يذكر البيضاوي[4] (ت٦٨٥هـ) غرض الحذف، بل قدّر المحذوف فقط، وذهب الزمخشري[5] (ت٥٣٨هـ) ان النص يبعث فخامة في الحذف لا يبعثها الذكر، ففي الحذف ذوق للبلاغة إذ أُبهم الموصوف بداعي تفخيمه، وخالف أبو السعود (ت٩٨٢هـ) البيضاوي والزمخشري وشيخ زادة في بيان الغرض ، فذهب إلى ان الحذف

(١) الحاشية : ٢٠٤/٣ .

(٢) الحاشية : ٦٣١/٤ .

(٣) الحاشية : ٢١٢/٣-٢١٣ .

(٤) ينظر : تفسير البيضاوي : ٥٦٥/١ .

(٥) ينظر : الكشاف : ٥/٣ .

لغرض الإيذان بالغنى عن التصريح بها لغاية ظهورها ، ولاسيما بعد ذكر الهداية التي هي روادفها[١] ، ولعل ما ذهب إليه شيخ زادة هو الأقرب لاسيّما إذا أيقنا بأن هدايات القرآن لا حصر لها ، فهو تبيان لكل شيء من عالم المعنى وعالم المادة ، فلا يمكن ان نصل إلى كنهها بالتعيين فيكون الحذف للتعميم .

هـ-حذف جواب الشرط :

اهتم العلماء ببيان الشرط المحذوف وجوابه ، لكون حذفه ينبيء عن دلالة وغرض بلاغي يريد الحذف إيصاله ، وتركز جهدهم فيه ببيان دلالة حذف جواب الشرط ، فبين الرماني (ت٣٨٦هـ) بلاغة هذا الحذف بالقول : ((وإنما صار هذا الحذف هنا في مثل هذا أبلغ من الذكر ، لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنته العبارة))[٢] . فيدفع الحذف النفس إلى الانطلاق في تخيل ما يحدث لها ، وخصوصاً في تصوير الجزاء والعذاب كما سيتضح ذلك في الآيات المصُورة للعذاب الأخروي مما يدخل الهول والروع من عدم تحديد جواب الشرط ، ونعت ابن الأثير هذا النوع من الحذف بكونه ((من ألطف ضروب الإيجاز وأحسنها))[٣] . خصوصاً إذا كان المحذوف جواباً لـ (لو) .

وإذ اقتصر الرماني (ت٣٨٦هـ) على الجانب النفسي في غرض الحذف ، وابن الأثير ببيان دلالته على الإيجاز ، فان شيخ زادة قد توسع في بحثه البلاغي لحذف جواب الشرط ، وأغراضه وهذا ما قد يميزه عن البلاغيين الذين بحثوا هذا النوع من الإيجاز ، فمن الأغراض البلاغية الداعية لحذف جواب الشرط عند شيخ زادة :

التفخيم والتهويل :

إذ يبعث الحذف تفخيماً للمحذوف ، لخفائه عن النفس كقوله تعالى متوعداً :﴿ **كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ** ﴾ [التكاثر: ٣-٥] ، فحذف جواب الشرط ، وبين شيخ زادة دلالة الحذف بقوله : ((ان جواب لو محذوف أي لو

(١) ينظر : تفسير أبي السعود : ١١٣/٤ .

(٢) النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل) : ٧٧ .

(٣) المثل السائر : ٨٦/٢ .

تعلمون مابين أيديكم من الأمر كعلمكم ما تستيقنونه لشغلكم ذلك عن غيره ، لا التفاخر بكثرة العدد والأموال والأولاد ، لكنكم لا تعلمون ذلك فلذلك غفلتم عن الاستعداد والتهيء له بالطاعة فحذف الجواب للتفخيم ، فان الوهم حينئذٍ يذهب كل مذهب فيكون التهويل أعظم كأنه قيل : لو علمتم علم اليقين لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه ولكنكم ضِلال وجهلة))[1] .

ومن الحذف لغرض التهويل قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [سبأ: ٣١] ، فقد حذف جواب لو ، لتهويل الأمر على السامع ليتفطن إلى عظمة هذا اليوم ، فيكون رادعاً له عن المعاصي ، وحافزاً له للعمل لذلك اليوم ، ويبين شيخ زادة دلالة الحذف بالقول : ((فقال يا محمد أو يا من يتصور منه الرؤية إياهم على أذل حال محبوسين للسؤال يرد بعضهم إلى بعض القول في الجدال كما يكون عليه حال جماعة أخطأوا في أمر ، لرأيت أمراً عجيباً وحالاً فظيعاً والعياذ بالله ، فحذف جواب لو للتهويل))[2] .

وذهب الزمخشري[3] (ت٥٣٨هـ) ، والآلوسي[4] (ت١٢٧٠هـ) إلى تقدير الحذف بالأمر العجيب أو الفظيع وهي أغراض قريبة مما ذهب إليه شيخ زادة إلا انهم لم يفصلوا فيها .

وقد يدل المحذوف على شدة الهول الذي لا يمكن وصفه وإظهاره ، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥] فحذف جواب الشرط بداعي تهويل أمره ، إذ تبعث مثل تلك السياقات قلقاً نفسياً ، يجعل المتلقي يبحث عن الإجابة وعن تصور الموقف وتتحول تكاثر الاحتمالات عند الإنسان إلى رادع عن الآثام ، وبين شيخ زادة غرض السياق بقوله : ((معناه ولو يرى الذين ظلموا شدة عذاب الله لكماله في القدرة والغلبة لما اتخذوا من دونه انداداً ولندموا على اتخذاهم

(١) الحاشية : ٦٩١/٤ .

(٢) الحاشية : ٩٢/٤ .

(٣) ينظر : الكشاف : ٦٠٨/٣ .

(٤) ينظر : روح المعاني : ٣١٩/١١ .

إياها وحذف جواب لو ، كثير في التنزيل قال تعالى :﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ [الأنعام:٢٧] ،﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ﴾ [الأنعام:٩٣] ، وفي كلام الناس : لو رأيت فلاناً والسياط تزدحم عليه ، قالوا : وهذا الحذف أقوى وأشد في التخويف مما عُين له ذلك الوعيد ، فالحذف لكونه يذهب خاطر المخاطب إلى كل ضرب من الوعيد يكون أدل على استعظامه ، لأنه لو ذكر يكون فهم السامع مقصوراً على ما ذكر))[1] .

التعميم والمبالغة :

كحذف جواب الشرط في قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الفتح: ٢٥] ، إذ يذهب شيخ زادة إلى بيان غرض المبالغة في حذف جواب الشرط بقوله : ((وجواب لولا محذوف ... ، وفي هذا المحذوف دليل على شدة غضب الله تعالى على كفار مكة ، كأنه قيل لولا حق المؤمنين موجود لفعل بهم ما لا يدخل تحت الوصف والقياس بناء على ان الحذف للتعميم والمبالغة))[2] .

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٥٠] ، فذهب شيخ زادة إلى ان جواب الشرط محذوف ، أما غرضه فأوضحه شيخ زادة بالقول : ((وجواب لو محذوف ؛ لدلالة المقام عليه أي لرأيت أمراً عظيماً ، والحذف في مثل هذا الموضع أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب))[3] .

انه لا يحيط به الوصف :

كقوله تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٧] ، فقد بين شيخ زادة غرض حذف (لما) بالقول:

---

(١) الحاشية : ٤٧٥/١ .

(٢) الحاشية : ٣٦١/٤ .

(٣) الحاشية : ٣١١/٢ ، وينظر : ٤٥/٢ .

((والتقدير فلما أضاءت ما حوله انطفأت ناره وخمدت إلا انه حذف الجواب، للدلالة على ان حال المستوقد وما عرض له بعد ذلك في الخوف والحيرة ، والحسرة والخبط في الظلمة مما لا يدخل تحت الوصف والبيان ، كما حذف جواب لما في قوله سبحانه وتعالى في سورة يوسف ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] والتقدير ففعلوا ما فعلوا من الأذى ، فلما حذف جواب لما للدلالة على ان حال المستوقد بعدما أضاءت ما حوله مما لا يحيط به الوصف ولا يتبين بالتعبير))[١] .

ومن الحذف لأجل التعميم وعدم التحديد للانطلاق في عالم لا يحيط به وصف ، قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزُّمَر:٧٣] ، فبين شيخ زادة غرض حذف جوابها بالقول : ((حذف جواب (إذا) الثانية للدلالة على ان ثواب أهل الجنة لا يحيط به الوصف))[٢] .

ولعل شيخ زادة ببحثه لحذف جواب الشرط أظهر جمالية هذا الحذف وبلاغته ، وخصوصاً في آيات الوعيد والتهويل والجزاء .

و- حذف جملة أو أكثر :

بين ابن الأثير (ت٦٣٧هـ) هذا الحذف بالقول : ((حذف الجمل المفيدة التي تستقل بنفسها كلاماً ... أحسن المحذوفات جميعها وأدلها على الاختصار ولا تكاد توجد إلا في كتاب الله تعالى))[٣] . ودلل شيخ زادة على هذا الحذف في مواضع مبيناً سرّ حذف تلك الجملة ومنها ، ما حذف لأجل الإيجاز والاختصار كقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٧٣] ، ويوضح شيخ زادة دلالة الحذف بقوله : ((ان فحوى الكلام إنما يتم باعتبار اشتماله على الحذف والاختصار والتقدير ، فقلنا أضربوه ببعضها فضربوه فحييّ فحذفت الفاء الفصيحة مع ما عطف

(١) الحاشية : ١/١٥٦-١٥٧ .
(٢) الحاشية : ٤/٢١٦ .
(٣) المثل السائر : ٢/٦٢ .

بها أيضاً لدلالة قوله (كذلك يحيّ الله الموتى) عليه))[1] .

وقد يكون الحذف للإيجاز ، كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ [البقرة: ١٩٦] ، ويوضح شيخ زادة دلالة الحذف بالقول : ((قوله تعالى (حتى يبلغ الهدي محله) فيه إيجاز حذف ، لأن الرجل لا يتحلل ببلوغ الهدي محله حتى ينحر ... وتقدير الآية حتى يبلغ الهدي محله فينحر ، وإذا نحر فاحلقوا))[2] .

أما حذف أكثر من جملة فهو يكثر في الجمل القرآنية ولاسيما في الأسلوب القصصي ، إذ تحذف جزئيات في السياق يتخطاها النص للوصول إلى العناصر الجوهرية في القصة ، كقوله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٣٨-٤٧] ، ففي سرد هذه الحكاية كثير من الحذف في الأحداث والشخصيات أما الأحداث فهي في سؤال خزنة النار أهلها عن سبب وجودهم فيها ، وسؤال أهل الجنة خزنة النار عن سبب وجود أهلها فيها ، فاختصر القرآن ذلك كله ، وأما الشخصيات فلم يكن هناك ذكر لخزنة النار أو المسؤلين عليها بل ذكر أهل النعيم وأهل الجحيم ، لكون المراد من سرد الحكاية بيان العاقبة ، ولعل هذا ما أراده شيخ زادة ، إذ يقول : (((ما سلككم في سقر) مع جوابه حكاية من قبل المسؤلين لما جرى بينهم وبين المجرمين من السؤال والجواب والمعنى ان أصحاب اليمين لما تساءلوا بأن سأل بعضهم بعضاً أو بأن سألوا غيرهم عن المجرمين قال المسؤلون في جواب من سألهم قلنا لهم ما سلككم في سقر فأجابوا بأن قالوا لم نك من المصلين الخ ، إلا ان الكلام جيء به على الحذف والاختصار كما هو نهج التنزيل في غرابة نظمه))[3] .

وقد تحذف الجمل القرآنية لدلالة السياق عليها ، كقوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

(١) الحاشية : ٣٢٨/١ .
(٢) الحاشية : ٥٠٣/١ .
(٣) الحاشية : ٥٧٧/٤ .

﴾ [لقمان: ٢٧] ، وبين شيخ زادة دلالة الحذف هنا ، بعد ان يحدد قرينة الحذف ، بقوله : ((وفي الآية اختصار يسمى حذف الإيجاز لدلالة السياق على المحذوف وتقدير الكلام ، ولو ان أشجار الأرض أقلام ، والبحر يمده بسبعة أبحر وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله لما نفذت كلماته، ونفذت الأقلام والمداد، ونظير هذه الآية في اشتمالها على حذف الإيجاز قوله تعالى : ﴿ أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ ﴾ [البقرة: ١٩٦] ، أي فحلق رأسه لدفع ما به من الأذى ففدية))[١] . فكان حذف الجمل فيها للحفاظ على جمال النص القرآني ورشاقته مع الحفاظ على جانب المعنى .

ثانياً :إيجاز القصر وأغراضه البلاغية :

هو نوع من أنواع الإيجاز الذي لا يقوم على الحذف ، إنما هو تأدية المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة[٢] ، وتضمين العبارة القصيرة معاني كثيرة من غير حذف ، يؤدي إلى ان تنفجر من الألفاظ شحنات نفسية ودلالات هامشية تتآزر في بيان المضمون[٣] ، وإيصال النصوص البلاغية إلى قمة العطاء المعنوي بنزر يسير من الألفاظ ، وفي القرآن الكريم أمثلة رائعة ، يرى فيها متدبروا كتاب الله المجيد قِصراً في ألفاظها وثروة واسعة في معانيها ، ودلالاتها مع انها لا تطوي في مثانيها على محاذيف بل جاءت ثروة معنوية لألفاظ مختارة بعناية ودقة شديدين[٤] .

وتطرق شيخ زادة لإيجاز القصر مبيناً هذا النوع من الإعجاز اللفظي والمعنوي في مواضع منها :

أ-حصر أنواع النعم :

إذ أوجز تعالى في بيان أنواع النعم بقوله : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الزخرف: ٧١] ، إذ يبين تعالى بقوله (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين) أنواع النعم ، فعلى قِصَرْ هذه

(١) الحاشية : ٤٠/٤ .

(٢) ينظر : الإيضاح : ١٦٩ ، والطراز : ٥٤٦ .

(٣) ينظر : المعاني في ضوء أساليب القرآن : ٣٥٠ .

(٤) ينظر : البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ، عبد الرحمن الميداني : ٢٩/٢-٣٠ .

الألفاظ عبرت عن محيط الإنسان وعالمه وطريقة الاستمتاع به ، وأدوات الاستمتاع ومكامنه فجعله بالتذوق والنظر ، وبين شيخ زادة دلالة الإيجاز في النص بقوله : ((ولما ذكر الجنة وانها موضع الحبور ذكر ما فيها من النعم ، فذكر أولاً المطاعم بقوله : (يطاف عليهم بصحافٍ من ذهب) فيها الأطعمة ، ثم ذكر المشارب بقوله (وأكواب) فيها الأشربة ، ثم انه تعالى لما فصّل ما في الجنة بعض التفصيل ، ذكر بياناً كلياً فقال : (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين) ... أي ما تشتهيه الأنفس ومعناه ما تطلبه القلوب من شهواتها وتلذ الأعين أي ما تستلذه بنظرها ، وهذا حصر لأنواع النعم لأنها أما مشتهاة في القلوب وأما مستلذة في العيون))[١] .

وذهب الزمخشري[٢] (ت٥٣٨هـ) والرازي[٣] (ت٦٠٦هـ) ، إلى البيان الكلي لدلالة حصر النعم بالتذوق والنظر من غير تفصيل ، فيما ذكر العلوي (ت٧٤٩هـ) ان الآية غاية في الإيجاز إذ يقول : ((فهذه نهاية الإيجاز ، فانه قد استولى على جميع اللذات كلها من غير إشارة إلى تفصيل))[٤] .

ب-حصر مكارم الأخلاق :

إذ أوجز تعالى في بيان مكارم الأخلاق كلها ، في قوله تعالى :﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] ، ويبين شيخ زادة دلالة الإيجاز في الآية بقوله : ((ان الحقوق التي تستوفي من الناس ، وتؤخذ منهم ، منها ما يجوز إدخال المساهلة والمسامحة فيه ، ومنها ما لا يجوز فيه ذلك ، القسم الأول هو المراد بقوله تعالى (خذ العفو) وأما القسم الثاني فيه ان يؤمر بالعرف ، والعرف والمعروف ما يستحسنه الشرع القويم والعقل السليم ، ولو اقتصر على الأخذ بالعفو في هذا القسم لأدى ذلك إلى تغيير الدين وإبطال الحق ، وانه لا يجوز ، ثم إذا أمر بالعرف ورغب فيه ونهى عن المنكر ونفر عنه ، فربما أقدم بعض الجاهلين على السفاهة ، والإيذاء فلهذا السبب قال تعالى (واعرض عن الجاهلين) وهو تحمل الأذى والعفو عمن جنى

(١) الحاشية : ٣٠٤/٤ ، وينظر : ٦٧٦/٤ .
(٢) ينظر : الكشاف : ١٦٧/٤ .
(٣) ينظر : التفسير الكبير : ٦٤٢/٢٧ .
(٤) الطراز : ٣٢٠ .

والحلم على من جفا فظهر بهذا ان الآية مشتملة على مكارم الأخلاق فيما يتعلق بمعاملة الناس مع الغير))[1] .

فعلى إيجاز هذه الألفاظ ، قد عبرت عن قوانين دأب الإنسان في شتى العصور على طلب معرفتها ، ليتوصل في هذه الحياة إلى السلام والاطمئنان والعدالة والتعايش مع الغير وفق قوانين مُصانة من قبل البشر فجاءت الآية منظمة للحياة العربية بل الحياة الإنسانية على وجازة لفظها .

ج-التشريع للحياة :

إذ جاءت ألفاظ موجزة في القرآن ، وتشريع مهم بالنسبة لحياة الإنسان ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ١٧٩] ، إذ يبين شيخ زادة دلالة الآية على معاني الحياة في تشريع القصاص ، بلفظٍ موجز ، فيقول : ((وتقديره لكم في شرع القصاص حياة أي للقاتل والمقتول ... ان هذه الآية بلغت وجازة لفظها وكثرة معناها مع دقته واشتماله على الاعتبارات الغريبة إلى أرفع درجات الفصاحة والبلاغة))[2] .

فعلى وجازة العبارة في قوله (ولك في القصاص حياة) إلا انها حملت معاني كثيرة منها الحفاظ على الأرواح ، إذ ان القاتل يرتدع إذا عَلِمَ ان حياته مقابل حياة المقتول ، كما ان أهل المقتول بحكم القصاص بعد قتلهِ لا تكون لهم حجة للأخذ بثأره، كما انها تحُد من العصبية القبلية التي يتوارثها العرب والتي تستبيح الحُرمات، إذ ان المقتول ذو الشأن لديهم لا تكفي نفس واحدة أمامها ، لذلك شرع تعالى القصاص ، فالنفس بالنفس للحفاظ على أرواح الأطراف الباقية من المجتمع بدلاً من أن يكثر الفساد والضحايا فيه .

(١) الحاشية : ٢٩٢/٢ .

(٢) الحاشية : ٤٨٧/١ .

المحور الثاني : معنى الإطناب وأشكاله :

لغةً : هو من أطنب في المكان إذا أطال المقام فيه ، وقد ذهب اللغويون[١] إلى ان الإطناب يقصد به البلاغة في المنطق من ذمٍ أو مدح وقد أخذ من طَنُبَ الفرس إذا طال متنه ، ونهر مطنب إذا كان بعيد ، وجراد مطنب أي كثير ، فالإطناب لغة هو الإطالة والإكثار .

أما في الاصطلاح ((فهو تأدية المقصود من الكلام بأكثر من عبارة متعارف عليها))[٢] ، أو هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة[٣] ، والإطناب أسلوب بلاغي ، وهو ضد التطويل إذ ((ان الإطناب بلاغة والتطويل عيّ))[٤] ، وكل من الإيجاز والإطناب مواضعه التي يَجُمل فيها ، وبيّن أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) ان للإيجاز والإطناب دلالتيهما على حال المتلقي في القرآن الكريم ، فالمتلقي العربي لكونه حاد الذهن وثاقب النظر لا يحتاج إلى الإطناب بالخطاب في كلام الله تعالى فيخرج الكلام معه مخرج الإيجاز بالإشارة والوحي فيما يكون خطاب غيره كبني إسرائيل مثلاً ، خطاب تبسيط وتكشيف وإطناب وبأسلوب التكرار ، وذلك لبعد فهمهم وتأخر معرفتهم[٥] .

لذلك فالإطناب في كتاب الله تعالى مقصود في كل موضع من مواضعه وله دلالته وأغراضه التي من أجلها أطنب الباري وبسط في القول ، المقصود قصداً دقيقاً ، كما يرى شيخ زادة في نظرته لمواضع الإطناب ، فله جهد لا يخفى في هذا المضمار إذ بين أشكال الإطناب ومظاهره ، والأغراض التي يخرج إليها ، في كل مظهر من مظاهره ، ومن أشكال الإطناب التي أشار اليها شيخ زادة :

---

(١) ينظر : العين (طنب) : ٤٣٨/٧ ، ولسان العرب (طنب) : ٢٠٦/٨ .

(٢) الطراز : ٥٤٧ .

(٣) ينظر : المثل السائر : ١٠٩/٢ ، والإيضاح : ١٦٦ .

(٤) النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل) : ٧٨ .

(٥) ينظر : الصناعتين : ١٩٩ .

أولاً : **الاعتراض ، وأغراضه البلاغية** :

وهو كل كلام أُدخل في غيره أجنبي بحيث لو أُسقط لم تختل فائدة الكلام[١] ، وهو على قسمين على ما ذهب إليه ابن الأثير[٢] (ت٦٣٧هـ) ، والعلوي[٣] (ت٧٤٩هـ) ، القسم الأول ما يأتي في الكلام لفائدة ، فهو حينئذٍ يجري مجرى التأكيد والتقرير في السياق الذي يرد فيه ، والقسم الآخر ما يجيء بغير فائدة ، ويختص القرآن الكريم بالاعتراض المفيد فائدة التأكيد في الكلام ، ونبه ابن الأثير (ت٦٣٧هـ) على ان الغرض من مجيء الاعتراض في القرآن الكريم هو المبالغة في بيان المعنى إذ يقول : ((وقد ورد الاعتراض في القرآن كثيراً ، وذلك في كل موضوع يتعلق بنوع من خصوصيته المبالغة في المعنى المقصود))[٤] . ولم يكتفِ شيخ زادة بغرض المبالغة الذي نبه عليه ابن الأثير وإنما اتسع في بحثه لتلك الأغراض ومنها :

التأكيد :

إذ يؤتى بالجملة المعترضة بين كلامين متصلين معنىً لتأكيد الكلام الأول منها ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[البقرة: ١١١] ، فقد جيء بقوله : (تلك أمانيهم) اعتراضاً بين جملتين وبين شيخ زادة غرضه بالقول : ((قيل من حق الجملة المعترضة ان تؤكد ما قبلها ، فما وجه التأكيد فيها ، قلنا قوله تعالى (وقالوا لن يدخل الجنة) الخ حكاية لدعواهم الباطلة والأماني مما لا ثبوت لها فكانت باطلة فكانت مؤكدة للجملة المتقدمة))[٥] . فأكدت جملة (تلك أمانيهم) بطلان مقالتهم لذلك جيء بها معترضة في السياق .

وقد يكون الاعتراض لتأكيد خطأ الاعتقاد ، كقوله تعالى : ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ

(١) ينظر : الطراز : ٢٨٣ .
(٢) ينظر : المثل السائر : ١٦٣/٢ .
(٣) ينظر : الطراز : ٢٨٣ وما بعدها .
(٤) المثل السائر : ١٦٤/٢ .
(٥) الحاشية : ٣٩٠/١ .

﴿ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: ٨-٩] ، فبين شيخ زادة الجملة الاعتراضية وغايتها بالقول : ((ان قوله تعالى (ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) جملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه ... فقوله خاطئين ان كان مأخوذ من الخطأ ضد الصواب يكون الاعتراض لتأكيد خطأهم في الالتقاط فأن معنى فالتقطه ال فرعون ليكون لهم عدواً فأخطاؤا والتقطوا عدوهم ، فأكد هذا المعنى بالمعترضة ، وإن كان من الخطى بمعنى الذنب يكون الاعتراض لبيان الموجب لما ابتلوا به كأنه قيل انهم خاطئين آثمين بالكفر والمعاصي فعوقبوا على ذلك لما جرى عليهم بسببه))[١] . فجيء بالجملة المعترضة لتؤكد خطأهم وتقررهُ .

ونبه شيخ زادة على مواطن الجملة الاعتراضية في القرآن التي تأتي للتأكيد في سياقات متعددة ، كسياق التأكيد على التوصية للأم[٢] ، وكسياق تأكيد الإنكار بالاعتراض[٣] ، أو في سياق تأكيد الاعتياد والمداومة[٤] .

التوبيخ :

كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١٠١] ، فقد جيء بقوله تعالى (والله أعلم بما ينزل) رداً على كلامهم بحق الرسول﴿ ﷺ ﴾ (إنما انت مفتر) أما غرضه فبينه شيخ زادة بقوله : ((الظاهر ان قوله تعالى (والله أعلم بما ينزل) اعتراض بين الشرط وجوابه جيء به توبيخاً للكفار على قولهم (إنما انت مفتر) ، أي إذا كان هو أعلم بما ينزل من المصالح فما لهم ينسبون محمداً إلى الافتراء بناء على تبديله آية ونسخ بعضها ببعض مع ان ذلك مقتضى الحكمة البالغة والمصلحة اللائقة بكل وقت وزمان))[٥] .

---

(١) الحاشية : ٥٠٥/٣ .

(٢) الحاشية : ٣٦/٤ .

(٣) الحاشية : ٢٠٨/٤ .

(٤) الحاشية : ٤٣٤/٤ .

(٥) الحاشية : ١٩٩/٣ .

فيما ذهب العلوي[١] (ت٧٤٩هـ) إلى بيان ثلاثة أغراض لهذا الاعتراض ، وهي لتقرير مصلحة التبديل والتعريض بجهلهم بمعرفة ذلك ، وإعلامٌ لهم بان الله تعالى هو متولي ذلك التبديل فهي جامعة لتلك الأسرار ، وهي دلالات قد استوعبها نص شيخ زادة مفصلاً في التعريض .

الترغيب :

كقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِۖ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ﴾[فاطر: ١٨-٢١] وبيّن شيخ زادة الجملة المعترضة ودلالة الاعتراض بقوله: ((قوله تعالى :(ومن تزكى) ... جملة اعتراضية وقعت بين قوله (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة) وبين قوله (وما يستوي الأعمى والبصير) إلى قوله (وما أنت بمسمع من في القبور) ... والكلام المعترض إنما يؤتى به لتحقيق ما تقدم عليه ، وتأكيده فهذا الكلام جيء به ترغيباً لهم ، أي لأهل الخشية وتقوية لنشاطهم على الخشية ، وإقامة الصلاة لأنهما من جملة ما يتزكى به ، فكأنه قيل ومن فعلهما فنفعهما لا يعود إلا إليه))[٢] .

فالجملة الاعتراضية هنا لاستطابة خواطر المؤمنين ، ولترويضهم ، ولكي يكون دافعاً للعمل ومكافأة عليه .

ثانياً : **التكرير وأغراضه البلاغية** :

هو دلالة اللفظ على المعنى مرددا[٣] ، إذ يتكرر اللفظ لتقرير المعنى في الذهن والتأكيد عليه ، ونبه الخطابي (ت٣٨٨هـ) إلى سرّ بلاغة التكرير بالقول : ((ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها ، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها ، والاستهانة بقدرها))[٤] .

فالدافع للتكرار كما يرى الخطابي الاهتمام بالمكرر والعناية به ، لكونه من

(١) ينظر : الطراز : ٢٨٥ .

(٢) الحاشية : ١٠٧/٤ .

(٣) المثل السائر : ١٣٧ .

(٤) بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل) : ٥٢ .

المعاني المعظمة التي يراد تقريرها ، وقد يكون الدافع نفسياً إذ تحتاج بعض المواضع في الكلام التي تثير الشكوك لدى المتلقي أو التساؤل لديه ، تحتاج إلى تقرير لردع ذلك القلق ، بالتكرير إذ يقول السيوطي (ت٩١١هـ) : ((الكلام إذا تكرر تقرر))[١] . ومن هنا نجد ان التكرير في القرآن له بلاغته المبينة لمقام الكلام وحال المخاطب ، فبحث شيخ زادة هذا النوع من الإطناب بتوسع إذ لم يقتصر على ما ذهب إليه السابقون ، كالخطابي ، والسيوطي من تحليل لأسلوب التكرير ، وبيان تأثيره على المتلقي ، فبين الأغراض السياقية للتكرير حين يرد كعنصر أساس في تأديتها ، فأضاف إلى غرض التأكيد الذي قالوا به أغراضاً أخرى للسياقات القرآنية قد أشار إليها شيخ زادة ومنها :

التوكيد :

أكد على هذا الغرض أغلب البلاغيين[٢] ، وعدّوه أصلاً لمجيء المكرر في الكلام ، وأوضح ذلك شيخ زادة في مواضع من حاشيته ، ومنه قوله تعالى : ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ [هود: ٨٤-٨٥] ، فقد بيّن شيخ زادة موضع التكرير وغرضه بالقول : ((ان قوله (ولا تنقصوا المكيال والميزان) نهي عن ضد الشيء وقوله (أوفوا المكيال والميزان) أمر بإيفاء الشيء ، وهو العدل ... ثم انهما وان كانا متلازمين لا ينفك أحدهما عن الآخر إلا ان في ذكر أحدهما عقب الآخر في حكم التكرير ولا شك ان التكرير يفيد التأكيد وشدة العناية والاهتمام))[٣] . فكرر تعالى الطلب بإيفاء المكيال بأسلوبين النهي والأمر للتأكيد عليه وتقريره في الأذهان .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜۚ قَيِّمٗا﴾ [الكهف: ١-٢] ، فكرر معنى الاستقامة بلفظين ، وهما (ولم يجعل له عوجاً) و (قيما)

(١) الإتقان : ١٣٠/٢ .

(٢) ينظر : الإيضاح : ١٧٨ ، والطراز : ٢٨٧-٢٨٨ ، وعروس الأفراح : ٦٠٨/١ .

(٣) الحاشية : ٥٨/٣ .

، وبيّن شيخ زادة غرض هذا التكرير بقوله: ((ان (قيماً) إذا لم يقدر له متعلق كأنه بمعنى مستقيماً ، فيكون المعنى غير ذي عوج ، إلا ان من عادة العرب تكرار الكلام وإعادته ، كقوله تعالى ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ [النساء: ٢٥] ، فأنهن إذا كن محصنات لم يكن مسافحات ، وإذا كن مسافحات لم يكن محصنات فهما يؤديان معنى واحداً ، إلا انه كرر بناء على عادة العرب وكذلك قوله ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ [الكهف: ٢] ، فان الشديد هو البأس وكرر للتأكيد))[١] . فأكد استقامته بإيراده بصورتين صورة غير ذي عوج وصورة القيم المستقيم .

الدلالة على الشدة :

إذ يتكرر اللفظ لبيان شدة الأمر واستقلاليته في كل موضع ذكر فيه ، كقوله تعالى : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ ﴾ [البقرة: ٧] ، إذ كرر (على) في السياق الذي يمكن ان يؤدى من غير هذا التكرير ، وبين شيخ زادة دلالة هذا التكرير بالقول : ((ان تكريره أدل على شدة الختم في الموضعين وان كان أصل الدلالة حاصلاً بدون التكرير ، بناء على ان ختم يستعمل متعدياً ... فإذا استعمل بعلى يراد الدلالة على شدة الختم ، لان زيادة اللفظ مع حصول أصل المعنى بدونه ، تدل على زيادة المعنى ، والمعنى المناسب للزيادة ههنا ، هو الشدة فإذا دخلت كلمة (على) على القلوب وعطف السمع عليها بالواو حصلت الدلالة على شدة الختم فيما دخلت هي عليه ، والدلالة الثانية ، الدلالة على استقلال كل واحد من القلوب والأسماع بكونه مختوماً عليه))[٢] . فتأكدت شدة العذاب بالتكرير .

وقد يراد التكرير ، لتأكيد الوعيد وبيان شدته ، كقوله تعالى :﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر:٣-٤] فقد ذهب شيخ زادة في بيان غرضه إلى القول: ((إن التكرير فيه لتأكيد الإنذار وفي (ثم) دلالة على ان الإنذار الثاني أبلغ وأشد))[٣]، فأوحى توالي الإنذار بشدته

(١) الحاشية : ٢٤٧/٣ .

(٢) الحاشية : ١٢٢/١ .

(٣) الحاشية : ٦٩٠/٤ .

المبالغة :

كتكرير اللفظ في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر: ٢٩-٣٠] ، فقد بيّن شيخ زادة دلالة تكرار الألفاظ (كلهم ، واجمعون) الدالة على معنى واحد بحسب الظاهر ، إذ يقول : ((الفائدة في تكرار التأكيد المبالغة في الدلالة على سجود الكل فأنه لو قيل سجد الملائكة من غير التأكيد لاحتمل ان يكون الساجد بعض الملائكة ، فلما قيل (كلهم) زال هذا الاحتمال ، وظهر انهم سجدوا بأسرهم ، ثم كرر التأكيد للمبالغة في إزالة احتمال كون الساجد بعضهم))[1] . فأزال التكرير التساؤلات التي قد تُثار عن جمعية السجود أو بعضيته بالتأكيد المكرر ، وقد تُكَرَر آيات بأكملها لغرض المبالغة في التأكيد على مضامينها ، وتطرق شيخ زادة تكرار قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فقد كررت في [سورة البقرة الآية ١٣٤] ، [والآية ١٤١] فبين شيخ زادة سرّ التكرير ، بقوله : ((ان هذه الآية نزلت سابقاً بعد ان ردّ الله تعالى قول اليهود في إدعاء اليهودية على يعقوب (عليه السلام) وانهم مقتدون به فيها ... ثم كررت ههنا للمبالغة في التحذير والزجر عن الافتخار بالآباء والاتكال عليهم ، فان قولهم ذلك لما تضمن الافتخار والاتكال المذكورين زجرهم الله تعالى عن ذلك بقوله (تلك امة)))[2] . فكرر سياق الآية بداعي التأكيد على مضمونها وكذلك لتشابه مقالة المخاطبين وان كانا من جنسين مختلفين مما اقتضى الرد الواحد عليهما .

ثالثاً : **الإيضاح بعد الإبهام وأغراضه البلاغية** :

ونعني به المجيء باللفظ مبهماً في أول السياق ، ثم يزال إبهامه بتوضيحه ، وذلك ((ليُرى المعنى في صورتين مختلفتين أو ليتمكن في النفس فضل تمكن ، فان المعنى إذا ألقي على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح))[3] .

---

(١) الحاشية : ١٥٣/٣ .

(٢) الحاشية : ٤٤٢/١ .

(٣) الإيضاح : ١٧٦-١٧٧ .

وقد تنبه شيخ زادة إلى بلاغة هذا النوع من الإطناب فتطرق إلى أغراضه التي يُساق من اجلها ، ومنها :

الاعتناء والتشويق والتفخيم :

فان اللفظ المبهم بتفسيره وبيانه ، قد يراد به الاعتناء بشأنه والتشويق إلى معرفته ، كقوله تعالى : ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧] ، فشيخ زادة قد بيّن بلاغة السياق بقوله : ((لو قيل من أول الأمر لعلي أبلغ أسباب السماوات ، لتم المقصود ، إلا انه ذكر الأسباب أولاً على الإبهام ثم أوضحها بقوله أسباب السماوات لفائدتين : الأولى تفخيم شأن الأسباب التي أمل بلوغها ، لان إيضاح الشيء بعد إبهامه إنما يكون للاعتناء بشأنه ، والتنبيه على جلالة قدره ، والثانية تشوق السامع إلى معرفتها ، فان النفس تواقة إلى ما لم تنله ، فذكر الأسباب مبهماً لتتشوق نفس هامان إلى معرفة المراد منها ، ثم أوضحها ليكون إيرادها على نفس تيقظت وتشوقت إلى معرفتها ، فيحصل المقصود من إيرادها))[1].

فالتفسير بعد الإبهام كما فصّل شيخ زادة ، يكون استثارة للنفس ودافعاً لها على التساؤل عن سرّ الإبهام فهو إيقاظ للنفس ، ودافعاً لها لطلب المعرفة .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق:١١-١٣] ، إذ يوضح شيخ زادة دلالة السياق فيه ، بقوله : ((انه تعالى لما عطف الطارق على السماء ولا يعرف المراد منه بدون التفسير والبيان قال (وما أدراك ما الطارق) توطئة لبيان المراد منه ، وتفخيماً لشأنه ،؛ وإعلاءً لقدره ، ثم بينه بالنجم الثاقب المضيء الذي يطرق ، أي يبدو بالليل ، ويخفى بالنهار ، فان ذكر الشيء مجملاً ثم تفصيله ينبيء عن فخامة شأنه))[2] .

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [سبأ: ٢٧] ، فأبهم الضمير العائد إلى الله تعالى ، ثم فسر بداعي تفخيمه إذ يقول شيخ زادة في دلالته : ((فقوله (هو) مبتدأ و(الله) خبره ، والعزيز الحكيم صفتان

(١) الحاشية : ٤/٢٣٤ .

(٢) الحاشية : ٤/٦٤٤ .

فيكون (هو) من قبيل الضمير المبهم المفسر بما بعده تفخيماً لشأن المرجح إليه وتمكيناً له في الذهن فأنك إذا قصدت الإبهام للتفخيم تعقلت المرجح في ذهنك ، ثم تعبر عنه بضمير الغائب لتشوق نفس السامع إلى المعبر عنه ثم تذكر المرجح))[١] . فهذا الأسلوب من الإطناب يوفر بلاغةً للسياق الوارد فيه مرةً بالتشويق وأخرى بالتفخيم عن طريق تفسير المبهم وتوضيحه للذهن المنتظر لذلك.

التعظيم :

إذ يفسر اللفظ المبهم لغرض تعظيمه ، كقوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٤] فجيء بلفظ (لك وعنك) مبهمتين ثم فسرتا ، وقد بيّن شيخ زادة دلالة ذلك الإبهام والتفسير بقوله : ((ان زيادتهما مقدمين على المفعول تفيد إبهام المشروح والموضوع والمرفوع ثم تبيينه وتوضيحه ومن المعلوم ان الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال أوقع في الذهن وأبلغ في البيان ، وذلك يدل على تعظيم المشروح والموضوع والمرفوع))[٢].

التأكيد :

كقوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٢٥-٢٦] ، إذ تكرر لفظ (لي) مبهماً ، لغرض التأكيد على طلب الانشراح والتيسير ، وبيّن شيخ زادة دلالة تكريرهما مبهمة ومفسرة بالقول : ((ما فائدة (لي) في قوله : (أشرح لي صدري ويسر لي أمري) ، مع ان الكلام يستقيم بدونه وتقرير الجواب ، انه أبهم الكلام أولً فقال أشرح لي ويسر لي ، فعلم ان ثمة مشروحاً وميسراً ، ثم بين ورفع الإبهام بذكر المشروح والميسر وهما الصدور والأمر فكان الرفع بعد الإبهام أكد لطلب الشرح والتيسير لصدره وأمره ... لان الرفع بعد الإبهام تكرار للمعنى الواحد من طريق الإجمال والتفصيل))[٣] .

وذهب ابن الناظم[٤] (ت٦٨٦هـ)، والقزويني[١] (ت٧٣٩هـ) إلى ان زيادة (لي)

---

(١) الحاشية : ٩١/٤ .

(٢) الحاشية : ٦٧١/٤ .

(٣) الحاشية : ٣١٣/٣ .

(٤) ينظر : المصباح في علوم البلاغة : ٤١ .

مبهمة ومفسرة لأجل التأكيد، فيما فصّل شيخ زادة في دلالتها ، كما ذكر سابقاً.

للتأثير على النفس :

كقوله تعالى :﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣] ، فبين شيخ زادة سرّ الفخامة والتأثير على النفس في هذا النظم بقوله : ((لا يخفى ان محل الحب هو القلب فكان الظاهر ان يقال وأشربت قلوبهم حبّ العجل إلا انه سلك طريق الإبهام في التفسير حيث أبهم مكان الإشراب بإسناده إلى الكل فانه يدل على ان شيئاً ما في الكل أُشرب الحب ، وتداخل هو فيه إلا انه لا يدري بخصوصه أي شيء هو ، ففسر ذلك الشيء بقوله : (في قلوبهم) ولا يخفى ان تبيين الشيء وتفصيله بعد الإبهام والإجمال ، أوقع في النفس وألذ))[٢] . فأبهم مكان الإشراب إذ جعلهُ إلى كل جزء فيهم ثم زاد عليه بتفسير أكد خصوصية القلب في ذلك الشرب .

رابعاً : **عطف الخاص على العام وأغراضه البلاغية**:

واسماه بعض البلاغيين (ذكر الخاص بعد العام) [٣]، وهو ان يؤتى باللفظ عاماً، ثم يفرد بالذكر ويخصص فرد من أفراده بداعي تفضيله ، وذهب عدد من البلاغيين كالقزويني[٤] (ت٧٣٩هـ) ، والسبكي[٥] (ت٧٧٣هـ) ، والتفتازاني[٦] (ت٧٩٢هـ) إلى ان هذا النوع من الإطناب يأتي للتنبيه على فضل الخاص ، ولإبراز الخاص بصورة الجنس المغاير عما ذكر في العام .

وقد ذهب شيخ زادة في بحثه إلى أغراض مقاربة لما ذكروه كالتعظيم ، والتشريف والتنبيه على مرتبة الخاص فيما زاد عليهم أغراضاً بلاغية أخرى كالتغليظ والمبالغة والدلالة على كمال الخاص .

فمن هذه الأغراض التي أشار إليها :

---

(١) ينظر : الإيضاح : ١٧٦ .

(٢) الحاشية : ٣٥٤/١ .

(٣) ينظر : الإيضاح : ١٧٨ ، والمطول : ٤٩٣ .

(٤) ينظر : الإيضاح : ١٧٨ .

(٥) ينظر : عروس الأفراح : ٦٠٧/١ .

(٦) ينظر : المطول : ٤٩٣ .

التشريف والتعظيم :

كقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ٤] ، إذ أفرد الإيمان بما قبل الرسول﴿ ﷺ ﴾ بالذكر على الرغم من كون الإيمان به داخلاً فيما ذكر ، وذلك في قوله تعالى (والذين يؤمنون بما أنزل اليك) ويبين شيخ زادة غرض هذا الذكر بقوله : ((من قبيل عطف الخاص على العام ، تشريفاً لهم وتعظيماً من حيث انهم جمعوا بين الإيمانين أصالة ، وهم مؤمنوا أهل الكتاب أعني الإيمان بالقرآن والإيمان بالكتب المتقدمة))[1] . وقد يذكر الخاص بعد العام لتعظيمه لكونه أصلاً ، وذلك كقوله تعالى :﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٢] ، إذ خصص المنزل على محمد ﴿ ﷺ ﴾ بالذكر بداعي تعظيمه ، إذ يقول شيخ زادة فيه : ((ان الإيمان بالقرآن المنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) من جملة أفراد ما يجب الإيمان به فلابد لتخصيصه بالذكر بعد ذلك التعميم من نكتة وهي ما ذكره من التعظيم لشأنه والإشعار بأنه الأصل))[2] .

التأكيد والمبالغة :

كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [نوح: ٢-٣] ، فقوله (واطيعون) جيء به تأكيداً للأمر ومبالغة فيه ويوضح شيخ زادة غرض الأمر فيه بالقول : ((عليه الصلاة والسلام أمر قومه بثلاثة أشياء ، بعبادة الله تعالى وتقواه وطاعة نفسهِ ، فالأمر بالعبادة يتناول الأمر بجميع الواجبات والمندوبات من أفعال القلوب والجوارح ، والأمر بتقواه يتناول الزجر من جميع المحضورات والمكروهات ، وقوله (وأطيعون) يتناول الأمر بطاعته في جميع المأمورات والمنهيات ، وهذا وإن كان داخلاً في الأمر بعبادة الله تعالى وتقواه ، إلا انه خصه بالذكر بعد ذكر الأمر بها تأكيداً لذلك الأمر ومبالغة في تقريره وإيجاباً عليهم ان يؤمنوا به ويصدقوه في

(١) الحاشية : ٩٧/١ .

(٢) الحاشية : ٣٤٤/٤ .

دعواه الرسالة))[1] .

وقد يكون ذلك التخصيص بالذكر ، لكون الإيمان به (عليه الصلاة والسلام) هو الإيمان بما سبق ، فهو الواسطة والدليل لمعرفة الله ، الذي تقتضي حكمته (عز وجل) ان تكون معرفة أحكامه بالواسطة كالرسل والكتب السماوية ولتتجسد للإنسان قيم العبودية الحقة عن طريق هؤلاء الأنبياء ، وطريقة تعاملهم مع الله سبحانه وتعالى في مقام العبودية التي هي درس من دروس تعلم الإيمان الحقيقي .

ومن الافراد بالذكر لأجل المبالغة قوله تعالى في حق اليهود : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ [البقرة: ٩٦] فنلحظ ان السياق خصصهم بالذكر ، لبيان شدة تعلقهم بالحياة كيفما كانت ، وذلك ما أوضحه شيخ زادة بقوله : ((انهم مع دخولهم تحت الناس أفردوا بالذكر للمبالغة في بيان شدة حرصهم كأنهم لتوغلهم في الحرص على الحياة جنس خارج عن الناس))[2] .

للتنبيه :

إذ ينبيء العطف على التنبيه على فضل المخصص وشرفه وعظمته ، بالنسبة إلى ما ذكر قبله من لفظ العام ، كقوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩] ، فالحج داخل في مواقيت الناس ، إلا انه أفرده بالذكر، أما غرض هذه الإفراد بالذكر فيوضحه شيخ زادة بقوله : ((فان الخاص قد يذكر بعد العام على سبيل العطف ، للتنبيه على مزية الخاص ، وفضله ، حتى كأنه ليس من جنس العام ، تنزيلاً للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات فان الحج من حيث ان يراعي في أدائه وقضائه الوقت المعلوم ، بخلاف سائر العبادات التي لا تعتبر في قضائها وقت معين ، كذلك كان له مزية الاختصاص بالتوقيت بالأهلة ، مختصة بالذكر تنبيهاً على هذا المعنى))[3] . فكان لإفراده للحج غاية بلاغية تتعلق بخصوصيته في اعتبار الوقت .

---

(١) الحاشية : ٥٤٨/٤-٥٤٩ .

(٢) الحاشية : ٣٥٩/١ .

(٣) الحاشية : ٤٩٨/١ .

وقد ينبه على الفضل والشرف بوساطة افراد اللفظ الخاص بالذكر بعد ذكر العام، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن: ٦٧-٦٨] إذ ذكر النخل والرمان على الرغم من كونهما من جنس الفاكهة ، أما غايته فتساءل عنها شيخ زادة وأجاب بقوله : ((لِمَ عطف النخل والرمان على الفاكهة وهما من جملتها وتقريره انه من قبيل عطف الخاص على العام بياناً لفضله وتنبيهاً على شرفه فكأنهما لمزيتهما جنسان آخران ... وأيضاً النخل ثمره وفاكهة وغذاء ، والرمان فاكهة ودواء ، فلم يخصا للتفكه بهما ، فصارا باعتبار ما فيهما من القيد الزائد كأنهما لم يدخلا تحت مطلق الفاكهة))[١] .

وقد ينبه السياق القرآني على عظمة شأن بعض الأوامر وعلو قدرها من بين أصناف الأوامر بالخير ، وذلك في قوله تعالى :﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٩-١١٠] ، ومن أمثال هذه السياقات التي تكثر في النص القرآني ، فان لإفرادها بالذكر دلالة أوضحها شيخ زادة بقوله : ((فان الخير يتناول أعمال البر كلها إلا انه خصّ من بينها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر ، تنبيهاً على عظم شأنهما وعلو قدرهما عند الله))[٢] .

التغليظ والمبالغة :

كقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ [النجم: ٣٢] ، فأفرد الفواحش بالذكر ، على الرغم من كونها داخلة في جنس الإثم المنهي عنه في السياق ، إلا ان إفرادها بالذكر له دلالته التي أوضحها شيخ زادة بقوله : ((وفسر الكبائر بما يكبر عقابه من الذنوب ، وجعل الفواحش أخصٌ منها وفسرها بما فحش من الكبائر ، فيكون عطف الفواحش على الكبائر ، للتغليظ والمبالغة في الذم كعطف جبرائيل وميكائيل على الملائكة في المدح ، كأنه قيل والفواحش منها خاصة))[٣] . فذكر الخاص أنباء

(١) الحاشية : ٤٣٦/٤ ، وينظر : ٣٤٤/٣ .
(٢) الحاشية : ٣٨٩/١ .
(٣) الحاشية : ٤١٤/٤ .

على خصوصيته في الحكم ، وفي ذلك تغليظ وردع للانتهاء من ممارستها .

للدلالة على كمال الخاص :

كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٠٥] ، إذ خصص إهلاك الحرث والنسل ، بالإفساد بعد ان نهى عن الإفساد كله وبين شيخ زادة دلالة ذلك في الآية بالقول : ((قوله (ويهلك) ، عطف على (ليفسد) من قبيل عطف الخاص على العام ، للدلالة على كون إهلاك الحرث والنسل غاية الإفساد بحيث صار لكماله فيه كأنه حقيقة مغايرة))[١] .

خامساً : التذييل وأغراضه البلاغية :

عرفه البلاغيون بالقول : هو تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد ، وقسموها إلى قسمين الأول لا يخرج مخرج المثل ، لعدم استقلاله بإفادة المراد وتوقفه على ما قبله ... وضرب يخرج مخرج المثل[٢] .

ووافق شيخ زادة[٣] البلاغيين على حدهِ ، فيما لم يشر إلى أقسامه بل اكتفى بالأغراض التي يخرج إليها هذا النوع من الإطناب ، مؤكداً على دلالة مجيئه لتأكيد الكلام المشتمل التذييل على معناه في السياق ، فمن الأغراض التي أشار إليها شيخ زادة لإطناب التذييل :

التأكيد :

كالتذييل في قوله تعالى : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦] ، فقد بين شيخ زادة دلالة التذييل على التأكيد بقوله : ((قوله تعالى(وفوق كل ذي علم عليم) تذييل لما قبله ، فان التذييل ان يعقب الكلام بما يشمل على معناه تأكيداً له وهو من هذا القبيل ، فانه تعالى بين أولاً ان أخوة يوسف (عليه الصلاة والسلام) وان كانوا علماء فضلاء إلا انه تعالى

(١) الحاشية : ٥١٤/١ .

(٢) ينظر : الإيضاح : ١٧٩ ، والطراز : ٤٥٣ ، والمطول : ٤٩٦ .

(٣) ينظر : الحاشية : ٢٩١/٢ ، ٩٤/٣ .

فضل يوسف (عليه الصلاة والسلام) عليهم في العلم ثم قرر ذلك بقوله (نرفع درجات من نشاء) بسبب العلم كما رفعنا درجات يوسف وأكد ذلك بأنه المنفرد بالعلم الكامل))[1] .

التهديد :

كقوله تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُـِٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [البقرة: ١٠٨] ، فيقول شيخ زادة في دلالة سياقه : ((إنّ قوله: (ومن يتبدل الكفر بالإيمان) الآية تذييل لقوله :(أم تريدون ان تسألوا رسولكم) الآية على سبيل التهديد فلابد ان يشتمل على معناه ... فكان مقتضى الظاهر ان يقال في التذييل ومن لم يثق به وبآياته البينة واقترح عليه تعنتاً بعد تمام المعجزة فقد ضل ، إلا انه عبّر عن ترك الثقة بما أظهره من المعجزات باختيار الكفر عن الإيمان للتصريح بان طلب المعجزات على سبيل التعنت واللجاج كفر ... انه أبد ذلك الإنكار بالتذييل الدال على كونه كفراً مبالغة في المنع لئلا يخطر شيء من الاقتراح ببالهم))[2] . فقد أكد السياق القرآني التهديد الواقع في جمل الآية بجملة التذييل التي تقوم بوظيفتها البلاغية بأتم وجه في السياق القرآني .

سادساً : وضع الظاهر موضع المضمر وأغراضه البلاغية :

هو نوع من الإطناب يذكر فيه الاسم الظاهر في موضع ينبغي فيه ان يُضمر ، لكونه مذكوراً في السياق ، وذلك لغرض الإيضاح وإبراز المعنى وتقريره وتثبيته ، إذ يفتقر الضمير إلى تلك الدلالات[3] ، وتنبه الجرجاني (ت٤٧١هـ) إلى هذا النوع وبلاغته إذ يقول : ((إذا حدثت عن اسمٍ مضاف ثم أردت ان تذكر المضاف إليه ، فان البلاغة تقتضي ان تذكره باسمه الظاهر ولا تضمره ... لا يخفى على من له ذوق حسْنُ هذا الإظهار وان له موقعاً في النفس وباعثاً للأريحية))[4] .

فجعل الجرجاني بلاغة هذا النوع بتأثيره على النفس لشدة ما يبعثه من تأكيد

---

(١) الحاشية : ٩٤/٣ .

(٢) الحاشية : ٣٨٧/١-٣٨٨ .

(٣) ينظر : علم المعاني (دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني) ، د. بسيوني عبد الفتاح بسيوني : ٢٦٥ .

(٤) دلائل الإعجاز : ٥٥٥-٥٥٧ .

ووضوح يبعث الاطمئنان في مواضعٍ ، فيما لم يجعله أغلب البلاغيين[١] من أقسام الإطناب ، وعدّوه من خروج الكلام على مقتضى الظاهر ، وخالفهم بذلك الزركشي إذ يقول : ((والعجب ان البيانيين لم يذكروه في أقسام الإطناب))[٢] . وآثرنا ان نضع هذا النوع من الأساليب في الإطناب ، لكونه بمثابة التكرير للفظ لفائدة معنوية يستوجبها السياق مع مراعاة حال المخاطب ، إذ ارتبط هذا الموضوع عند شيخ زادة بمراعاة حال المخاطب وذلك يتبين من خلال العرض للأغراض البلاغية التي قررها شيخ زادة لوضع الظاهر موضع المضمر ومنها :

المبالغة :

كقوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا ﴾ [البقرة: ٥٩] ، فذكر قوله : (الذين ظلموا رجزاً) مظهراً ، وكان الأصل ان يذكر مضمراً ، للمبالغة في تقبيحهم على ما ذهب إليه شيخ زادة إذ يقول : ((ان مقتضى الظاهر ان يقال فأنزلنا عليهم رجزاً، إلا انه وضع الظاهر موضع المضمر، مبالغةً في تقبيح أمرهم ، لأن المذكور أولاً وان لم يكن في وضع المظهر موضع المضمر ، إلا انه يفيد تقبيح أمرهم ، والتسجيل عليهم بالظلم فتكريره يفيد زيادة التقبيح فكان فيه مبالغة في التقبيح))[٣] . إذ ذكرهم مرتين وخصصهم بالظلم .

فالظاهر أبلغ في التقبيح ، وآكد في اختصاصهم به ، إذ لا تبقى لديهم الحجة لنكران ذنبهم إذ حرفوا كلام الله تعالى عن موضعه فجيء بالسياق الآكد والأثبت لهذا المعنى .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ [الواقعة: ٨-٩] إذا أظهر (أصحاب الميمنة) الثانية في موضع الإضمار ، وكذلك (أصحاب المشئمة) أما دلالته فأوضحها شيخ زادة بقوله : ((والمعنى أصحاب الميمنة أي شيء هم ، فوضع الظاهر موضع المضمر للمبالغة في وصفهم بما دل

(١) ينظر : مفتاح العلوم : ٢٩٤ ، والإيضاح : ٨١ ، وعروس الأفراح : ٢٦٤/١ ، والمطول : ٢٨١ .
(٢) البرهان في علوم القرآن : ٤٨٢/٢ .
(٣) الحاشية : ٣٠٦/١ .

على المدح ، كأنه قيل ما تدري من الخير والكرامة ، وما لأصحاب المشأمة من الشر والعذاب))[1] . فتكريرهم في السياق يرسخ المعنى ويقويه .

التفخيم :

إذ يذكر اللفظ ظاهراً في موضع إضماره تفخيماً له ، وتأكيداً عليه ، كقوله تعالى : ﴿ٱلْقَارِعَةُ مَا ٱلْقَارِعَةُ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١-٣] ، ويبين شيخ زادة دلالة السياق بقوله : ((ووضعت القارعة موضع الضمير العائد إلى المبتدأ الأول ، تفخيماً لشأنها وإفادة لزيادة التهويل، وتقدير الكلام القارعة ، أي شيء هي، ثم زادها تفخيماً فقال وما أدراك ، يعني انك لا علم لك بكنهها لأنها من العظم والشدة بحيث لا تبلغهُ دراية أحد ولا وهمهُ))[2] . وساعد في تصاعد دلالة التفخيم في السياق مع ذكر الظاهر موضع الضمير أسلوب الاستفهام الذي يثير المتلقي وينشط ذهنه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ٱلْحَآقَّةُ مَا ٱلْحَآقَّةُ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١-٣] ، إذ يقول شيخ زادة في دلالة السياق : ((ولا عائد في الجملة الاستفهامية ، إلا انه وضع الظاهر موضع الضمير ، بكون ذلك أدل عليه وآكد ، فان البلغاء يضعون الظاهر موضع المضمر الضمير في نظمهم ونثرهم لقصد التعظيم ، والتفخيم ، فيقولون زيد ما زيد بدل ان يقال ما هو لتعظيم شأنه وتفخيم أمره ، فان دلالة الظاهر على ما هو منشأ التعظيم والتهويل أكثر من دلالة الضمير عليه))[3] .

فنجد بذلك ان هذا الأسلوب أصيل في الكلام العربي، يجلب له التأكيد والتفخيم، وقد جيء به في القرآن الكريم على أدق وجه وآكده .

لإفادة الاختصاص :

كقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١] ، إذ يبين شيخ زادة دلالة سياقه بالقول : ((ان المقام ، مقام الإضمار لتقدم ذكر الناس ، إلا انه وضع الظاهر موضع الضمير ، ليفهم اختصاص كفران

(١) الحاشية : ٢٣٨/٤ .

(٢) الحاشية : ٦٨٨/٤ .

(٣) الحاشية : ٥٣٤/٤-٥٣٥ .

النعمة بهم وانهم هم الذين يكفرون فضل الله تعالى ولا يشكرونه ، فان وضع المضهر المعرف باللام موضع المضمر يفيد اختصاص الحكم به))[1] .

ومنه قوله تعالى :﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الروم: ٤٤-٤٥] ، ويبين شيخ زادة نمط الإطناب ودلالته إذ يقول : ((فان مقتضى الظاهر ان يقال ليجزيهم فلما وضع الموصول موضع الضمير وجعل الصلاح صلة له أكد به اختصاص الصلاح بهم ولتميزهم به عن أضدادهم فقصد بهذا التأكيد تعليل إثبات البغض للكافرين وإثبات المحبة للمؤمنين))[2] . فذكر تعالى جزاء المؤمنين صريحاً في قوله (ليجزي الذين آمنوا) في الإضمار ليميزهم بمزيد الفضل والاختصاص بالرحمة .

للتنصيص :

إذ يصرح بالاستحقاق المرافق لذكر مستحقيه والتأكيد عليه ، كقوله تعالى :﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر: ٣٢] ، إذ يبين شيخ زادة دلالة وضع المظهر موضع المضمر بالقول : ((قوله للكافرين من وضع الظاهر موضع الضمير للتنصيص على كفر من افترى على الله وكذب بالصدق))[3] .

لتعليل الحكم :

كقوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأعراف: ٤٠-٤١] ، فذكر جزاء الظالمين في مقام إضماره لبيان علة الحكم عليه ، بكون جنهم مهاداً لهم ، ويبين شيخ زادة دلالة السياق إذ يقول : ((انه من باب وقوع الظاهر موضع الضمير للدلالة على ان تلك العقوبة الشديدة كانت لاستجماعهم هذه الأوصاف الذميمة المترتبة على تكذيبهم))[4] .

---

(١) الحاشية : ٤/٢٤٢-٢٤٣ .

(٢) الحاشية : ٤/٣١ .

(٣) الحاشية : ٤/٢٠٣ .

(٤) الحاشية : ٢/٢٣٩ .

ومثله تعليل استحقاق الثواب للمؤمنين، بإعادة لفظهم مُظهر في مقام الإضمار، كقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:١٧-١٨]، ويوضح شيخ زادة دلالة السياق فيقول : ((والنكتة في وضع الظاهر موضع الضمير بعد الاحتراز عن تفكيك النظم الدلالة على انهم كما يستحقون البشارة لاجتنابهم وإنابتهم يستحقونها أيضاً لكونهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أي لكونهم نقاداً يميزون بين الحق والباطل ، بناء على ان تعليق الحكم بالوصف يشعر عليته للحكم المذكور ، فلو قيل فبشرهم لفهم ان استحقاقهم للبشارة إنما هو لأجل اجتنابهم وإثابتهم ، فلما وضع الظاهر موضع الضمير ، فُهِمَ إن ذلك الاستحقاق لأجل مجموع ما لهم من الأوصاف الثلاثة))[١] .

أما المساواة فهي النوع الثالث من أساليب الكلام ، عرفها العلوي بالقول : ((هي تأدية المقصود بمقدار معناه من غير زيادة فيه ولا نقصان عنه))[٢] . إذ يعبر عن المعنى بالكلام العربي بثلاث طرق، أما باللفظ القليل ، فهو إيجاز، أو بلفظ زائد عن معناه، ويسمى إطناباً ، أو بلفظ مساوٍ له ، وتسمى مساواة .

واختلف العلماء في وجود المساواة في الكلام ، فلم يذكر السكاكي[٣] (ت٦٢٦هـ) المساواة قسيماً ثالثاً للإيجاز والإطناب ، فيما ذكره القزويني[٤] (ت٧٣٦هـ) ، والسُبكي[٥] (ت٧٧٣هـ) ، والتفتازاني[٦] (ت٧٩٢هـ) ، وعدّه ابن الأثير[٧] (ت٦٣٧هـ) قسماً من أقسام الإيجاز اسماه (الإيجاز بالتقدير) ، أي ما ساوى لفظه معناه ، وفي خضم هذه الاختلافات حسم السيوطي (ت٩١١هـ) الأمر بالحكم القاطع إذ يقول :

---

(١) الحاشية : ١٩٧/٤ .
(٢) الطراز : ٥٤٨ .
(٣) ينظر : مفتاح العلوم : ٣٨٧-٣٨٨ .
(٤) ينظر : الإيضاح : ١٦٥ .
(٥) ينظر : عروس الأفراح : ٥٨٤/١ .
(٦) ينظر : المطول : ٤٧٩ .
(٧) ينظر : المثل السائر : ٩٣/٢ .

((ان المساواة لا تكاد توجد ، خصوصاً في القرآن))[1] .

وذهب شيخ زادة في بحثه مع السيوطي، إذ لم يذكر للمساواة شواهد تدلل عليها، ولعل هذه النظرة لمعاني القرآن وألفاظه لها سببها ، إذ ان معاني القرآن الكريم تفيض على الألفاظ فيضاً معطاءً ، إذ يبعث اللفظ معاني متكاثرة قابلة للاتساع والتأويل والتوالد ، فهي ألفاظ معجزة لمعاني لا يسع الإنسان ان يصل إلى مدارك كنهها ومواطن انتهائها .

(١) الإتقان في علوم القرآن : ١٠٥/٢ .

الباب الثاني

عِلْمَا البيان والبديع في حاشية شيخ زادة

الفصل الأول : علم البيان في حاشية شيخ زادة

الفصل الثاني : علم البديع في حاشية شيخ زادة

الفصل الأول : علم البيان في حاشية شيخ زادة :

توطئة : علم البيان في اللغة والاصطلاح

البيان في اللغة ما بُيّنَ به الشيء من الدلالة وغيرها ، وبان الشيء بياناً أتضح وأبنتُهُ بياناً إي أوضحتهُ وتبين الشيء إذا ظهر بعد خفاء ، وتبيان كل شيء كشفهِ وإيضاحهِ[١] . فالبيان لغة هو الإيضاح والظهور بعد الخفاء .

أما في الاصطلاح فان هذا العلم قد مرّ بتطور ، فكانت دلالة مصطلحه الأولى تقترب من المعنى اللغوي ، فالبيان هو الكشف والإيضاح عن المعنى الضامر في النفس بأي طريق أو أسلوب كان ذلك التكشيف والإيضاح ، إذ عرف الجاحظ (ت٢٥٥هـ) ، البيان بالقول : ((والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يُفضي السامع إلى حقيقته ويهجم إلى محصوله كائناً ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان الدليل ... فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع))[٢] .

ولم يكن البيان لديه علماً محدداً ، إذ ألف كتابه (البيان والتبيين) كدراسة بلاغية حوت إشارات لعلم المعاني والبيان والبديع ، وكان كثيراً ما يطلق على هذه العلوم لفظ (البيان) .

فكان البيان يدور في فلك معناه الواسع البعيد عن التحديد عند العلماء الأوائل ، فهو لديهم التعبير عما يدور في الذهن وتحس به النفس بأسلوب فني رائع ، وكذلك كانوا يطلقونه على المميزات البلاغية التي يتفاضل بها الأدباء والشعراء ويظهر بها فضل الكلام على الكلام وهو بهذا يشمل علوم البلاغة الثلاثة المعاني والبيان والبديع[٣] .

وحتى عند من ألف في البيان من علمائه المعروفين كالجرجاني[٤] (ت٤٧١هـ) ، فان البيان لم يجد تحديداً لديه . إلى فترة مجيء السكاكي (ت٦٢٦هـ) وبعده القزويني

---

(١) ينظر : لسان العرب مادة (بَيّن) : ٥٦٢/١-٥٦٣ .

(٢) البيان والتبيين : ٧٦/١ .

(٣) ينظر : علم البيان (دراسة تحليلة لمسائل البيان) ، د. بسيوني عبد الفتاح فيود : ١٠ .

(٤) ينظر : البيان في ضوء أساليب القرآن : ١٩٧ .

(ت٧٣٩هـ) إذ أخذ البيان عندهما طابعاً علمياً، فأصبح علماً محدداً يدرس التشبيه والمجاز والكناية بعد ان كان يشمل كل فنون البلاغة عند المتقدمين[١]. فحدّه السكاكي بالقول: ((واما علم البيان فهو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في موضع الدلالة عليه وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك من الخطأ في مطابقة الكلام تمام المراد منه))[٢]. وخصصهُ بدراسة موضوعات معينة هي: التشبيه والمجاز بأنواعه، والاستعارة والكناية . وقد أخذ العلماء بعد السكاكي هذا التحديد والتخصيص منه فحصروا دراسته بتلك الفنون البيانية، لذلك نجد الرؤية واضحة عند شيخ زادة، فأخذ يكشف عن مميزات هذا العلم وصوره ، وجمالية تصويره للمعاني في النص القرآني . ووظائف كل فن وما يؤديه من بلاغة ترفع من دلالة النص ومقاصده إلى قمة الإعجاز ، إذ تكشف عن معانيه وتبينها وتوضحها إيضاحاً جمالياً وصورياً .

المحور الأول : التشبيه عند شيخ زادة :

لغة هو التمثيل فيقال شابَهَهُ وأشبههُ أي ماثلهُ وشَبَهَهُ تشبيهاً مَثَّله والمتشابهات هن المتماثلات إذ قال عزّ من قائل : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران:٧] أي متماثلات يشبه بعضها بعضاً[٣] . فالتشبيه لغة هو التمثيل .

أما في الاصطلاح فهو ((الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى))[٤] . وذلك باستدعاء صورة النظير أو المثيل ، وإقامة العلاقة بين الموجودات بعضها مع بعض عن طريق التماثل ، وأبلغهُ ما كانت علاقة المشبه والمشبه به غير مألوفة أي (مبتكرة)[٥] . وذلك يكون بين الأشياء والمعاني والظواهر التي لا يُدرك التشابه بينها إلا الحاذق ، الذي يمتلك حساً باطناً ووجداناً يتلمس من خلاله مواطن الاشتراك بين

(١) ينظر : معجم المصطلحات البلاغية (البيان) : ٤٠٩/١ .
(٢) مفتاح العلوم : ٢٤٩ .
(٣) ينظر : العين مادة (شبه) : ٤٠٤/٣ ، والصحاح مادة (شبه) : ٢٢٣٦/٤ .
(٤) الإيضاح : ١٨٩ ، وينظر : الطراز : ١٢٦ .
(٥) ينظر : البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ، عبد الرحمن الميداني : ١٧١/٢ .

المعاني والأشياء التي لا يستطيع المتلقي العادي معرفتها ، لذلك جعل الرماني[١] (ت٣٨٦هـ) التشبيه نوعين ؛ حسياً ونفسياً .

ولذلك عدّ التشبيه القرآني ((لمِح صِلة بين أمرين من حيث وقعهما النفسي))[٢]. فاختيار الصورة المشبه بها من عناصر الطبيعة أو من المحسوسات الكونية والنفسية له أثره الكبير في التشبيهات القرآنية فهي تصوير وتأثير وتجسيد في آن واحد وقد اعتمد النص القرآني على هذا الفن التصويري ، ألا وهو التشبيه لاستجلاء المعاني الضامرة ، فهو طريق من طرق إقامة الحجة والدليل ، إذ يصور المعاني الغيبية ويستجلبها إلى عالم الشهود عبر ممر خيالي وبأدوات لغوية ، لينبه المتلقي على ما غاب عن ذهنه من أمور إدراكية ويصورها له بنظيرتها من عالم المادة . وكذلك فأن التشبيهات القرآنية هي إثارة لخيال السامع ، إذ تهدف إلى ((شحذ ذهن المتلقي وتحريك طاقاته الفكرية أو استرضاء ذكائه لتوجيه عنايته حتى يتأول ويتفكر ويصل إلى إدراك المراد عن طريق التفكر))[٣] الذي يتولد من إقامة العلاقة بين أمرين بينهما صلة مخفية ورباط ساحر يُظهره وجه الشبه للمتلقي الحاذق .

١-أركان التشبيه :

الأصل في التركيب التشبيهي أن يكون قائماً على أركان وعناصر تُكَوِن الصورة الفنية للتشبيه ، وكلما أزدادَ التشبيه حسنا قلت هذه الأركان حتى يُعَبِّرَ عن صورة بأخرى وعن المعنى بصورة محسوسة من غير أداة تشبيه أو وجه الشبه ، فمن الأركان الرئيسة في التشبيه :

أ-المشبه :

وهو أساس التشبيه ، الذي تأتي كل عناصر الصورة لإظهاره وتوضيحه وجلاء هيئته وإخراجه من خفي إلى جلي[٤] .

---

(١) ينظر : النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) : ٨٠ .

(٢) من بلاغة القرآن ، أحمد بدوي : ١٤٥ .

(٣) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ، عبد الرحمن الميداني : ١٧٠/٢ .

(٤) ينظر : أساليب البيان في القرآن ، جعفر الحسيني : ٢٤٢ .

ب-المشبه به :

وهو الأمر الذي يراد إلحاق غيره به ، وغالباً ما يكون أوضح من المشبه ، فهو التجسيد المرئي للمشبه خصوصاً إذا كان المشبه معنى من المعاني .

ج-وجه الشبه :

ونعني به ((المعنى الذي يشترك فيه الطرفان تحقيقاً أو تخييلاً))[١] ، إذ يكون بمثابة الجامع الحسي أو العقلي للمشبه به والمشبه .

د-أداة التشبيه :

وهي اللفظ الذي يربط بين الطرفين ويدل على التشبيه[٢] ، وهي على أقسام :

١-الأسماء كـ(مثل وشبه ونحوهما) .

٢-الأفعال كـ(حسب وخال ويماثل ويناظر) وغيرها .

٣-الحروف وهي أما بسيطة كالكاف ، أو مركبة مثل (كأن)[٣] .

٢-أنواع التشبيه :

قسم البلاغيون التشبيه استناداً لحيثيات متعددة تخص عناصر التشبيه ، فالطرفان إما حسيان أو عقليان أو مختلفان في الحسية والعقلية[٤] ، وباعتبار ذكر الأداة قسم ابن الأثير[٥] (ت٦٣٧هـ) التشبيه إلى مظهر ومضمر وبين ان التشبيه المضمر أبلغ من المظهر ، لجعله المشبه مشبهاً به من غير واسطة أداة فيكون هو إياه وكذلك انه أوجز لحذف الأداة ، وكذلك قسم باعتبار وجه الشبه إلى تشبيه مفرد ومركب فهو ((أما واحد أو غير واحد ، والواحد اما حسي أو عقلي وغير الواحد اما بمنزلة الواحد لكونه مركباً من أمرين أو أمور متعددة غير مركب ، والمركب إما حسي أو عقلي ، والمتعدد اما حسي أو عقلي أو مختلف))[٦] . وكان وجه الشبه وحسيته أو عقليته من أكثر

---

(١) الإيضاح : ١٩٤ .

(٢) ينظر : علم البيان بين النظريات والأصول ، د. ديزيرة سقال : ١٤٨ .

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن : ٣/٢٥٤-٢٥٥ ،وينظر: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها: ١٦٢.

(٤) ينظر : التلخيص في علوم البلاغة : ٢٤٣ .

(٥) ينظر : المثل السائر

(٦) بغية الإيضاح : ٣/٢٠ .

التقسيمات بحثاً وجدلاً عند البلاغيين ، لكونه يمثل الفائدة المرجوة من معرفة أي تشبيه ولاسيما البليغ منها ، وركز شيخ زادة في بحثه على نوعين من التشبيه الأول البليغ والثاني التمثيلي ، لكونه مفسراً ينظر إلى السياق القرآني لبيانه ولا يقصد التقسيم والتشعيب في المادة البلاغية ، فهما من أدوات التصوير لديه.

ومن أنواع التشبيه التي وقف عندها شيخ زادة كثيراً :

أ-التشبيه البليغ :

وهو أعلى درجات البلاغة في التشبيه ، إذ يكون بحذف أداة التشبيه ووجه الشبه و ((الغرض منه التشديد والتأكيد في تقريب المشبه من المشبه به ، لأن حذف الأداة يوهم بتساوي الطرفين في القوة وعدم تفاضلهما وحذف الوجه يوحي بأنهما متشابهان في كل صفاتهما المناسبة ، ويفسح في الخيال لتصور هذه الصفات))[1] . فالتشبيه البليغ بذلك تصويرٌ بليغ لادعاء الاندماج المشبه في جنس المشبه به ، واهتم شيخ زادة بهذا النوع من التشبيهات ، ونبه عليها في القرآن الكريم ولا نبالغ إذا قلنا انه نبه على كل مواضعه فيه والغرض الأول من هذا التشبيه عند شيخ زادة هو المبالغة بادعاء ان المشبه من جنس المشبه به في صفاته وذلك كقوله تعالى : ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب:٦] إذ شبه زوجات النبي ﴿ﷺ﴾ بالأمهات أما دلالة هذا التشبيه فيبينها شيخ زادة بقوله : ((انه من باب التشبيه البليغ حذفت فيه أداة التشبيه ، للمبالغة ووجه الشبه وجوب تعظيمهن وحرمة نكاحهن))[2]. فجعلهن أمهاتهم بدلاً من ان يشبهن بذلك الوصف للمبالغة والتشديد على حرمة التعرض لهن ولو كان هذا التعرض للنكاح .

ومن التشبيه البليغ قوله تعالى : ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ [النبأ:١٩] ، إذ جعل شيخ زادة نظم الآية تشبيهاً بليغاً ، وضح نمطه ودلالته بقوله : ((التشبيه البليغ للمبالغة في كثرة أبوابها فان تلك الأبواب لما كثرت جداً صارت السماء كأنها ليست إلا أبواباً مفتوحة كقوله تعالى : ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ [القمر:١٢] ، أي كثرنا العيون في الأرض

(١) أساليب البيان في القرآن : ٢٥٨ .

(٢) الحاشية : ٥٣/٤ .

بحيث صارت كأنها بكليتها عيون تنفجر))[1] . فعبرت الآية عن كثرة أبواب السماء في ذلك اليوم الموعود به لنزول الملائكة ، بالاستعانة بالتشبيه البليغ ، إذ جعلت أماكن ومواضع الفتح للنزول كالأبواب ، وبالغت في التشبيه فجعلت السماء بكليتها أبواباً بدل من تشبيها بالأبواب فأصبحت أبواباً على التشبيه البليغ ، للمبالغة في بيان المعنى المراد .

ومن شواهد التشبيه البليغ قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح:١٦] فبين شيخ زادة نوع التشبيه بقوله : ((ان قوله تعالى (وجعل الشمس سراجاً) من باب التشبيه البليغ من حيث ان كل واحد منهما يزيل ظلمة الليل عن وجه الأرض ، فان الليل عبارة عن ظل الأرض الحاصل في الجو بسبب حيلولة الأرض بينه وبين الشمس وبطلوع الشمس تزول الحيلولة وما يستند إليها من الظل كما يزول ذلك بضوء السراج))[2] .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن:٣٧] ، إذ تضمن السياق تشبيهين أوضحهما شيخ زادة بقوله : ((قوله تعالى (فكانت وردة) من باب التشبيه البليغ ... أي كانت مثل الورد الأحمر من حرارة النار ، ومثل الدهن في رقة القوام والميعان))[3] . فشبه السماء تارة بالوردة في حالة من حالاتها وهي الإحمرار وتارة أخرى شبهها بالدِهان في بيان تلاشيها وتحولها وانزلاقها شيئاً فشيئاً . فبين لها حالتين من خلال التشبيه البليغ تارة في (كانت وِردة) وأخرى بذكر الأداة في قوله (وردة كالدهان) .

ومن التشبيه البليغ أيضاً قوله تعالى : ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة:١٤] ، ويبين شيخ زادة كيفية هذا التشبيه بالقول : ((أي الإنسان حجة بصيرة أو مثل بصيرة على التشبيه البليغ ، شبه الإنسان بالحجة من حيث كونه شاهداً بالأعمال على نفسه ، لأن جوارحه تنطق بها فيكون شاهداً للدعوى ، فالإنسان لما شابه الحجة من حيث

(١) الحاشية : ٦٠٦/٤ .
(٢) الحاشية : ٥٥٠/٤ .
(٣) الحاشية : ٤٣٤/٤ .

كون كل واحد منهما شاهداً قيل انه حجة بينة على أعماله على التشبيه البليغ))[١] . إذ جعلت نفس الإنسان بصيرة على التشبيه البليغ وهو في الحقيقة كالبصيرة في إقامة الحجة ، تصويراً لهذا التلبس في القيام بالحدث ، ولكون الإنسان هو الذي أرتكب ما أرتكب من الأعمال فيكون أبصر بها من غيره حتى ولو كانوا كراماً كاتبين فهو شاهدٌ عليها أيضاً واليد والرجل واللسان كل ذلك في القيامة باصر في الشهادة على أعمال الإنسان ، لذلك جعل النص القرآني السياق محذوف الأداة فكان المشبه به هو ذات المشبه فلا يحتاج إلى أداة .

ولا تختلف الشواهد الأخرى في طريقة الطرح إذ يعتمد شيخ زادة بيان كيفية التشبيه المضمر في السياق القرآني مسمياً إيّاه (تشبيهاً بليغاً) ومفصلاً في دلالته التفسيرية بالرجوع إلى المشبه به وعلاقته بالمشبه[٢] .

ب-التشبيه المركب التمثيلي :

أو ما يسميه شيخ زادة التشبيه المركب وهو التشبيه الناتج من امتزاج عناصر الصورة المنتزعة من اجتماع أمور متعددة ، إذ يكون وجه الشبه هيئة مركبة من اجتماع أمور تمتزج مع بعضها البعض لِتُكَوِن صورة تمثيلية . وقد كان هذا النوع من التشبيه مثار جدلٍ بين البلاغيين فقد فرق الجرجاني (ت٤٧١هـ) بين التمثيل وبين التشبيه بقوله : ((ان كل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً))[٣] . فالتمثيل لديه نوع خاص من التشبيه سِمَتَهُ البارزة هي كون وجه الشبه فيه عقلياً غير حقيقي ، أي محتاج إلى تأويل من غير نظر إلى إفراد أو تركيب[٤] . أما التشبيه فما كان وجه الشبه بين الطرفين فيه محسوساً .

وتبع السكاكي[٥] (ت٦٢٦هـ) الجرجاني في اشتراط الصورة العقلية في وجه الشبه

---

(١) الحاشية : ٥٨١/٤ .

(٢) ينظر : الحاشية : ٦٠٤/٤ ، و ٥٤٣/٤-٥٤٤ ، و ١٥١/٣ ، و ٦٨/٤ ، و ٣٢٧/٢ ، و ٢٩١/٤ ، و ٣٢٩/٣ وغيرها .

(٣) أسرار البلاغة : ١٣١ .

(٤) ينظر : أسرار البلاغة : ٦٣ .

(٥) ينظر : مفتاح العلوم : ٤٥٥ .

، ولكنه اشترط التركيب فيه . أما القزويني[1] (ت٧٣٩هـ) فذهب إلى ان وجه الشبه سواء كان مركباً حسياً أو عقلياً ، ينتج للسياق التشبيهي الصورة المتوخاة من اجتماع أمور متعددة في التشبيه . ولعل في وجهة نظر القزويني شيئاً من الصواب ، في جواز كون وجه الشبه مركباً حسياً خصوصاً وإن القرآن يستجلب المشبه به من محسوسات الطبيعة من نهر وحجر وشجر ، ففي وجه الشبه فيها جانب من الحسية المؤثرة على النفس ، ولا يمكن الذهاب بالمطلق مع رأي الجرجاني ومن تبعه في اعتبار عقلية وجه الشبه فقط في التشبيه التمثيلي .

فيما ذهب الزمخشري (ت٥٣٨هـ) إلى عدم التفريق بين التشبيه والتمثيل ، إذ ان ((للتمثيل مدلولات كثيرة في بلاغة الكشاف وهي أقرب إلى الاستعمال اللغوي ، فهو يطلقهُ على التشبيه وعلى الاستعارة التمثيلية وعلى الاستعارة في المفرد وعلى فرض المعاني))[2] . فالتمثيل على ذلك أوسع مما حصره الجرجاني ومن تبعه، فهو لدى الزمخشري التصوير أينما وجد في المفرد أو المركب في الحسي أو العقلي، ووافق ابن الأثير[3] (ت٦٣٧هـ) الزمخشري في عدم التمييز بين التمثيل والتشبيه.

أما شيخ زادة فالحصول على رأيه في هذا الموضوع ليس بالأمر الهين خصوصاً إذا كان ذلك متناثراً في معالجاته التفسيرية لآيات الذكر الحكيم ، فقد وافق شيخ زادة البلاغيين الذين ذهبوا إلى اشتراط كون التشبيه التمثيلي يقتضي وجه شبه مؤلف من صور متعددة ، وذلك كالتشبيه في قوله تعالى : ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج:٣١] ، فقد فصّل شيخ زادة في الصور المفَرَقة التي كونت الهيئة التركيبية للتشبيه التمثيلي في الآية بقوله : ((ان كل واحد من طرفي المشبه والمشبه به أمور متعددة ، شبه كل واحد مما في طرف المشبه بكل واحد مما في طرف المشبه به فالذي في طرف المشبه هو الإيمان والشرك والأهواء والشيطان والذي في طرف المشبه به السماء والساقط من السماء والطير المختطفة والريح ، شبه الإيمان في علوه بالسماء وشبه المشرك المتمكن

(١) ينظر : الإيضاح : ١٩٧ .

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف وأثرها في الدراسات البلاغية ، د. محمد حسنين أبو موسى : ٤٠٢ .

(٣) ينظر : المثل السائر : ٣٧٣/١ .

من الإيمان والقادر عليه بفطرته الأصلية بالذي صعد إلى السماء وسقط منها ، وشبه الأهواء التي فوق أفكاره بالطير المختطفة ، وشبه الشيطان الذي توهمهُ في أودية الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة))[1] .

ويذهب أيضاً إلى ان تركيب الصورة بعد إدماج عناصرها من وجه الشبه أبلغ من اعتبار وجه الشبه المفرد ، كقوله تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:١٩] .

إذ يعلل شيخ زادة سرّ جمالية هذا التشبيه بالقول : ((لأنه يحصل في النفس من هيئة المركبات ما لا يحصل من التصور* المفردات ، وإن شئت فتأمل حال من أخذتهم السماء بالمطر المتتابع مع تكاثف ظلمة الليل وتواتر الرعد القاصف والبرق الخاطف والصاعقة المحرقة ولهم في أثناء ذلك اضطراب خوف الهلاك ، أين ذلك من تشبيه الدين بالمطر والشبهة بالظلمة والوعد والوعيد بالرعد والبرق ومن تضمن إفادة هذا التشبيه المفرق ما أفاده التشبيه السابق وهو التشبيه المركب))[2] . فيرى إنّ تلاحق صور الآية مجتمعة في تركيب لتكون هيئة واحدة يُستخْلَصُ منها وجه الشبه أبلغ من اعتبار التشبيه المفرد الذي يقتضي شبهاً واحداً ، وهو بذلك يوافق السكاكي باعتبار التركيب في الصورة التمثيلية المركبة من التشبيه .

ومنه قوله تعالى : ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد:١٤] ، إذ تركبت الصورة التمثيلية من أمور متعددة يوضحها شيخ زادة بقوله: ((التشبيه من المركب التمثيلي، شبه حال الأصنام مع من دعاهم من المشركين وعدم فوز المشركين من دعائهم الأصنام بشيء من الاستجابة والنفع بحال الماء الواقع بمرأى العطشان الذي يبسط

(١) الحاشية : ٣٨٣/٣ ، وينظر : ١٠/٣-١١ .

* الأصوب التصور في المفردات .

(٢) الحاشية : ١٧٤/١ ، وينظر : ١٦٠/١ .

كفيه يطلبه ان يبلغ فاه وينفعه من احتراق كبده ووجه التشبيه عدم استطاعة المطلوب منه إجابة الدعاء وخيبة الطالب عن نيل ما هو أحوج إليه من المطلوب ، وهو الوجه كما ترى منتزع من عدة وجوه))[1] .

أما من حيث حسية الشبه أو عقليتهِ ، فقد بين شيخ زادة ان الهيئة المنتزعة من أمور متعددة قد تكون عقلية كقوله تعالى : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة:٢٦٥] ، إذ بين نوع وجه الشبه والجامع في تشبيه النص الإنفاق وتزايده بنمو الجنة ذات الغيث المتواصل بقوله : ((والتشبيه من المركب العقلي ، شبه حال النفقة النامية بسبب انضمام الابتغاء والتثبيت الناشيء من ينبوع الإخلاص إليها بحال جنة نامية زاكية بسبب الربوة والوابل والطل والجامع النمو المترتب على السبب المؤدي إليه))[2] . فبين شيخ زادة انه قد يكون وجه الشبه الجامع بين المشبه والمشبه به عقلياً ، كما هو رأي الجرجاني والسكاكي ، ومع هذا الرأي بين شيخ زادة رأياً آخر بأن الهيئة المنتزعة من اجتماع أمور متعددة والتي تُكَوِن الصورة المركبة في التشبيه القرآني قد تكون متخيلة ، وليست عقلية محضة ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلٗا﴾ [الزُّمَر:٢٩] ، إذ يقول في بيان جانب التخيل في هذا التشبيه القرآني ودلالته : ((وهذا المثل في غاية الحسن في الدلالة على تقبيح الشرك وتحسين التوحيد فان قيل لا حسن فيه لعدم انطباقه على عبدة الأصنام ، لانها جمادات لا يتصور منها المنازعة والتشاكس ، قلنا تشبيه شيء بآخر لا يستدعي ان يكون وجه الشبه حالة موجودة في كل واحد من المشبه والمشبه به تحقيقاً بل يكفي وجودها في أحد الطرفين أو في كليهما على سبيل التخيل والتأويل كما في قوله :

وكأن النجوم بين دجاها سننٌ لاح بينهن ابتداع[3]

---

(١) الحاشية : ٣/١١٣-١١٤ ، وينظر : ١/٥٧٩ .

(٢) الحاشية : ١/٥٧٩ .

(٣) البيت للقاضي التنوخي ، ينظر : يتيمة الدهر للثعالبي : ٢/٣٩٥ .

فان وجه الشبه في هذا التشبيه هو الهيئة الحاصلة من حاصل أشياء مشرقة في جوانب شيء مظلم فهذه الهيئة غير حاصلة في المشبه به وهو السنن بين الابتداع إلاّ على سبيل التخييل ، فان السنن والبدع ليستا من قبيل الأجسام حتى توصفا بالإشراق والإظلام حقيقة ، وكذا وجه التمثيل بين المشرك والعبد الذي فيه شركاء متشاكسون وكون أمر المحتاج المشرك موكولاً إلى عناية الشركاء المتشاكسين وكونه متحيراً في أمره ، بناء على انه كلما أرضى هو أحدهم غضب الباقون وإذا احتاج في مهمٍ اليهم فكل واحد يرده إلى الآخر فانه لا يوجد في المشبه الذي هو المشرك إلا على وجه التخييل))[1] .

فصورت الهيئة المركبة المنتزعة من التشبيه القرآني الشعور المضطرب للعبد المشرك والذي تتنازعه الجمادات على نحو التخييل بصورة محسوسة هي صورة العبد الذي يكون موالياً لِكُثر تتجاذبهُ الأطراف المتنازعة فتصبح نفسه غير مستقرة ومشتتة في العبودية فأظهرت المتخيل في مظهر المحس الملموس ، فكان وجه الشبه متخيلاً قريباً إلى الحس .

ولم يكتفِ شيخ زادة ببيان ملامح الصورة التمثيلية من حيث التركيب والأفراد وعقلية وجه الشبه أو حسيته وإنما تجاوز بحثه هذه الأمور إلى بلاغة هذا النوع من التشبيه وخصائصه الفنية ، فنبه إلى تلك الخصائص ، ومنها :

١-تصوير المعاني المحتجبة عن الإفهام :

فقد نبه شيخ زادة في مواضع من حاشيته إلى ان الغرض من التشبيه التمثيلي، هو تصوير المعاني الغائبة عن الأذهان وذلك بمشابهتها بأخرى من عالم الموجودات ، إذ يقول: ((وضرب المثل عبارة عن بيان الشبه بين المعاني المحتجبة عن الإفهام والأمور الجلية لذوي العقول والخواص ، تصويراً لتلك المعاني وتقريباً لفهمها ، كما شبه الله تعالى حال من اتخذ شركاء معتمداً ومتكلاً بحال العنكبوت فيما تنسجهُ ، وذلك لأن التشبيه يؤثر في النفس تأثير مثل تأثير الدليل))[2] . وهذا الغرض يصدق على

(١) الحاشية : ٢٠٢/٤ ، وينظر : الحاشية : ٥٧٦/١ .

(٢) الحاشية : ١٣/٤-١٤ .

معظم تشبيهات القرآن ، لأن أغلبها تشبيه محسوس بمحسوس أو معقول بمحسوس[١] .

٢-المبالغة في بيان حال الممثل له :

وذلك يكون عندما يُصور التشبيه المعنى أو الحالة النفسية المدركة غير المحسوسة بصورة جلية محسوسة ، إذ يقول شيخ زادة : ((الحكمة من التمثيل بيان حال الممثل له بإبرازه في صورة المشاهد المحسوس ليساعد فيه الوهم العقل ولا ينازعه فيما حكم به كما هو شأنه لأنه إنما يدرك المعاني الجزئية المنتزعة من الجزئيات المحسوسة أخذاً من الحس المشترك ولا يدرك المعاني المعقولة))[٢] .

وذلك كتصوير الآية المباركة حال المنافقين بقوله تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧] بعد ان ذكرت آية سابقة حقيقتهم بقوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨] ، فكان التشبيه المصوّر بعد ذكر حقيقتهم له غايته البلاغية التي أوضحها شيخ زادة بقوله : ((ان الله تعالى لما بين بقوله : (ومن الناس من يقول آمنا بالله) ... حقيقة حال المنافقين وصفتهم ، لأنه بمنزلة الصفة الكاشفة عن حقيقتهم أراد ههنا ان يكشف عنها كشفاً تاماً ويبرزها في معرض المحسوس المشاهد فعقبها بضرب المثل مبالغة في البيان ، لأن ضرب المثل أوقع في القلب وأوقع أي أشد قهراً وإذلالاً للخصم الألد أي الشديد الخصومة فان الوهم لا يساعد العقل في إدراك المعقول الصرف بل ينازعه ويمنعه عن إدراكه وبضرب المثل يبرز المعقول في صورة المحسوس فيساعد الوهم العقل في إدراكه ، لأن شأن الوهم إدراك المعاني المنتزعة من المحسوسات فلذلك كان ضرب المثل أبلغ في بيان حالهم بالنسبة إلى مجرد تقرير الحجة عليهم))[٣] .

ومنه قوله تعالى : ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾

(١) ينظر : من بلاغة القرآن ، أحمد أحمد بدوي : ١٥٠ .
(٢) الحاشية : ٢٥١/١ .
(٣) الحاشية : ١٥٣/١ .

[الأعراف:١٧٦] إذ يقول شيخ زادة في دلالة التشبيه التمثيلي على المبالغة : ((للمبالغة في الحط ، فان في تمثيله بالكلب حطاً وفي تمثيله في أخس أحواله زيادة حط مع ان تصوير المعقول بصورة المحسوس أبلغ في بيانه ، لأن ألفة العامة بالمحسوس أتم وأكمل وإدراكهم له أعم وأشمل قيل في وجه التمثيل ان كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب اللاهث فأنه يلهث في كل واحدة من حالتي الإعياء والراحة وحالتي العطش والري ... فكذلك من أتاه الله العلم والدين وأغناه الله عن التعرض لأوساخ أموال الناس ... كحال ذلك اللاهث حيث واظب على الحالة الخسيسة والفعل القبيح لمجرد إتباع نفسه الخبيثة وطبيعته الخسيسة لأجل الحاجة والضرورة))[1] .

ففي تشبيه صورة اللاهث وراء حطام الدنيا في حالات العسر واليسر ، بصورة الكلب المنتزعة من أحواله في حالات عند الإرواء والعطش حط من شأن الممثل له ، ومبالغة في ردعه عنها بواسطة تصويره بأبشع الصور المنتقاة من أخس حالات هذا المخلوق ، وإذا كانت الصورة المنتزعة من التشبيه خارجة عن العادة فمن الطبيعي ان يكون في اتصاف المشبه بها مبالغة في بيان هذا التصوير وتقبيحاً للممثل له بتلك الصورة المركبة .

٣-الترغيب والترهيب :

إذ يستعان بالصورة المستحسنة لتحسين حدث ما على سبيل ترغيب المتلقي وجلب اهتمامه والتأثير عليه ، وقد يستعان بالصورة المستقبحة لتنفير السامع من عمل أو حدث يُراد النهي عنه ، وذلك يتضح في التشبيه القرآني في قوله تعالى : ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ**﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٦] ، إذ بين شيخ زادة غرض التشبيه في الآية بقوله : ((فشبه الله تعالى الكلمة الطيبة بهذه الشجرة ترغيباً للمكلفين في تحصيلها ثم قال : (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) فان في ضرب الأمثال زيادة الإفهام ... ثم شبه الكلمة الخبيثة التي لا يقصد بها حجة ولا يؤيدها عقل

(١) الحاشية : ٢٨٥/٢ .

ولا نقل بالشجرة الخبيثة الكثيرة المضار الخالية من المنافع))[1] .

إذ جيء بصورة الشجرة الطيبة ذات القوام الجميل المتجذر في عمق الأرض والممتد بكل شموخ وعزة ورفعة إلى عِنان السماء لتصوير الكلمة الطيبة وتمثيلها خير تمثيل ثم استعار الصورة القبيحة المنظر للكلمة الخبيثة بغية التنفير عنها .

(١) الحاشية : ٣/١٣٤ .

المحور الثاني : الحقيقة والمجاز عند شيخ زادة :

توطئة :

الحقيقة والمجاز من الأساليب التعبيرية الأصلية في اللغة العربية ، وقد رافق هذا الأسلوب تطور الفكر العربي ، فقد نشأت الحقيقة في ظل بداية وضع اللغة عندما وضع العربي مفردات لغتهِ ، فوضع لكل لفظ معنى من المعاني بحيث إذا نطق بها لم يُفهم منه سوى هذا المعنى ، فلم يكن يُفهم من لفظ (الزهرة) إلاّ تلك النبتة المخصوصة ، وكلمة (الجبل) إلا هذا المرتفع من الأرض ، ثم استعمل هذهِ المفردات في تراكيب على نحوٍ خاص معتبراً فيها المعاني التي وضعها لها ، فكان يسند الغروب إلى الشمس والمشي إلى الإنسان ، ولكن بمرور الزمن أتسع أفق الإنسان العربي ، وَرَحُبَ ، فأصبح يشعر بأحاسيس وأفكار تضيق لغته عن التعبير عنها ، ومن ناحية أخرى ابتدأت مفردات اللغة تكتسب معاني جانبية جديدة إلى جانب معانيها الأصيلة ، التي وضعت لها ، فأصبحت كلمة (زهرة) بجانب معناها الأصلي تحمل ضلال معانٍ أخرى ، من النضارة والرقة ، وأصبحت كلمة (جبل) تدل بجانب دلالتها الأصلية على معاني الشمم والارتفاع والمناعة فنشأت من هنا الألفاظ المجازية[1] . كما ان ميلهم إلى الاتساع باللغة والسمو بها إلى قمة العطاء المعنوي جعلهم يكثرون من المجاز في كلامهم ، وعندما نزل القرآن الكريم بلغة العرب ، حملَ في طياتهِ من أساليبهم البلاغية ، فحوى على المجاز وهو أكثرها اتساعاً وأبعدها أفقاً .

ولعل الحقيقة في القرآن الكريم لم تثر جدلاً مثلما أثارهُ المجاز من خلافات عقائدية ، تؤمن بوجودهِ وأخرى ترفض تسمية كلام الله تعالى مجازاً ، وأوضح الزركشي[2] هذا الخلاف ببيان إنّ جماعة من الشافعية والمالكية وبعض الظواهر ، رفضوا فكرة المجاز وحجتهم في ذلك ان المتكلم لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا ضاقت به الحقيقة ، فيستعير وهو مستحيل على الله سبحانه وتعالى . ولكن أغلب العلماء من فقهاء وبلاغيين وأهل الملل ، قالوا بوجود المجاز في القرآن الكريم ، ومنهم شيخ زادة ،

(١) ينظر : الصور البيانية بين النظرية والتطبيق ، د. حفني محمد شرف : ١٨٨ .

(٢) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١٥٢/٢ .

ويمكن ان نسبب ذلك بذكر بعض الأسباب التي منها :

أولاً : لأن المجاز معجزة العرب في كلامها ، إذ يقول الشريف المرتضى (ت٤٣٦هـ) : ((وكلام العرب وحيٌ وإشارات واستعارات ومجازات ولهذا الحال كان كلامهم في المرتبة العليا من الفصاحة ، فان الكلام متى خلا من الاستعارات وجرى كله على الحقيقة كان بعيداً عن الفصاحة برّياً من البلاغة وكلام الله تعالى أفصح الكلام))[١] . وإذا كان القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب ، فمن الطبيعي أن يبلغ الإعجاز في دقة استعماله وبلاغته وجماله في هذا الأسلوب .

ثانياً : لأن آيات القرآن الكريم محكمة ومتشابهة والمتشابه كالمجاز الذي يرد إلى الحقيقة ، وهي الآيات المحكمات لذلك ذهبت أغلب الفرق الإسلامية مع وجود المجاز في الآيات المتشابهات التي منها آيات الصفات والجبر لغرض : ((تخليص العقيدة من كل ما يمسها من سوء فهم ، وكان مبدأ التوحيد عندهم منطلقاً أساسياً لمبحثهم في المجاز دفاعاً عن الإلوهية من كل ما يمكن أن يقوم حولها من فهم يؤدي إلى التجسيم والتشبيه ، فكانت تأويلاتهم تعتمد على الأساس اللغوي فكانوا يحملون العبارات الدالة على التصوير والتشبيه والتي لا يليق ظاهرها بمقام الإلوهية على وجوه تكون أبعد ما يكون عن التجسيم والتشبيه))[٢] .

وكان شيخ زادة ممن يؤمن بالمجاز دفاعاً وتنزيهاً للذات المقدسة من الصفات والابعاض ، في مواضع من النص القرآني وذلك ، كقوله تعالى : ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾[هود:٣٧]، إذ يقول في توجيه الآية : ((ولفظ (العين) وإن كان مجازاً من الحفظ ، إلا أن إضافته إلى المتكلم حقيقة إذا كان المتكلم مركباً من الأعضاء والجوارح ، وأما في حقه تعالى فإنما تصح الإضافة على طريق التمثيل والتشبيه ، لكونه ، منزهاً عن الأعضاء والأبعاض ، فيشبه بمن له أعين كثيرة ، وكان قوله (بأعيننا) في معنى قوله محفوظنا))[٣]

(١) آمالي السيد المرتضى : ٤/١ .

(٢) البيان في ضوء أساليب القرآن ، د. عبد الفتاح لاشين : ١٣٤-١٣٥ .

(٣) الحاشية : ٤٣/٣ ، وينظر : ٤٣١/٤ ، ٥٣٨/٤ .

ولكنه يختلف في مواضع أكثر مع بعض الفرق الإسلامية كالمعتزلة في المجاز وتوجيهه وخصوصاً في إسناد الأفعال إلى الله تعالى ، ففي قوله تعالى : ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ﴾[البقرة:٧] يقول : ((فانه لا مخالفة بيننا وبين المعتزلة في ان كل واحد من الختم والتغشية ليس على حقيقته ... وإنما المخالفة بيننا وبينهم في تعيين ذلك المعنى المجازي ، فأنا نقول أن المراد بهما إحداث هيئة في قلوبهم ومشاعرهم تمنعهم من إدراك الحكم وقبوله ، فان إسناد الختم بهذا المعنى المجازي وهو ان يحدث الله سبحانه وتعالى في العبد تلك الهيئة المانعة من إدراك الحق وقبولهِ حقيقة عندنا ، إذ لا يقبح شيء بالنسبة إلى صدورهِ من الله تعالى ، وقالت المعتزلة خلق ذلك المانع في القلوب والمشاعر قبيح فلا يجوز إسناده إليه تعالى))[1] .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة:١٥]، فأسند المدّ بالطغيان لله تعالى اما توجيه ذلك بلاغياً فيقول عنه شيخ زادة : ((وعند أصحابنا إسناد المد إلى إخوانهم إسناد مجازي وإسناده إليه تعالى حقيقي على عكس ما زعمه المعتزلة))[2] . فلا يتحرج شيخ زادة في إسناد بعض الأفعال لله تعالى معارضاً بذلك المعتزلة ، ولسنا بصدد بيان سيطرة الفكر العقائدي وأثره على المفسرين ولا على ما أفرزتهُ هذه الخلافات من جدل في توجيه المجاز في القرآن الكريم ، وان كانت مؤلفات المفسرين تزخر بذلك ، ولكن الذي يهمنا بيانه هو ان المدافعين عن وجود المجاز في القرآن الكريم ، وهم أغلب المفسرين أسسوا لقواعد بيانية واستبطنوا أصولاً قويمة من القرآن الكريم ، فكانت الحاجة إليه ماسة ، لتنزيهه (تعالى) في بعض آيات الصفات والجوارح والجبر عن الحقيقة والسمو بها إلى المجاز ، فوجههم القرآن الكريم إلى تذوق البلاغة الحقة ، والتفنن في القول لكون : ((إعجازه البياني مورداً متأصلاً من موارد إعجازه الكلي ، وتفوقه البلاغي حقيقة ناصعة في تفوقه في الفن القولي ، وقد وقف العرب عاجزين أمام حسهِ المجازي وبُعْدهِ التشبيهي ورصده الاستعاري وتهذيبه الكنائي ... فلا غرابة ان يكون القرآن مصدراً للثروة الكبرى عند العرب وأصلاً لتفجير طاقات

(١) الحاشية : ١١٩/١ .

(٢) الحاشية : ١٤٩/١ .

تلك البلاغة والمجاز منها عقدها الفريد))[١] .

وشيخ زادة من هؤلاء العلماء الذين اهتموا بالمجاز تارةً لكونه حنفياً (من أهل السُّنة) ، فيبدو مدافعاً عن عقيدته ضد المعتزلة ، وتارة لكونه من أهل البيان والبلاغة ، فيدافع عن المجاز لكونه أسلوباً بلاغياً عميق الدلالة . والذي يعنينا هو كونه بلاغياً لذلك أثرنا مسألة خلافاته في التوطئة فيما نجعل بيان حسه البلاغي في بيان المجاز وأقسامه وعلاقاتهِ ودلالته في هذا المطلب .

١-الحقيقة والمجاز في اللغة والاصطلاح :

الحقيقة لغةً : من حقَّ الشيء يَحِقُ حقاً أي وجب وجوباً ويقال بلغت حقيقة هذا الأمر أي يقين شأنه إذاً هي الوجوب واليقين[٢] ، أما في الاصطلاح ، فيرى الجرجاني (ت٤٧١هـ) انها : ((كل كلمةٍ أرُيد بها ما وقعت له في وضعْ واضع ... وقوعاً لا تستند فيه إلى غيره فهي حقيقة))[٣] . أما القزويني (ت٧٣٩هـ) ، فقد استقر لديه الحدّ بكونه : ((الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح به التخاطب))[٤] . وهما متقاربان في بيان كون الحقيقة اللغوية هي الكلمة التي تدل على معناها الموضوع لها في أصل الوضع اللغوي ، إذ تلتزم اللفظة بدلالتها الأصلية التزاماً وجوبياً .

وأما المجاز لغةً فهو من جاز الموضع جَوْزاً وجوازاً ومجازاً ، وجاز الموضع وجاوزه سارَ فيه وسلكه ، وأجازه خلفهُ وقطعهُ ، ويقال : جعل فلان ذلك الأمر مجازاً إلى حاجتهِ أي طريقاً ومسلكاً[٥] ، فالمجاز إذاً هو الانتقال والسير من موضع إلى آخر. أما في الاصطلاح، فالمجاز ((كل كلمة أُريد بها غيرُ ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظةٍ بين الثاني والأول))[٦]. أو هو ((الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح به التخاطب على وجه يصح مع قرينة عدم إرادته))[٧] .

---

(١) مجاز القرآن (خصائصه الفنية وبلاغته العربية) ، د. محمد حسين علي الصغير : ٥٩-٦٠ .

(٢) ينظر : العين (حقّ) : ٦/٣ .

(٣) أسرار البلاغة : ٢٧٧ .

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة : ٢٢٩ .

(٥) لسان العرب (جوز) : ٤١٦/٤ .

(٦) أسرار البلاغة : ٢٢٨ .

(٧) الإيضاح : ٢٣١ .

فالمجاز بهذا انتقال دلالة اللفظ من الأصل ، واكتسابها دلالة لازمة ، مكتسبة من ضلال المعنى الأصلي مع قرينة لفظية أو عقلية تمنع من إرَادة المعنى الأصلي ، وتدل على ذلك المعنى الجديد ، فهو توسع وانتقال دلالي . ويقسم المجاز إلى قسمين : الأول المجاز اللغوي بقسميه استعارة ومجاز مرسل ، والثاني المجاز العقلي وكل مجاز لغوي لابدّ له من أمرين : الأول العلاقة بين المعنى الأصلي والآخر المعنى المستعار ، فإذا كانت هذه العلاقة مشابهة فيكون المجاز نوعهُ استعارة ، وأما إذا كانت العلاقة غير المشابهة فيكون المجاز مرسلاً[١] . وأما إذا كان التجوز في التركيب والإسناد ، فيكون المجاز عقلياً ، أي في التركيب أو الإسناد والأمر الثاني الذي يستوجبهُ كل مجاز ، فهي القرينة الدالة على تعذر الحقيقة وغالباً ما تكون عقلية[٢] .

وبحث شيخ زادة هذا الأسلوب البياني بحثاً دقيقاً كاشفاً عن عمق هذا الأسلوب وبلاغته في النص القرآني .

٢-أقسام المجاز عند شيخ زادة

أ- المجاز العقلي وعلاقاته :

وهو نوع من أنواع المجاز المختص بالتركيب والإسناد ، الذي يتوصل إليه بحكم العقل وضرورة الفطرة ، وسلامة الذائقة فيخلصنا من مأزق الالتباس وشبهات التعبير ، فالألفاظ لم تنقل عن أصلها اللغوي ، والكلمات لم تجتز موضعها في اللغة إلى مقارب أو مشابه ، فليس في مفرداته ما يدل على مجازية الاستعمال ، وإنما يُستَشعرَ ذلك حسياً وعقلياً معاً عن طريق التركيب في العبارة والإسناد في الجملة فهو مستنبط من هيأة الجملة العامة ، ومستخرج من تركيب الكلام التفصيلي دون النظر في لفظ معين أو صيغة منفردة[٣] .

وقد تنبه الجرجاني[٤] (ت٤٧١هـ) إلى هذا النوع من المجاز وسماه بتسميات

(١) ينظر : بغية الإيضاح : ٧٩ .

(٢) ينظر : الإشارات والتنبيهات في علوم البلاغة : ١٦٣-١٦٤ .

(٣) ينظر : مجاز القرآن ، محمد حسين علي الصغير : ١١٣ .

(٤) ينظر : دلائل الإعجاز : ٢٩٨ ، أسرار البلاغة : ٢٤١ .

متعددة منها المجاز الحكمي والمجاز في الإسناد ، فيما استنبط الزمخشري[١] (ت٥٣٨هـ) بعده علاقات هذا المجاز وملابساته في التركيب المجازي ، وتبعه القزويني (ت٧٣٩هـ) في ذلك إذ استقر الحدّ بفضل جهود هؤلاء العلماء ، عند القزويني بكونه ((إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له ، غير ما هو له ، بتأول))[٢] . مبيناً العلاقة بين الفاعل الحقيقي والآخر المجازي إلا وهي الملابسة ، ثم بين أشكال هذه العلاقات وأنماطها ، وقد كانت معالجة هذا النوع من المجاز في الجملة الإسنادية ضمن علم المعاني في إيضاح القزويني تبعاً للعلماء السابقين . مخالفين بذلك السكاكي[٣] (ت٦٢٦هـ) الذي أنكر هذا النوع من المجاز ، وأدخله ضمن علم البيان ، لكونه (استعارة مكنية) لديه .

وقد تابع شيخ زادة العلماء في اهتمامهم بهذا النوع من المجاز فاستنبط علاقاته، وأغراض مجيئه في السياق القرآني ، ولعل في بيانه لأغراض مجيء المجاز العقلي في التراكيب القرآنية جدة في البحث لم يكن قد أشار إليها أغلب البلاغيين[٤] الذين اهتموا ببيان علاقات هذا المجاز ، فكان بحثه في هذا النوع من المجاز ذا فائدة ، لبيان دلالة هذا المجاز وعدم اقتصاره على بيان علاقاته كما سيتضح من خلال بيان علاقات المجاز العقلي ودلالته . فـ ((ألمراد بعلاقة المجاز العقلي في القرآن ههنا وجه الاستعمال المجازي وسببه الداعي إليه والركيزة المقتضية ، التي يستند إليها هذا المجاز ولك ان تتجوز في ذلك فتقول ان العلاقة هنا هي المسوغ الفني أو المبرر الاستعمالي لهذه الصيغة المجازية دون الأصل الحقيقي))[٥] . فالعلاقات في المجاز العقلي ، هي القرائن الدالة على عدم إرادة المعنى الأصلي ، كما انها دلالة ذلك التجوز . ونبه شيخ زادة إلى علاقات المجاز العقلي ومنها :

أولاً : **المحلية** (**المكانية**) :

---

(١) ينظر : الكشاف : ٥١/١ .

(٢) الإيضاح : ٤٧ .

(٣) ينظر : مفتاح العلوم : ٥١١ .

(٤) مجاز القرآن ، محمد حسين علي الصغير : ١٢٧ .

(٥) دلائل الإعجاز : ٢٩٣ وما بعدها ، ينظر : ومفتاح العلوم : ٥٠٣ ، والإيضاح : ٤٧ .

عندما يسند الفعل إلى مكانه ، بدلاً من إسناده إلى فاعله الحقيقي ، لشدة الملابسة بين الفعل ومكانه ، وذلك كقوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة:٢٥].

إذ اسند الجريان للأنهار ، وهي بالأصل لمياه الأنهار ، أما علاقة هذا الإسناد فيبينها شيخ زادة بقوله : ((لفظ (الأنهار) حقيقة لغوية ، وإسناد الجري إلى الأنهار مجازاً عقلياً على طريق إسناد الفعل إلى المحل الذي يلابسه كما في قوله تعالى : ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة:٢] فان الفاعل الحقيقي للإخراج هو الله تعالى ، وقد اسند إلى الأرض التي هي محل إخراج الله تعالى الأثقال))[١] .

ومثل ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾[الدخان:٥١] ، إذ أسند الأمان للمحل وهو (المقام) ، وهو في الحقيقة لأهلهِ ، إسناداً على نحو المجاز إذ يقول شيخ زادة : ((ان الأمين من قولك أمن الرجل أماناً ، فهو أمين ، وهو ضد الخائن ، وصف المقام به مجازاً ، لأنه من صفة صاحبه في الحقيقة ، ووصف به المحل))[٢].

ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الرحمن:٢٤] ، إذ أسند إنشاء الأمواج والرياح والسير في البحر إلى السفن وهو في الحقيقة لغيرها ، إذ يقول شيخ زادة في علاقة الإسناد : ((أسند رفع الشرع إلى السفن إسناداً مجازياً على طريق إسناد الفعل إلى مكانه))[٣] . والملاحظ على هذا النوع من المجاز انه يضفي على المعاني والأجسام حياة ، فالأرض أصبحت امرأة تضع حملها وثقلها وكأن بالمتقي لشدة تأثيره على المخلوقات أفاض الأمن منه إلى المكان الذي حلّ فيه فأصبح المكان بنفسه أميناً وكذلك أعطيت السفن خاصية لتسيير أنفسها وفي هذا نوع من التعظيم إذ أسندت الحياة والعمل إلى ما لا يُتوقع منه حياة أو عمل .

ثانياً : **الزمانية** (**الظرفية**) :

إذ يسند الحدث إلى زمانه ، بدلاً من أن يسند إلى متعلقهِ الحقيقي ، وذلك كقوله

(١) الحاشية : ٢٠٩/١ .
(٢) الحاشية : ٣١٧/٤ .
(٣) الحاشية : ٤٣١/٤ .

تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود:٢٥-٢٦] فأسند الألم إلى اليوم ، وهو وقت الألم والعذاب ، لا العذاب نفسه لبيان شدة ملابستهما ، إذ يقول شيخ زادة : ((إسناد (الأليم) إلى (اليوم) إسناد للظرف ، كقولك نهاره صائم ، وإسناده إلى (العذاب) إسناد إلى الوصف كقولك جدّ جده ، والمتألم هو الشخص المدرك لاوصفهِ ولازمانهِ فإذا وصفناه بالتألم دلّ على ان الشخص بلغ في تألمه إلى حيث سرى ما به من التألم إلى ما يلابسه من الزمان والأوصاف))[1] . فأضفى السياق من خلال إسناده (الأليم) إلى الزمان (اليوم) دلالة التهويل ، إذ جعل الزمان بذاته أليماً وموجعاً ، فهو شاخصٌ لا خلاص منه .

ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان:٩-١٠] ، فأسندت صفات إنسانية إلى اليوم ، إسناداً مجازياً ، إذ يقول شيخ زادة في بيان ذلك : ((والعبوس صفة من يحضر اليوم حقيقة ، وصف اليوم به مجازاً كما يقال صام نهاره ... يعني ان إسناد العبوس إلى اليوم . أما من قبيل إسناد فعل أهل ذلك اليوم إلى زمان مثل ، صام نهاره أو من قبيل إثبات لازم المشبه به للمشبه))[2] . فبين شيخ زادة للنص استعمالات بلاغية ، أحداها المجاز العقلي ، ومنها التشخيص والاستعارة المكنية ، ولم يكتفِ ببيان نوع واحد من المجاز.

وأيضاً قد يرافق المجاز العقلي التشخيص عند شيخ زادة كما في قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الحج:٥٥] ، إذ يقول في بيان بلاغتها : ((فالعقم صفة النساء إلا انه اسند إلى يوم القيامة ، أي إلى اليوم الذي يعقمن فيه على طريق صائم نهاره ، والعقم على الوجه الثاني صفة للحرب من حيث ان المقاتلين يقال لهم أبناء الحرب فإذا قتلوا بقى الحرب بلا ولد والظاهر ان يجعل الحرب مجازاً لانه جعل عقيماً تشبيهاً لقتل أولاده بعقمهِ ثم اسند العقم بهذا المعنى إلى يوم الحرب مجازاً ففي التركيب على هذا الوجه مجازان أحدهما في المسند والثاني في

(١) الحاشية : ٣٨٤١ .

(٢) الحاشية : ٥٨٩/٤ .

الإسناد))[1] . فأسند العقم وهو صفة الأشخاص إلى الزمان ، لبيان ان هذا اليوم فريد من نوعه ولا يوم يعقبهُ يشبه هوله ، فوفر السياق هذه الدلالة من خلال الإسناد المجازي . إذ أسند العقم إلى الزمان .

فبين شيخ زادة للآية نوعين من المجاز الأول المجاز العقلي وعلاقته الزمانية ، إذ أسندت الصفة المشخصة وهي (العقم) إلى زمانه وهو (يوم القيامة) ، على الرغم من كون حقيقة إسنادها للمرأة ، والنوع الآخر من المجاز هو استعارة العقم (للحرب) ووصفها به من قبيل الاستعارة المكنية ، ثم إسناد العقم وبهذا المعنى إسناداً مجازياً لزمنه وهو يوم الحرب . فلم يقتصر شيخ زادة ببيان نوع بلاغي بل فصّل في أكثر من نوع ، لاتساع ذائقته البلاغية .

ثالثاً : **السببية** :

إذ يسند المسند أو ما هو في معناه إلى السبب ، بدلاً من ان يسند إلى فاعله الحقيقي ، كقوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر:٤٢] فأسندت زيادة النفور إلى النذير ، إسناداً مجازياً إذ يقول شيخ زادة : ((ان إسناد (زادهم) إلى (النذير) أو مجيئهِ ، إسناد مجازي من قبيل إسناد الحكم إلى سببه لأن نفس النذير أو مجيئه لا يزيدهم نفوراً وإنما ازداد نفورهم عن الحق بسبب النذير أو بسبب مجيئهِ))[2] . والنذير نفسه لم يزدهم نفوراً وإنما سبب مجيئهِ وهو دعوة الحق هو الذي زادهم نفوراً وأسند إلى النذير لكونهِ حامل هذا الحق وموصلهِ .

ومنه قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[النمل:١٣] ، فأسند الإبصار إلى الآيات وهي سبب له ، وليست الإبصار بذاته ، إذ يقول شيخ زادة : ((ان الإبصار في الحقيقة صفة من نظر وتأمل في الآيات وجعل أنفس الآيات مبصرة ، على الإسناد المجازي ، للملابسة بينهما وبين المتأملين فيها ، والمتأملون إنما يبصرون بسبب تأملهم فيها ، فلما كان سبباً لإبصارهم نسب الإبصار إليها ، إسناداً

(١) الحاشية : ٣/٣٩٠ .

(٢) الحاشية : ٤/١١٨ .

مجازياً))[1] . ومن إسناد الفعل إلى سببه أيضاً قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الدخان:١٦-١٧] إذ يقول شيخ زادة فيها : ((فقال : (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون) أي امتحناهم بالأمر والنهي ... أو أوقعناهم في الفتنة ، فان حملت الآية على المعنى الأول يكون الإسناد في قوله : (فتنا) حقيقة عقلية لأنه تعالى هو الذي اختبرهم بإرسال موسى (عليه الصلاة والسلام) اليهم فاختاروا الكفر على الإيمان ، وعلى الثاني يكون مجازاً عقلياً من باب إسناد الفعل إلى سببه لأن المراد بالفتنة حينئذٍ ارتكاب المعاصي ، فانه تعالى كان سبباً لارتكابهم إياها بان أمهلهم ووسع رزقهم))[2] .

رابعاً : المسببية :

إذ يسند الفعل أو معناه إلى مُسببه بدلاً من إسناده إلى فاعله الحقيقي ، وذلك كقوله تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧] ، إذ اسند ذهاب نورهم إلى الله تعالى ، وهو بالحقيقة لغيره من عوامل الطبيعة ، إذ يقول شيخ زادة : ((ان ذلك الإسناد مجازي من قبيل إسناد الفعل إلى المسبب ، أي موجد سببهِ مع ان حقهُ ان يسند إلى سببه الحقيقي ، أي فاعله الذي لو اسند إليه الفعل كان حقيقة لكنه صرف عنه واسند إلى فاعله المجازي... يكون إسناده إليه سبحانه وتعالى، لكونه مسبباً موجداً لذلك السبب))[3]. فالرياح والأمطار قد تكون هي سبباً لذهاب نورهم ، أي ما كان يرونه من خلال استوقدوه ، ولكنه صرف ذكر ذلك إلى ذكر مُسببه ألا وهو الله تعالى .

الأغراض البلاغية للمجاز العقلي عند شيخ زادة :

تنبه شيخ زادة إلى ان هذا النوع من التجوز لا يرد في الكلام بغير فائدة ، بل يكون لوروده في السياق القرآني وأغراض ودلالات ، تستجلب أذهان المتلقين بتأثيرها ، لروعة ما تبعثه من تأمل في ملابسات التركيب وإسناداته العقلية ، فمن الأغراض

(١) الحاشية : ٤٨٦/٣ .
(٢) الحاشية : ٣١٢/٤-٣١٣ .
(٣) الحاشية : ١٥٧/١ .

البلاغية التي أشار إليها شيخ زادة لعلاقات الإسناد المجازي :

التعظيم والتفخيم :

إذ يبعث إسناد الأفعال إلى غير فاعليها ، نوعاً من التعظيم ، كقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:٥٨] ، إذ يقول شيخ زادة في بيان غرض الإسناد المجازي : ((واسند تلاوته إلى نفسه ، كما اسند القصص إلى نفسه في قوله : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣] ، مع إنّ التالي والقاص هو الملك المأمور ، بهما على طريق إسناد الفعل إلى سببه الآمر ، وفيه تعظيم بليغ وتشريف عظيم للملك))[١] . إذ أُسند إليه هذا الفعل ، وهو في الحقيقة سبَبَه ، لتعظيم السبب المؤصِل للتلاوة والاقتصاص . ومنه قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود:٨٢] ، إذ يقول شيخ زادة في دلالتها : ((الظاهر ان يقال فلما جاء أمرنا جعلوا عاليها سافلها ، لأن العذاب إنما صدر عن المأمورين وتقرير الجواب ، انه أُوثِرَ طريق الإسناد المجازي حيث لم يسند الفعل إلى المباشر بل اسند إلى المسبب على صنيعة الفاعل على انه فاعل السبب وهو الآمر ، لان ما وقع من المباشر إنما وقع بأمر الله تعالى وأقداره ، تعظيماً لشأن الفعل الصادر))[٢] .

ومنه إسناد النفخ إليه تعالى في إحدى القراءات في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه:١٠٢] ، إذ اسند النفخ إليه تعالى بداعي تفخيم النافخ وتعظيمه إذ كان ملكاً مقرباً ، إذ يقول شيخ زادة : ((وقريء (ننَفخُ) بفتح نون العظمة على بناء الفاعل على طريق إسناد الفعل إلى الآمر وهو الباري تعالى والعدول عن المباشر للنفخ هو اسرافيل مجاز والنكتة في المجاز أما تعظيم النافخ بأنه ملك مقرب مكرم عند الله بلغ في قربه منه تعالى ومكانتهِ لديه إلى حيث يصح ان يسند ما يصدر عنهُ من العمل إلى ذاته تعالى))[٣] . فأوضح شيخ زادة بأن بعض الإسنادات العقلية تبعث دلالة التعظيم لشدة الملابسة في الإسناد إذ يسند الفعل إلى الفاعل المجازي بغية

(١) الحاشية : ٦٣٣/١ .
(٢) الحاشية : ٥٨/٣ .
(٣) الحاشية : ١٣٣/٣ .

تكريم الفاعل الحقيقي وتعظيمه ، وهو في الآية حدث (النفخ في الصور) ، الذي اسند إلى الله تعالى إسناداً مجازياً وهو في الحقيقة للملك ، وبيّن شيخ زادة أن بعض الإسنادات تبعث تفخيماً ، كقوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:٨-٩] ، إذ اسند فعل المخادعة إلى الله تعالى وهو في الحقيقة للرسول ﴿ﷺ﴾ ، بداعي تفخيمه وتعظيمه ، إذ يقول شيخ زادة : ((لا يمكن إجراء اللفظ المذكور على ظاهره بل لابدّ من التأويل ... على اعتبار المجاز العقلي في النسبة الإيقاعية حيث أوقع فعل المخادعة على غير ما حقهُ ان يوقع عليه ، فان حقه ان يوقع على ما يصح عليه الخدع ، وأوقع عليه للملابسة بينهما ، من حيث انه خليفته في أرضه والناطق عنه بأوامره ونواهيه مع عباده ، ومثل هذه العلاقة كما يصح ان يسند إلى الأصل ما حقه ان يسند إلى النائب ، بأن يقال : قال الملك كذا ورسم الملك كذا وإنما القائل وزيره ومن ناب منابه يصح أيضاً ان يوقع على الأصل ما حقه ان يوقع على النائب كما في قوله تعالى : (يخادعون الله) في موضع يخادعون رسول الله ، وفي إيثار هذه الطريقة تفخيم أمر الخليفة وتعظيم شأنه حيث جعل مخادعة خليفته بمنزلة مخادعة نفسه))[1] .

.

المبالغة :

إذ يبعث الإسناد المجازي المبالغة في اتصاف الفاعل المجازي بالفعل أو معناه ، إذ يظهر بمظهر الفاعل الحقيقي ، وفي ذلك مبالغة بالاتصاف بالحدث ، وذلك كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨٣] ، فأسند الإثم للقلب إسناداً على نحو المجاز للمبالغة ، ويوضح شيخ زادة دلالة ذلك بقوله : ((ان كاتم الشهادة هو الشخص فيكون هو الآثم إلا انه اسند الإثم إلى قلبه وحده على طريق إسناد الفعل إلى جزء من أجزاء البدن ، للإشارة إلى كونه أعظم أسباب تحصيل ذلك الفعل ، فأن أصل الإثم ينشأ من القلب ثم يشيع في البدن، ... وإسناد الفعل إلى الجارحة التي بها الفعل أبلغ كما يسند الإبصار إلى العين فيقال

(١) الحاشية : ١٣١/١ .

هذا مما أبصرته عيني وسمَعَته إذني وعرفه قلبي فلذلك اسند الإثم ههنا إلى القلب ، لأن في إسناد الإثم إلى القلب مبالغة في عظم الإثم من حيث ان القلب رئيس الأعضاء وأفعاله أعظم الأفعال ، فإسناد الإثم إلى القلب يدل على انه أعظم الذنوب))[1] . فالفاعل الحقيقي لفعل الأثم هو الشخص المأثوم إلى ان السياق جعل هذا الفعل للقلب وحده عن طريق الإسناد المجازي لبيان أنه الأصل في التوجه إلى الأثم ، كما انه مركز التفكير والتدبر ولو صلح هذا العضو صلح ما سواه في الإنسان.

فأسند الإثم إليه ، للمبالغة في بيان اتصاف القلب بالإثم . ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة:٨٣] ، فيبين شيخ زادة دلالة المبالغة بقوله : ((ان إسناد الفيض إلى الأعين ، إسناد مجازي كما في جرى النهر وسال الميزاب ، للمبالغة في وصفهم بالبكاء أي تراهم يبكون حتى يظن ان أعينهم تفيض أي تسيل بأنفسها))[2]. إذا اسند الفيض إلى العيون ، وأسند الجريان إلى الميزاب ، والجري إلى النهر ، وهي مواضع وأماكن للجري والفيض لا الفيض نفسه ، وإنما اسند إليها للمبالغة في الملابسة بالحدث .

ومنه قوله تعالى : ﴿أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ﴾[النمل:٨٦] ، إذ اسند الإبصار للنهار وهو لأهلِهِ للمبالغة في بيان ظرفيته ، إذ يقول شيخ زادة في ذلك : ((ان المعنى خلقنا الليل ليكون زماناً لسكون أهلِهِ ، وخلقنا النهار ليكون زماناً لابصارهم الا انه اسند الابصار إلى النهار وجعل حالاً من أحواله اللازمة ، للمبالغة ، مثل صائم نهاره ، ضرورة ان الإبصار لا يقوم بنفس النهار وإنما يقوم بأهله ، فلما قيل والنهار مبصراً تعين ان المراد إبصار أهله فيه ، وإنما اسند إلى نفس النهار للمبالغة في كونه ظرفاً لإبصار أهله))[3] . وأضفى الإسناد المجازي في قوله : (والنهار مبصراً) على السياق الوارد فيه تصويراً للحركة التي تقع فيه ، وهي حركة أهلِهِ

(١) الحاشية : ٥٩٦/١ .

(٢) الحاشية : ١٢٩/٢ .

(٣) الحاشية : ٥٠٢/٣ ، وينظر : ٥٦٦/٤ .

فلكونه مبصراً يستلزم انه ذو حياة ونشاط اكتسبها من أهله ولكونه ظرف وزمان يقوم الناس فيه بالحركة صار كأنه عين الحركة والإبصار فأسندت إليه الإبصار لذلك على نحو المجاز .

ب-المجاز اللغوي (المرسل) وعلاقاته :

يُعرف المجاز اللغوي بكونه : ((استعمال اللفظ في غير ما وضع له أصلاً ، لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي))[١] . فهو انتقال ذهني من دلالة وضعية إلى أخرى مكتسبة لأجل الثراء والتوسع في اللغة ، وقد نبه الجرجاني[٢] (ت٤٧١هـ) إلى هذا النوع من المجاز في اللفظ المفرد ، مقسماً إياه بحسب العلاقة بين المعنى الأصلي (المنقول عنه) إلى الآخر المستعار (المنقول إليه) ، فهي أما علاقة مشابهة أو علاقة ملابسة فقط . وقد اعتمد أغلب البلاغيين[٣] على هذا التقسيم فيما بعد ، مصطلحين على الأول (استعارة) وعلى الآخر (مجازاً مرسلاً) .

والمجاز المرسل هو التجوز باللفظ من معناه إلى معنى آخر مكتسب ، وتكون العلاقة فيه بين المعنى الموضوع له اللفظ والمعنى المستعمل فيه غير المشابهة[٤] ، أما تسميتهِ مرسلاً ، فلإرساله وإطلاقه عن التقيد بعلاقة المشابهة التي تقيد الاستعارة[٥] ، ويحتاج المتأمل في علاقاته إلى حس بلاغي لاستنباطها من خلال التدقيق في الاستعمال المجازي ، لذلك اهتم شيخ زادة بالكشف عن هذه العلاقات الكاشفة عن دقة المستعمل وبلاغته ، ألا وهو النص القرآني ، فمن تلك العلاقات التي أشار إليها شيخ زادة :

أولاً : **السببية** :

هي إطلاق لفظ السبب وإرادة المسبب ، كقوله تعالى : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩] ، فلفظ (عيني) ههنا ليس على حقيقتة بل جيء به مجازاً ،

(١) علم أساليب البيان ، د. غازي يَمُوت : ٢٠٠ .

(٢) ينظر : أسرار البلاغة : ٢٢٨ .

(٣) ينظر : الإيضاح : ٢٣٣ ، والمطول : ٥٧٤ .

(٤) ينظر : المطول : ٥٧٥ .

(٥) ينظر : رؤى في البلاغة العربية ، د. زين الخويكي ود. أحمد المصري : ١٦٢ .

وأوضح شيخ زادة علاقة هذا المجاز بقوله : (((والعين) مجاز عن الرعاية والحراسة بطريق إطلاق اسم السبب على المسبب ، فان الناظر إلى الشيء يحرسه عما لا يريد في حقه ويراعيه حسبما يريد فيه))[1] . فالعين سببٌ للحفظ والرعاية . فأطلقت في الآية وأريد بها الحفظ والرعاية مجازاً .

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣] إذ ان الرحمة هي سبب للتفضل والإنعام على البشر التي هي مسببات لحياتهِ ، إذ يقول شيخ زادة : ((ان إطلاق مثل هذه الأسماء عليه تعالى ، مجاز مرسل ، من قبيل إطلاق اسم السبب على المسبب ، فان تلك الكيفيات الانفعالية أسباب ومبادٍ لتلك الأفعال التي هي غايات لها كالرحمة والرقة اللتين هما من أسباب الإحسان والتفضل))[2] . فأطلقت ألفاظ (الرحمة والرحيمية) مجازاً ، لأن المراد بها التفضل والإحسان اللذان هما من مسببات الرحمة .

ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [الأحزاب:٥٧] فلفظ (الإيذاء) مجاز مرسل علاقته سببية ، إذ ان الإيذاء سببٌ ، لمسببات منها ارتكاب المعاصي ، ويوضح شيخ زادة ذلك بقوله : ((.. فوجب ان يحمل الإيذاء على معنى مجازي يعمهما ، ويصح إسناده إليهما وهو ارتكاب ما يكرهانه لا يرضيان به قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً كأنه قيل ان الذين يرتكبون ما لا يرضى الله ورسوله ، فان مخالفة الأمر وفعل ما لا يرضى سبب الإيذاء ... فأطلق السبب وأريد المسبب))[3] .

ثانياً : المسببة :

هي ذكر المسبب وإرادة السبب ، وذلك كقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾[النساء:١٠] ، أي يأكلون الحرام الذي يسبب النار ، إذ يقول شيخ

(١) الحاشية : ٣/٣١٥ .
(٢) الحاشية : ١/٢٧ .
(٣) الحاشية : ٤/٧٥ .

زادة في بيانه : ((فيكون (النار) مجازاً على طريق إطلاق المسبب وإرادة السبب))[1] . فأكلهم النار مجاز منقول عن أكلهم الحرام ، فهو مسبب وأثر له .

وكذلك قوله تعالى : ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف:٢٠٣] ، فأن البصائر أسباب لمسببات ، كاستنارة العقول بالحجة والدليل فأنها أسبابٌ مؤدية إلى البصيرة في الأمر ، وبين شيخ زادة علاقة هذا المجاز الوارد في النص بقوله : ((ان لفظ (البصائر) يُطلق على الحجج والبراهين بطريق إطلاق اسم المسبب على السبب ، فانها أسباب لبصائر القلوب وإدراكها والقرآن لاشتماله على دلائل التوحيد والنبوة والمعاد وجميع ما هو الحق والصواب من عقائد المكلفين وأفعالهم وأخلاقهم صار سبباً لبصيرة القلب وإدراكه لذلك المطالب))[2] . فأطلق لفظ (البصائر) مجازاً إذ ان المراد منها حقيقة هي الحجج التي في القرآن التي تبصر الإنسان في أموره ولكون هذه الحجج سبباً للتبصر التي هي مسببات ذلك السبب أطلق الثاني على الأول مجازاً.

ثالثاً : **المجاورة** :

هي إحدى علاقات المجاز المرسل ، وتعني أن : ((يطلق لفظ شيء ويراد به ما يجاوره))[3] . ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران:٩٦-٩٧] إذ أطلق اللفظ العائد على البيت في قوله تعالى : (فيه آيات) والمراد منه الحرم ، مجازاً مرسلاً ، علاقته المجاورة ، هذا ما أوضحه شيخ زادة بقوله : ((ان الضمير في قوله (فيه آيات) وان كان للبيت ، إلا انه أُريد به الحرم ، تجوزاً لعلاقة المجاورة أو بطريق إطلاق الجزء وإرادة الكل))[4] . واستنبط شيخ زادة هاتين العلاقتين من الآية ، ولم يشر البيضاوي[5] (ت٦٨٥هـ) اليهما .

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥] إذ عبّر

(١) الحاشية : ١٤/١ .
(٢) الحاشية : ٢٩٣/٢ .
(٣) أساليب البيان في القرآن : ٤١٠ .
(٤) الحاشية : ٢٩٣/٢ .
(٥) ينظر : تفسير البيضاوي : ١٧١/١ .

بالفِطام أو (الفصال) عن تمام الرضاع ، مجازاً مرسلاً ، علاقته المجاورة ، لأن الرِضاع التام يجاور فترة الفِطام ، فعبر عنه بالفصال أي الفِطام لذلك ، إذ يبين شيخ زادة نمط هذه العلاقة بقوله الافتراضي : ((المراد بيان مدة الرضاع لا الفِطام ، فكيف عبّر بالفِصال ، وتقرير الجواب انه لما كان المراد بيان مدة الرِضاع التام المنتهي بالفصال عبّر عن المراد به تعبيراً عن المراد باسم ما يجاوره وينتهي هو إليه ، وهو الفِصال ، فيكون الفِصال مجازاً مرسلاً عن الرضاع التام والعلاقة كون احدهما غاية الآخر ومنتهاه ، والنكتة في ارتكاب المجاز التنبيه على ان المراد بالرضاع التام المنتهي إلى الفِصال ووقته ولو قيل وحمله ورضاعه ثلاثون شهراً لما كان في العبارة دليل على كون المدة المذكورة منتهية إلى الفِصال))[1] فلفظ (الفصال) ههنا مجاز المراد منه ما يجاوره وهي مدة الرضاع إذ ان مدة الرضاع يجاورها الفطام بعد مدة حددها القرآن ، لذلك أطلق لفظ (الفِصال) على ما يجاوره . لما بينهما من المناسبة إذ ان الفِصال هو تمام الرضاعة ويكون مجاوراً زمنياً لها . ولشيخ زادة في هذا النص جهد الاصطلاح على النوع البلاغي ، وبيان علاقته التي استنبطها من كلام البيضاوي[2] (ت٦٨٥هـ) ، وتفسيره للآية . ومن أمثلة علاقة المجاورة أيضاً قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المجادلة:١٢] ، إذ يوضح شيخ زادة المجاز في الآية وعلاقته بقوله : ((ان النجوى ليس لها يدان حتى يضاف اليهما لفظ (بين) ويجعل مدلوله ظرفاً لتقديم الصدقة ، فلما تعذرت الحقيقة تعين المصير إلى المجاز ، وقد تقرر ان لفظ (يدين) في نحو قولك جلست بين يدي فلان مجازاً أُريد به الجهتان الواقعتان في سمت يديه وما بينهما وهو جهة الأمام ، أطلق لفظ اليدين عليها على طريق إطلاق اسم الشيء على ما يدانيه ويتصل به))[3] .

فأطلق لفظ (بين يدي نجواكم) مجاز ، وأما قرينة (فقدموا) فتدل على ان المراد بلفظ (بين يديّ) أي أمامها ، وأطلقت مجازاً لعلاقة المجاورة . فتكون دلالة التركيب

(١) الحاشية : ٣٣٤/٤

(٢) ينظر : تفسير البيضاوي : ٣٩٤/٢ .

(٣) الحاشية : ٤٦٦/٤ .

المجازي ، فلتتقدم الصدقة على نجواكم ، لأنها تطهير لكم .

رابعاً : **المحلية** (**المكانية**) :

إذ يطلق المحل ، ويراد به الحال ، ونبه شيخ زادة إلى تلك العلاقة في مواضع من حاشيته ، ومنها قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان:٥] ، إذ ذكر الكأس والمراد منه ، ما فيه من الشراب إذ يقول شيخ زادة : ((فُسِر (الكأس) بالخمر على طريق ذكر المحل وإرادة الحال))[١] . فالكأس وصفت حالهم والنعيم الذي هم فيه ، فالشراب بالكؤوس غالباً ما يكون في حالة الترف والمُلك فكان لذكر (الشراب) بلفظ (الكؤوس) وهو محلهُ لهُ دلالته البليغة ، ومن تلك العلاقة قوله تعالى : ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزُّمَر:٢٢] ، إذ ذكر المحل وهو (الصدر) والمراد ذكر الحالة وهي الطمأنينة بفضل التمسك بنعمة الإسلام ، ذلك ما بينه شيخ زادة بقوله : ((ان شرح الصدر عبارة عن تهيئة النفس الناطقة وتقوية استعدادها لقبول الإسلام على طريق ذكر المحل وإرادة الحال ، فان الصدر محل القلب الذي هو المنبع للروح الحيواني الذي تتعلق به النفس ... فذكر الصدر وأريد به النفس بهذه العلاقة))[٢] . فلفظ (الصدر) أبلغ في تأدية المراد فهو محل الطمأنينة كما انه مصدر إشعاعها ومركزها .

ومن تلك العلاقة أيضاً قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣]، فأطلق لفظ (الوسط) وهو استعارة هنا من المكان أو المحل المتوسط ، وأراد حال الأمة في التوسط بالأحكام ، إذ يقول شيخ زادة : ((فان لفظ الوسط لما كان مستعاراً للخصال المحمودة تشبيهاً لها بالوسط الحقيقي الذي هو المكان المذكور من حيث وقوعها بين طرفي إفراط وتفريط كوقوع ذلك المكان بين الجوانب أطلق على من اتصف بالخصال المحمودة ، مجازاً مرسلاً في الدرجة الثانية على طريق تسمية المحل باسم الحال

(١) الحاشية : ٥٨٨/٤ .

(٢) الحاشية : ١٩٩/٤ .

الموصوف بأسم الصفة))[1] . فوجد شيخ زادة في النص مجازين: الأول في الاستعارة التصريحية للفظ (الوسط) إذ شبه التوسط بالخصال بالوسط من المكان ، والثاني في المجاز المرسل إذ عبّر عن الحال وهو التوسط بالأحكام بلفظ المحل (التوسط بالمكان) .

وقد ذكر البيضاوي[2] (ت٦٨٥هـ) النوع الأول من المجاز ، فيما استنبط شيخ زادة النوع الآخر (المجاز المرسل) مُصْطَلِحاً عليه ومبيناً لنوعه .

خامساً : الحالِيَّة :

وهي أن يذكر الحال أي ما يحل في المكان ويراد به المحل والمكان ، كقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ [الروم:٥٥] ، فقوله تعالى: (يوم تقوم الساعة) أي يوم القيامة ، فذكره بلفظ الحال فقال (ساعة) ، أي لحظات متسارعة على الإنسان والمراد منه ما يحلُ فيه من أهوال متعاقبة ، وأوضح شيخ زادة علاقة المجاز في النص بقوله: ((ان ساعات الدنيا أجزاء من أجزاء الزمان ، وسميّ ما وقع في آخر ساعة من ساعات الدنيا ساعة بطريق تسمية الحال باسم المحل))[3] .

سادساً : الملزومية :

أي ذكر الملزوم والمراد اللازم ، أو هي ((كون الشيء بحيث يجب عند وجوده وجود شيء آخر))[4] . ونبه شيخ زادة إلى تلك الدلالة في مواضع متعددة من حاشيته ، منها في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةًۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٧٤] ، فقد بيّن شيخ زادة لهذا النص المقدس أكثر من علاقة مجاز ، ومنها الملزومية إذ يقول : ((الهبوط من خشية الله صفة للأحياء العقلاء والحجر جماد لا حياة له فضلاً عن العقل فلا يوصف بالخشية وتقرير الجواب ان الخشية مجاز عن الانقياد على طريق إطلاق اسم الملزوم وإرادة اللازم، فان

(١) الحاشية : ٤٤٥/١ .

(٢) ينظر : تفسير البيضاوي : ٩١/١ .

(٣) الحاشية : ٣٣/٤ .

(٤) الرسالة الفارسية في المجاز ، ابراهيم عصام الدين الاسفراييني : ١٩٨ .

الخشية ملزوم للانقياد فأطلقت وأريد بها لازمها الذي هو الانقياد مجازاً مرسلاً، فالظاهر على هذا ان يكون قوله (من خشية الله) متعلقاً بجميع ما ذكر من الأفعال وهي تشقق بعض الحجارة تشققاً مؤدياً إلى تفجر الأنهار وتشقق بعضها لخروج الماء وهبوط بعضها ، فان كل ذلك من خشية الله تعالى بمعنى الانقياد لما أراد الله منها ... والأنهار جمع نهر وهو المجرى الواسع من مجاري الماء أريد به الماء الكثير مجازاً على طريق ذكر المحل وإرادة الحال وكذا التفجر مجاز عن السيلان على طريق ذكر السبب وإرادة المسبب))[1] .

والملاحظ على هذا النص دقة شيخ زادة في تتبع النص القرآني بلاغياً فلم يشر البيضاوي (ت٦٨٥هـ) ، إلى هذه الأنواع البلاغية ولا إلى علاقات المجاز ، واكتفى بالقول : ((والخشية مجاز عن الانقياد))[2] . سائراً على هدي الزمخشري[3] (ت٥٣٨) في تفسير الآية بيانياً . فيما فصّل شيخ زادة في بلاغة هذا النص فأشار إلى التشخيص بقوله : ((الهبوط من خشية الله صفة للأحياء العقلاء والحجر مما لا حياة له فضلاً عن العقل)) . إذ جعل الحجر شخصاً مطيعاً يخشى الله تعالى كما يخشى العقلاءُ ربَهم ، فيما أوجد للنص ثلاث علاقات ، الملزومية في قوله تعالى : (لما يهبط من خشية الله) إذ أطلق لفظ (الخشية) مجازاً لكون المراد منها الطاعة اللازمة للخشية . وعلاقة المحل في قوله (لما يتفجر منه الأنهار) إذ ذكر الأنهار والمراد الحال وهو الماء الكثير ، وعلاقة السبب بذكر لفظ (التفجر) وإرادة التدفق والسيلان. وهذا ما تفتقر إليه مصادر التفسير الكبيرة، كالكشاف وتفسير البيضاوي، ويتضح بذلك حسه البلاغي وتذوقه الجمالي للنص القرآني .

ومن المجاز الذي علاقته ذكر الملزوم وإرادة اللازم قوله تعالى : ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان:١٢-١٣] ، فلفظ (الشمس) ولفظ (الزمهرير) ههنا مجاز كما يرى شيخ زادة أما علاقته بالمعنى الحقيقي فيبينها بقوله : ((ان ذكر الشمس في الآية من قبيل ذكر اسم الملزوم وإرادة اللازم ،

(١) الحاشية : ٣٣٢/١ .
(٢) تفسير البيضاوي : ٧٠/١ .
(٣) ينظر : الكشاف : ١٤٥/١ .

لان المقصود توصيف الجنة باعتدال الهواء وخلوها عن الهواء الحار المؤذي بحره وعن الهواء البارد المؤذي ببرده فذكر الشمس والزمهرير وأريد ما يلزمهما من خروج الهواء بسببهما عن الاعتدال))[1] . فذكر (الشمس) وأراد لازمها مجازاً وهي الحرارة ، وذكر (الزمهرير) وأراد لازمه مجازاً وهو البرودة .

ومن تلك العلاقة أيضاً قوله تعالى : ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١] ، إذ أشار شيخ زادة ان في لفظ (بأذن ربهم) مجازاً ، علاقته ذكر الملزوم وإرادة اللازم فبين علاقته بقوله : ((مجاز مرسل على طريق إطلاق الملزوم وإرادة اللازم ، فان لفظ (الاذن) حقيقة في الإطلاق ورفع الحجب ويلزمه التسهيل والتيسير فان الدخول في حق الغير وملكه متعذر فإذا صُودِف الأذن يكون تسهيلاً وتيسيراً ، فلما كان التسهيل في لوازم الأذن صح استعمال لفظ (الأذن) فيه مجازاً))[2] .

ويلحظ هنا أن شيخ زادة قد فسر المجاز تفسيراً بلاغياً اعتماداً على بيان مقصد الزمخشري[3] (ت٥٣٨هـ) والبيضاوي[4] (ت٦٨٥هـ) ، فقد ذهبا إلى ان لفظ (الإذن) مستعار ، فبين شيخ زادة مقصدهما إذ أوضح ان هذا اللفظ استعارة لغوية وليس استعارة بيانيه وخصصها بكونها مجازاً مرسلاً وبيّن علاقته بكونه ذكراً للملزوم وإرادة للازم .

سابعاً : اللزومية :

هي أحد العلاقات المجاز المرسل التي تكون بذكر اللازم وإرادة الملزوم ، لكون اللفظ المذكور يجب عند ذكره وجود شيء آخر لازماً له ، فاللزوم بذلك هو امتناع الانفكاك بين معنيين[5] . وذلك كقوله تعالى : ﴿الٓمٓصٓ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف:٢] ، إذ أطلق لفظ (الحرج) وأراد الشك وهو من لوازمه إذ يقول

(١) الحاشية : ٥٩٠/٤ .

(٢) الحاشية : ١٢٣/٣ .

(٣) ينظر : الكشاف : ٥٢٤/٢ .

(٤) ينظر : تفسير البيضاوي : ٥١٢/١ .

(٥) ينظر : الرسالة الفارسية في المجاز : ١٩٨ ، وأساليب البيان في القرآن : ٤١٢ .

شيخ زادة في بيان ذلك : ((ان لفظ الحرج ليس حقيقة فيه ، فتعين كونه مجازاً فيه ، احتاج إلى بيان العلاقة بين المعنى الأصلي والمجازي ، وهي ان الحرج من لوازم الشك واللفظ المستعمل في الملزوم مع عدم إمكان إرادة المعنى الأصلي مجازاً إذ لا يمكن ههنا إرادة حقيقة الحرج ... وإنما المتصور ان يحرج القلب من عدم اليقين بكونه منزلاً من عند الله تعالى فان الشاك في الحكم لا يستقر في قلبه أحد طرفي النسبة فيضيق قلبه منه))[1] ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزُّمَر:٦] ، إذ أطلق لفظ (الإنزال) والمراد ملزومه وهو القضاء والقسمة بالرزق لكل إنسان فهذه القسمة مقدرة ونازلة من السماء ، لكل فرد من أفراد البشر ، لذلك قيل (أنزل) أي قدر وقضى فهي من لوازمهِ ولعل هذا ما أراده شيخ زادة بقوله : ((ذكر الانزال وإرادة القضاء من قبيل ذكر اللازم وإرادة الملزوم فيكون مجازاً مرسلاً))[2] .

ثامناً : **الجزئية** :

إذ يطلق الجزء ويراد الكل ، فيعبر اللفظ بجزئهِ عن كلهِ ، كقوله تعالى : ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة:٩٥] ، فأنّ لفظ (اليد) مجاز مرسل ، إذ يقول شيخ زادة في بيانه : ((ان اليد ههنا مجاز مرسل أما عن أنفسهم بطريق إطلاق اسم الجزء المختص على الكل وأما عن قدرتهم ، بطريق إطلاق اسم آلة الشيء))[3] . فافترض شيخ زادة علاقتين للنص وكلتاهما واردتان . لكون اليد هي الآلة عند الإنسان وبواسطتها يقترف الذنوب وهي جزءٌ منه أيضاً . وجعل شيخ زادة قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١١٥] من المجاز ، وان علاقته إطلاق الجزء على الكل ، إذ يقول : (((الوجه) مجازاً من قبيل إطلاق اسم الجزء على الكل والمعنى ففي أي مكان فعلتم التولية فهو موجود فيه يمكنكم الوصول إليه إذ ليس هو جوهراً أو عرضاً حتى يكون في مكان))[4] . فلفظ (الوجه)

(١) الحاشية : ٢٢٦/٢ .
(٢) الحاشية : ١٩٣/٤ .
(٣) الحاشية : ٣٥٧/١ .
(٤) الحاشية : ٣٩٥/١ .

ههنا مجاز عن الوجهة والمكان الذي يستقبلهُ الناس في توجههم .

تاسعاً : **باعتبار ما يكون** :

إذ يطلق اللفظ بصيغة المستقبل ، أي ما سيؤول إليه الأمر آجلاً ، وذلك كقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٧] ، إذ يقول شيخ زادة في إيضاح مجاز الآية : ((أي إلا ما سيكون فاجراً كفاراً إذا بلغ مبلغ التكليف فهو من قبيل تسمية الشيء بما سيؤول إليه))[١] .

عاشراً : **باعتبار التعلق أي (تسمية المتُعلّق باسم المُتَعلَّق)** :

وذلك كقوله تعالى : ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزُّمَر:٥١] ، فلفظ (السيئات) ههنا مجاز مرسل علاقته مع المعنى الأصلي علاقة تعلق ، إذ يقول شيخ زادة في بيانها : ((ولما ورد ان يقال عقوبة العاصي عدل تقتضيه الحكمة فكيف يصح ان تسمى سيئة ... وسمّاه سيئة على طريق المجاز المرسل تسمية للشيء باسم متعلقهِ فان الجزاء الذي أصابهم إنما أصابهم في مقابلة أعمالهم السيئة ونكتة المجاز الرمز إلى ان جميع أعمالهم كذلك))[٢] . فسمى جزاءهم بلفظ (سيئات) مجازاً لتعلقها بأفعالهم وهي كلها سيئات فالعلاقة بين المعنى الأصلي والمجازي علاقة تعلق ، إذ ان جزاءهم متعلق بجنس أفعالهم ، ومن تلك العلاقة أيضاً قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾[سبأ:٢١] ، فالعلم ههنا مجاز متعلق بظهور دلائله ، وهو وإن كان في علم الله تعالى متحققاً ، إلا ان تعلق العلم بالجزاء لم يحصل إلا إذا تحققت دوافع الكفر والإيمان في دار التكليف ، فذكر العلم وأراد مُتَعَلَقه وهو حصوله متحققاً في دار الدنيا ، ولعل هذا ما أراده شيخ زادة في قوله : ((فيكون (العلم) مجازاً مرسلاً من قبيل ذكر المتِعلق وإرادة المتعلَق والنكتة في إيثار طريق التجوز والمبالغة في تحقق المتعلق فان العلم به متفرع على تحققه ، فكان بمنزلة ذكر الشيء

(١) الحاشية : ٥٥٢/٤ .

(٢) الحاشية : ٢٠٨/٤ .

بدليله))[1] .

ومما ذكر يتضح أن شيخ زادة له جهد بلاغي متميز حين بحث المجاز بأنواعه في ثنايا حاشيته ، إذ لم يكتفِ بذكر أنواع المجازات في الآيات الكريمة ، وإنما أضاف على ذلك جهداً في بيان أغراض التراكيب المجازية في مواضع متعددة ، فضلاً عن سعة دراسته وتفصيله في الفن البلاغي الذي يعرض له ، إذا ما قارناه بغيره من المفسرين ممن عُدوا من أصحاب الجهود البلاغية ، كالزمخشري .

(١) الحاشية : ٨٨/٤ .

المحور الثالث : الاستعارة :

١-الاستعارة في اللغة والاصطلاح :

الاستعارة لغةً من العارية وهي ما يُستعار من الأشياء فيقال يتعاورون من جيرانهم الماعون والأمتعة أي يأخذون ويعطون بها ، فهي عملية انتقال إذاً ، ويقال الاستعارة من المعاورة والتعاور ، أي التداول في الشيء يكون بين اثنين ، فيقال اعتور الشيء وتعوره وتعاوروه أي تداولوه فيما بينهم[١] . فالاستعارة لغة بمعنى الانتقال من جهة إلى أخرى ، أو مداولة شيء بين اثنين .

وأما في الاصطلاح فهي فرع التشبيه ، ولكنها أبلغ منه ، لأنها ((أعمق منهُ تصويراً وأخصر تعبيراً ، حيث أنها تقوم على تناسي التشبيه وحذف أحد طرفيه حتى يتعمد حمل السامع على تخيل صورة جديدة تنسيكَ روعتها ما تضمنهُ الكلام من تشبيه خفي مستور))[٢] . وجوهر الاستعارة مبني على إعادة صياغة الواقع بشكل نابض وجديد ، فتسبغ الحياة على ما لا حياة له ، فنرى من خلالها ((الجماد حياً ناطقاً والأعجم فصيحاً والأجسام الخُرس مبينة والمعاني الخفية بادية جلية))[٣] . كما يرى الجرجاني (ت٤٧١هـ) وهي في القرآن مميزة ، لكونها لوناً من ألوان التصوير وهي من أدواته المفضلة فمن خلالها يعبر عن المعنى الذهني والحالة النفسية والحادث المحسوس فهو يعمد إلى هذه الصورة التي رسمها فيعطيها ألوانها وظلالها ثم لا يلبث بعد ذلك ان يضيف لها الحركة فالحوار فإذا هي شاخصة تسعى[٤] .

وقد أولى العلماء هذا الفن عناية كبرى ، لارتباطها بالتفسير البياني والفني التصويري لآيات كثيرة في القرآن الكريم كما انها من أساليب العربية في كلامها ، فقد عرفها الجاحظ(ت٢٥٥هـ)بقوله: ((تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه))[٥] . معتبراً فيه المعنى اللغوي للاستعارة والمعنى العام للمجاز ، وسار على منوال هذا الحد

(١) ينظر العين (عور) : ٢٣٩/٢ ، والصحاح : ٧٦١/٢ ، وتاج العروس (عور) : ٤٣٠/٣ .

(٢) الصور البيانية بين النظرية والتطبيق : ٣٦٨ .

(٣) أسرار البلاغة : ٤٣ .

(٤) ينظر : التعبير الفني في القرآن الكريم ، د. بكري شيخ أمين : ٢٠٢ .

(٥) البيان والتبيين : ١٥٣/١ .

ابن قتيبة[١] (ت٢٧٦هـ) ، وابن المعتز[٢] (ت٢٩٦هـ) ، ثم عرفها الرماني (ت٣٨٦هـ) بقوله: ((تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة))[٣] . فصار معنى النقل من ذلك الحين ملازماً لحدها عند أغلب من جاء بعد الرماني ، كأبي هلال العسكري[٤] (ت٣٩٥هـ) الذي بيّن في حدّ الاستعارة أغراضاً لذلك النقل وبيّن إنها معنوية لشرح المعنى وإبانته وتأكيده والمبالغة فيه والإشارة إليه بالقليل من اللفظ وتحسينه،ثم جاء الجرجاني (ت٤٧١هـ) بمعنى جديد لمفهوم الاستعارة ألا وهو معنى المشابهة ، فحدها بقوله: ((فالاستعارة ان تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع ان تفصح بالتشبيه وتظهره وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه))[٥].فأوضح الأساس في الاستعارة ألا وهو التشبيه المضمر فيها، فالاستعارة لديه إدعاء شيء لشيء وليس نقل لفظ لشيء إذ يقول : ((ليست الاستعارة نقل اسم عن شيء إلى شيء ولكنها أدعاء معنى الاسم لشيء))[٦] وتبعه في ذلك الرازي[٧] (ت٦٠٦هـ) والسكاكي[٨] (ت٦٢٦هـ)،وابن الأثير[٩] (ت٦٣٧هـ)،الذي مازَ بين التشبيه والاستعارة ، وابن مالك[١٠] (ت٦٨٦هـ) والقزويني[١١] (ت٧٣٩هـ)، والعلوي (ت٧٤٩هـ) ، الذي استقر التعريف لديه ، إذ عرف الاستعارة بكونها : ((تصييرك الشيءَ الشيءَ وليس به وجعلك الشيء للشيءَ وليس له بحيث لا يلحظ فيه معنى التشبيه صورة ولا حكماً))[١٢].

(١) ينظر : تأويل مشكل القرآن : ٨٨ .
(٢) ينظر : البديع : ٢ .
(٣) النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل) : ٨٥ .
(٤) ينظر : الصناعتين : ٢٤٠ .
(٥) دلائل الإعجاز : ٦٧ .
(٦) المصدر السابق : ٤٣٤ .
(٧) ينظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : ٢٣٢ .
(٨) ينظر : المفتاح : ٤٧٧ .
(٩) ينظر : المثل السائر : ٣٤٤/١ .
(١٠) ينظر : المصباح في علوم البلاغة ، تحقيق د. عبد الحميد الهنداوي : ١٦٠ .
(١١) ينظر : الإيضاح : ٢٤١ .
(١٢) الطراز : ٩٨ .

فالاستعارة بذلك أعمق من معنى نقل لفظ أو عبارة إلى آخر ، وإنما هو كما قال العلوي : ((تصييرك الشيءَ الشيءَ وليس به وجعلك الشيء للشيء وليس به)) ، فهي الخيال الذي يرسم أبعاداً وحدوداً للمجردات فيسبغ عليها الحياة فهي تصوير للعدم وتصييره وجوداً ، واستدعاء للحوادث والمعاني استدعاءً مشخصاً ، وذلك عندما تكون الاستعارة للمعدوم والمجرد ، إذ تستعار الحياة لمن لا حياة له ، فيظهر بذلك ما غاب عن حس الإنسان شاخصاً ملموساً أمامه .

وذهب شيخ زادة مع الجرجاني والبلاغيين الذين اتبعوه في اعتماد علاقة التشبيه المضمر في النفس للتفريق بين نوعي المجاز : المرسل والاستعارة ، فالاستعارة لديه تقوم على أساس التشبيه المحذوف الأركان إلا من ركن واحد[١] . أما وظيفتها وإن تعددت إلا إن الأساس فيها هو التصوير الخيالي إذ يقول شيخ زادة ((فان المقصود من الاستعارة تصوير المشبه بصورة المشبه به إبرازاً لوجه الشبه فيهِ بصورته في المشبه به من غير أن يكون ناقصاً عن ما في المشبه به كما في صورة التشبيه ، فإذا قلت رأيت أسداً يرمي فقد صورت المشبه وشجاعته بصورة الأسد وجرأته))[٢] . فهي استعارة صورة لمعنى بغية تقريبها وفكرة شيخ زادة في الاستعارة تتضح أكثر عند مناقشة صور الاستعارة وأنواعها وكيف تضفي الاستعارة على سياقات ورودها حياةً وحيوية ونشاطاً .

٢-صور الاستعارة عند البلاغيين :

تتشعب صورة الاستعارة وأقسامها من عالم إلى آخر وتختلف أنماطها باختلاف الفكر البلاغي والفلسفي لكل عالم ، ولعل أنضج محاولة من المحاولات الأولى لتقسيم الاستعارة كانت عند الجرجاني[٣] (ت٤٧١هـ) ، إذ قسم الاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة ، وقسم المفيدة إلى قسمين ، افاد منها فيما بعد الرازي[٤] (ت٦٠٦هـ) ، إذ اصطلح

(١) ينظر : الحاشية : ١١٨/١ ، و ١٠٨/٤ ، و ٤٣٣/٣ .
(٢) الحاشية : ١٠٣/١ .
(٣) ينظر : أسرار البلاغة : ٢٢ .
(٤) ينظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : ٢٥١ .

على أحدهما مصطلح (الاستعارة بالكناية) ، واصطلح السكاكي[١] على الأخرى مصطلح (الاستعارة التصريحية) ، وبين الجرجاني أقساماً أخرى للاستعارة كالاستعارة بالاسم والفعل والتي اصطلح عليها الرازي[٢] (ت٦٠٦هـ) الاستعارة التبعية والأصلية ، وأكمل جهد الجرجاني بالبحث بالاستعارة المجردة والمرشحة والتخييلية ، ولا تعدو تقسيمات السكاكي[٣] (ت٦٢٦هـ) ان تكون ترديداً لتقسيمات الرازي ، إلا بالتفريع للاستعارة التصريحية إلى أنواع ، كالاستعارة التصريحية التحقيقية وأخرى تخييلية وأخرى تحتمل التحقيق والتخييل ، وهو ما ردده ابن مالك[٤] (ت٦٨٦هـ) فيما بعد ، فيما أضاف القزويني[٥] (ت٧٣٩هـ) نوعي الاستعارة الوفاقية والعنادية ، وهذه التقسيمات بعيدة عن التذوق الفني والجمالي لصور الاستعارة ، ولم يخرج شيخ زادة عنها ، إلا ان بحثه لها كان مختلفاً إذ كان جهده مركزاً على مضمون الاستعارة وما تبعثه من صورة وإيحاء فني .

٣-صور الاستعارة عند شيخ زادة :

أ- الاستعارة التصريحية :

إذ يعبر عن المشبه بلفظ المشبه به فيختفي المشبه ويُصرح بالمشبه به الذي يقوم مقامه ، فيستعار بذلك لفظ المشبه به للمشبه ، وقد اشترط شيخ زادة للاستعارة التصريحية اختفاء المشبه أو المستعار له في السياق الاستعاري إذ يقول : ((شرط الاستعارة التصريحية ان يطوى ذكر المستعار له بحيث لا يكون مذكوراً أصلاً أي لا لفظاً ... ولا مقدوراً ... ولا معنوياً ... وهو وان وجب ان لا يكون مذكوراً أصلاً لا لفظاً ولا تقديراً أو لا نية إلا ان معناه يكون مراداً بلفظ المستعار منه فحينئذٍ يكون لفظ المشبه به مستعاراً للمشبه))[٦] .

---

(١) ينظر : المفتاح : ٤٨٢ .

(٢) ينظر : اسرار البلاغة : ٣١ ، وينظر : نهاية الإيجاز : ٢٤٤ .

(٣) ينظر : المفتاح : ٤٨٢-٤٩٤ .

(٤) ينظر : المصباح : ١٧٥ وما بعدها .

(٥) ينظر : الإيضاح : ٢٤٩ .

(٦) الحاشية : ١/١٦١-١٦٢ .

فالاستعارة التصريحية لديه استعارة لفظ المشبه به للمشبه وهي عند أغلب البلاغيين كذلك ، ولم ينشغل شيخ زادة بتقسيمات الاستعارة التصريحية ، ولكن كان جُلّ اهتمامه على ما تبعثه هذه الاستعارة من إيحاءات فنية وتصويرية للسياقات التي يُصرح بها بذكر المشبه به أو المرموز له إلى معنى من المعاني ولبيان ذلك نستعرض جهده في هذا المضمار ، ففي قوله تعالى ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة:١٣٨] .

اهتم شيخ زادة بالكشف عن المعنى الذهني المُصَور بالاستعارة بصورة محسوسة ، إذ يقول : ((والصبغ ما يُلون به الثياب والصبغ المصدر ، والصبغة الهيئة التي تبنى للنوع والحالة من صَبَغَ كالجلسة من جلس ، وهي الحالة التي يقع الصبغ عليها ، وهي في الآية مستعارة لفطرة الله التي فطر الناس عليها شبهت الخلقة السليمة التي يستعد العبد بها للإيمان وسائر أنواع الطاعات بصبغ الثوب من حيث ان كل واحد منها حِلية لما قامت هي به وزينة له ثم أطلق اسم المشبه به وهو الصبغة وأريد به المشبه الذي هو الفطرة السليمة والخلقة الإيمانية على سبيل الاستعارة التصريحية))[1] .

فاستعار الصبغة للفطرة والاستعداد ، لتقريب هذه المعاني ولتحسينها وذلك باستعارة صبغ الثوب وتزيينه لها وهي معانٍ حسية مرموقة لدى الإنسان .

وقد تصّور الاستعارة التصريحية الحادثة الطبيعية المستترة بصورة المشهد المنظور ، وذلك كقوله تعالى : ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس:٣٧] فيوضح شيخ زادة الاستعارة في الآية بقوله : ((ان المستعار له إزالة ضوء النهار عن الأماكن التي تقع عليها ظلمة الليل بحيث تكون تلك الظلمة ظاهرة منكشفة والمستعار منه سلخ الجلد عن الشاة ، شبه إزالة ضوء النهار وانكشاف ظلمة الليل بسلخ الجلد عن الشاة فأطلق اسم السلخ عليها ، ثم اشتق منه نسلخ فهو استعارة تصريحية تبعية))[2] . فقرّبت هذه الآية مشهد انقباض الظل انقباضاً يسيراً وانكشاف ضوء النهار باستعارة مشهد آخر محسوس وهو من الواقع الملموس للإنسان العربي وهو مشهد سلخ الشاة الذي اعتادوا

(١) الحاشية : ٤٣٩/١ ، و٧٨/٣ .

(٢) الحاشية : ١٣١/٤ .

على رؤيته ، فاستعار هذه الصورة التي جرت عليها العادة عندهم لصورة غير مدركة الكيفية وهي صورة إيلاج الصبح من الظلام بغية تقريبها إلى الذهن وتصويرها خير تصوير .

ومن الاستعارة التصريحية قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [سبأ:٤٨] ، فقد صرح بلفظ المشبه به (يقذف) لتصوير قوة المشبه أكمل تصوير ، إذ يقول شيخ زادة في تفسير تلك الاستعارة : ((شبه إيراد الحق على الباطل لإذهاب الباطل بالقذف ، بإلقاء الشيء على الشيء بدفع واعتماد ، ثم ذكر القذف وأريد إيراد الحق على الباطل لإذهابه فيكون قوله (يقذف) استعارة تصريحية تبعية))[١] . فلفظ يقذف أقوى وأجزل في تصوير دفع الباطل بالحق من اللفظ الحقيقي المعبر عن هذا المعنى ولذلك استعير للتعبير عنه استعارة تصريحية . ومن الاستعارة التصريحية قوله تعالى : ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [يس:٢٩] ، إذ يقول شيخ زادة في سرّ الاستعارة في الآية : ((شبهوا حال جريان الموت عليهم بالنار التي يسكن لهبها ولم يطفأ جمرها فأطلق عليهم اسم المشبه به وهو الخامد على طريق الاستعارة التصريحية ، وفي هذه الاستعارة رمز إلى تشبيه الحي بالنار الساطعة في ان كل واحد منهما يرتفع ويتحرك إلى جهات مختلفة على حسب الدواعي المختلفة والى تشبيه الميت القديم العهد بالرماد من حيث انه سكنت حركته الإرادية بالموت ثم تحول جسده تراباً كالرماد))[٢] .

فاللفظ المستعار (خامدون) يصور حالهم بالنار المنطفئة وهو تصوير يقرب المعنى إلى ذهن المتلقي إذ هي صورة من بيئته المحسوسة ، وبين شيخ زادة أن بعض المعاني لا تحسن إلا في الاستعمال الاستعاري الذي يضفي على المعاني وجوداً وتجسيماً يقربها إلى إدراك المتلقي كقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحِجر:٢١] ، إذ يقول شيخ زادة في بيان دلالة الاستعارة فيها : ((والخزائن جمع ... وهو اسم للمكان الذي تخزن فيه الأشياء أي تحفظ فإن كان

(١) الحاشية : ٩٦/٤ .

(٢) الحاشية : ١٢٧/٤ .

محصل المعنى ما من شيء من الممكنات الغير متناهية إلا وخزائنه عندنا تكون الخزائن استعارة تصريحية للقدرة ، شبه اقتداره على إيجاد الممكنات بأسرها بالخزانة فأطلق عليه اسم الخزانة ، وجمع ، مع ان قدرة الله تعالى لا تعدد فيها فضلاً عن القدرة المتعلقة بكل واحد من الأشياء المقدرة وفائدة العدول إلى المجاز ، بأن مقدورات الله تعالى كأنها حاصلة موجودة بالفعل وهذه الفائدة لا تحصل بأن يقال وان من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه))[1] . فصرح بلفظ المستعار منه وهو (الخزائن) بدلاً من المستعار له وهي (القدرة) ، لما في هذا اللفظ من إيجاد وتصوير لها ، وكذلك قد تكون لمراعاة حال المخاطبين الذين يميلون إلى المحسوسات فالخزائن قربت معنى القدرة ورسمت ملامحها بأحرف من خيال ، لكي يتصورها الإنسان سواء كان مادياً أو كان لاهوتياً .

ب- الاستعارة المكنية :

وهي تلك التي لا يُصرح فيها بلفظ المشبه به بل يُطوى ويرمز له بلازم من لوازمه ويسند هذا اللازم إلى المشبه ولهذا سميت استعارة مكنية أو استعارة بالكناية، لان المشبه به يحذف ويكنى عنه بلازم من لوازمه ، وإثبات لازم المشبه به للمشبه هو ما يسمى بالاستعارة التخييلية وهي قرينة المكنية[2] . فالاستعارة المكنية بذلك ما كُنِي فيها عن المشبه به بذكر المشبه ، وذهب شيخ زادة مع البلاغيين في كون الاستعارة المكنية لابدّ لها من قرينة وهي الاستعارة التخييلية ، ولكنه يخالفهم في الخلط بين مصطلحين من مصطلحات الاستعارة هذه فتارة يُسميها تسمية الخطيب القزويني[3] (ت٧٣٩هـ) ((تشبيهاً مضمراً في النفس)) وتارة يسميها تسمية أغلب البلاغيين[4] كالرازي (ت٦٠٦هـ) والسكاكي (ت٦٢٦هـ) بالاستعارة المكنية ، ولم يتحرج شيخ زادة في إطلاقهما معاً في نص واحد ، وهو خلط بالنسبة لوجهة النظر القائلة بأن مصطلح

(١) الحاشية : ١٥١/٣ .

(٢) ينظر : علم البيان (دراسة تحليلية لمسائل البيان) : ١٨٧ .

(٣) ينظر : الإيضاح : ٢٦٤ .

(٤) ينظر : نهاية الإيجاز : ٢٥١ ، ومفتاح العلوم : ٤٨٧ .

(التشبيه المضمر في النفس) يخرج الاستعارة من حيز المجاز اللغوي إلى التشبيه[١] ، ولكن من وجهة نظر شيخ زادة فان الاستعارة من المجاز اللغوي ، وإن أطلق مصطلح (التشبيه المضمر في النفس) فهو دقيق في استعماله للمصطلحين اللذين يصبان في مصب واحد عنده ألا وهو كونها التعبير عن المشبه به المحذوف بمشبه يحمل قرينة ذلك المحذوف فَذِكرهُ مصطلح (المكنية) ، لكونها اللفظ المشهور لها اما التشبيه المضمر للنفس فلأنها ماهية الاستعارة والأساس الذي يقوم عليه اللفظ المستعار ، ومن الأمثلة على توارد المصطلحين لديه بمعنى واحد معالجته للاستعارة في قوله تعالى : ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء:٢٤] ، إذ يقول : ((وأما الوجه في إضافة الجناح إلى الذل وليس له جناح فكونها دليلاً على الاستعارة بالكناية مخيلاً كون الذل من جنس الطائر ، ويسمى إثبات الأمر المختص بالمشبه به للمشبه استعارة تخييلية ، فانه شبه الذل بالطائر تشبيهاً مضمراً في النفس ولم يصرح من أركان التشبيه بشيء سوى المشبه وهو الذل ودل على ذلك التشبيه المضمر في النفس بأن أثبت للذل المشبه ما يختص بالمشبه به وهو الجناح من غير ان يتحقق في الذل شيء يجري عليه اسم الجناح بل الوهم يخترع له صورة تشبيهية بالجناح فأثبت تلك الصورة المخترعة ليكون إثباتها قرينة للاستعارة بالكناية))[٢] .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم:٤] ، إذ يقول : ((شبه الشيب أي تشبيهاً مضمراً في النفس بشواط النار أي بلهبها الخالص عن الدخان واقتصر من طرفي التشبيه على ذكر المشبه وهو الشيب كما اقتصر على ذكر المشبه في أنشبت المنية أظفارها ودّل على هذا التشبيه بإثبات الاشتعال للشيب كما دلّ على تشبيه المنية بالسبع بإثبات الأظفار لها فتشبيه الشيب بالشواط استعارة بالكناية وإثبات الاشتعال له استعارة تخييلية))[٣] .

نلاحظ من خلال التأمل بنصوصه الدقة في تحديد جمالية الاستعارة من خلال الرجوع إلى أصل تكوينها وهو التشبيه ، فهو لم يغفل كون الاستعارة في أصلها تشبيهاً

(١) ينظر : البيان في ضوء أساليب القرآن : ٢١٩ .
(٢) الحاشية : ٢١٩/٣ .
(٣) الحاشية : ٢٧٨/٣ .

، لذلك استعمل مصطلح القزويني ((التشبيه المضمر في النفس)) ولم يكتفِ بمصطلح السكاكي ((الاستعارة المكنية وقرينتها التخييلية)) . كما انه يبين وظيفة الاستعارة في إضفاء صورة مخترعة على السياق الاستعاري تزيد من فاعليته ومستوى تعبيره عندما يعبر عن المعاني المضمرة في النفس كمعنى الذل من الرحمة ، أو عندما يعبر عن حالة من حالات الإنسان كالشيب بصورة حسية متوهجة كصورة توهج شواظ النار .

والأمر الآخر الذي يعنينا في بحث شيخ زادة هو بيانه للخصائص البلاغية والفنية للاستعارة المكنية ، إذ أوضح شيخ زادة ان للاستعارة القرآنية وظائف وخصائص فنية تميزها في استعاراتها المكنية ومنها :

١-التجسيم :

من الخصائص الفنية للاستعارة المكنية صفة التجسيم ، إذ تخُرج المعنى المجرد في مظهر المحس الملموس، أو تضفي على المجردات التي لا تشغل حيزاً أو وزناً، ثقلاً وكثافة فإذا هي جسم على وجه التصيير والتحويل لا على وجه التشبيه والتمثيل[١] ، فيبدو ذلك المعنى المجرد بواسطة مسحة خيالية ساحرة جسماً قد يكون مشخصاً لإثارة المتلقي وشد انتباهه على هذا العالم الحي الذي حوله .

وقد أشار شيخ زادة لهذه الخصيصة الفنية في مواضع منها في قوله تعالى : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان:٢٤] ، إذ يقول شيخ زادة في بيان خصيصة هذا النوع من الاستعارة المكنية : ((ان الغليظ صفة مشبهة تنبيء عن الثقل والكثافة أو عن التراكم أو الانضمام وعلى التقديرين لا يوصف به العذاب حقيقة وإنما يوصف به الأجرام والأجسام ، فتوصيف العذاب به تخييل لتشبيه العذاب الواقع عليهم بالجرم الثقيل أو بالأجرام المتلاصقة المتطابقة الواقعة بعضها على بعض استعارة بالكناية وعلى التقديرين يكون إثبات الغلظة له سواء كانت بمعنى الثقل أو الانضمام تخييلاً لتلك الاستعارة المكنية))[٢] . فالعذاب شعور نفسي خفي وإجلاؤه بصورة محسوسة ووصفه بالغلظة هو تقريب لذلك الخفاء ، وتصوير له تصويراً يؤثر في

(١) ينظر : المشاهد في القرآن الكريم (دراسة تحليلية وصفية) ، د. حامد صادق قينني : ٣٨٠ .
(٢) الحاشية : ٤٠/٤ .

النفوس ويترك فيها ملامح لذلك العذاب فيكون رادعاً حسياً لها .

ومنه قوله تعالى في تصوير العذاب : ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود:٣٩] ، إذ استعار الحلول والإقامة وهي صفة من صفات الأجسام إلى العذاب وهو معنى مستور يستشعره الإنسان شعوراً خفياً فجعله شاخصاً حول الإنسان مقيماً لديه لا يغادره إذ يقول شيخ زادة في بيان ذلك : ((ان الكلام من قبيل الاستعارة المكنية ، شبه العذاب الأخروي الذي قضى الله تعالى به في حقهم بالدَّين المؤجل الواجب الحلول وأثبت له الحلول الذي هو من لوازمه ليكون تخييلاً للتشبيه المضمر في النفس))[١] . ومن الأمثلة على استجلاء المعاني المضمرة بصورة مادية قوله تعالى : ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء:١٠٢] ، إذ أعطى للحذر وهو معنى مجرد في النفس صفة الأجسام فيقول شيخ زادة في توضيح النص بيانياً : ((ان الحذر من قبيل المعاني ، فكيف يتعلق به الأخذ الذي لا يتعلق إلا بما هو من قبيل الأعيان كالسلاح وتقرير الجواب انه من قبيل الاستعارة بالكناية ، بأن شبه الحذر بآلة يستعملها الغازي وجعل تعلق الأخذ به دليلاً على هذا التشبيه المضمر فيكون استعارة تخييلية))[٢] .

ومن الاستعارة المكنية المجسمة قوله تعالى : ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ...﴾ [الأنعام:٥٩] إذ جسم الغيب وجعل له مكاناً مادياً وأعطاه خاصية وجودية إذ صوره بالخزنة التي لها مفاتيح ، إذ يقول شيخ زادة في إيضاح هذا التصوير البياني ونوعه : ((استعارة مكنية ، فقد شبه الغيب بالخزائن المستوثق منها بالأقفال وأثبت لها مفاتيح على سبيل التخييل ، ولما كان عنده تلك المفاتيح كان المتوصل إلى ما في الخزائن من المغيبات هو لا غير))[٣] .

٢-التشخيص :

هو خلع الحياة على ما ليس من شأنه الحياة من الأشياء والمعاني والحالات

(١) الحاشية : ٤٣/٣ .

(٢) الحاشية : ٦٦/٢ .

(٣) الحاشية : ١٧١/٢ .

النفسية ، وقد ترتقي هذه الحياة فتصبح حياة إنسانية ، إذ تشارك الإنسان في إحساسه بشفافية ورهافة[١] . وقد عبرت الاستعارة المكنية عن هذه الوظيفة الفنية في مواضع من القرآن الكريم منها في قوله تعالى : ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس:٧٧] إذ صور الحق وهو مبدأ معنوي بصورة محسوسة مشاهدة وإنسانية ، إذ يقول شيخ زادة : ((جعل الحق شخصاً جاءهم من عند الله على سبيل الاستعارة المكنية بقرينة المجيء))[٢] . ومنه قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم:٤١] فأضفى على الحدث المجرد المدرك وهو (الحساب) صفة إنسانية ألا وهي القيام ، إذ يقول شيخ زادة في ذلك : ((شبه ثبات الحساب بقيام القائم على الرجل فاستعير القيام لذلك الثبات ثم أطلق يقوم وأُريد يثبت ... ويمكن ان يقال شبه الحساب في الثبات والاستقرار بالقائم على الرجل ، فأثبت له القيام على سبيل التخييل فهي استعارة مكنية قرينتها التخييلية))[٣]. فإعطاء مثل تلك الصورة للحساب ، يجعلهُ حياً في ذهن السامع وفي خياله ليتواصل مع هذه المعاني المحتجبة بواسطة هذا الفيض المصوّر من مشاهد القيامة .

ومن الاستعارة المكنية المشخَصة قوله تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[فُصِّلَت:٣٩] ، إذ ظهرت الأرض بمظهر إنسان انتابته حالة من حالات الاستسلام والخشوع لفقره ، وفسر شيخ زادة هذه الآية بيانياً بقوله : ((شبه يبس الأرض وخلوها من الخير والبركة بكون الشخص خاضعاً ذليلاً عارياً لا يؤبه به لدناءة هيئته فأطلق اسم الخشوع عليه ثم اشتق منه خاشعة فهي استعارة تبعية بمعنى يابسة جذبة ولك ان تجعله من قبيل الاستعارة المكنية والتخييلية))[٤] .

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأنعام:٤٩]

(١) ينظر : التصوير الفني ، سيد قطب : ٥٧ ، والطبيعة في القرآن الكريم ، د. كاصد الزيدي : ٤٥٩ .
(٢) الحاشية : ٣/٢٥ .
(٣) الحاشية : ٣/١٤٠ .
(٤) الحاشية : ٤/٢٦٤ .

، إذ استعيرت صورة الإنسان الذي يلامس الأشياء ويلابسها ، بصورة ملابسة العذاب واشتماله للمعذَّبين إذ يقول شيخ زادة في بيان ذلك : ((المس لكونه من الأفعال المسبوقة بالقصد والاختيار حقه ان يسند إلى الأحياء فكيف اسند إلى العذاب وتقرير الجواب انه من قبيل الاستعارة بالكناية ، حيث شبه العذاب بالحي تشبيهاً مضمراً في النفس ودل عليه بإثبات شيء من لوازم المشبه به له وهو إسناد المس إليه))[1] .

٣-تقريب الصورة حسياً :

وذلك بإضفاء الأبعاد المكانية أو الزمانية أو الوصفية على المعاني المجردة ، فتستعار بذلك هذه الصورة الكونية المشاهدة أو المحسوسة لتلك المعاني ، لإعطائها البعد المكاني أو التصويري ، فمن المعاني التي أُعطيت بُعداً مكانياً في القرآن بداعي تصويرها معنى (الضلال) في قوله تعالى : ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [الحج:١٢] ويبين شيخ زادة ملامح التصوير البياني ونوعه بقوله : ((شبه ضلال من عبد دون الله تعالى ما لا يضره ان لم يعبده وما لا ينفعه ان عبده ... بضلال من أبعد في التيه فوصف الضلال المشبه بما هو من خواص الضلال المشبه به وهو البعد ، فان القرب والبعد من عوارض المسافة الحسية ، فكان إثبات البعد له استعارة تخييلية قرينة للاستعارة بالكناية))[2] . فاستجلى معنى الضلال الضامر في النفوس كنهه بوساطة صورة الضلال بعرضه الحسي لصورة التيه في الأرض الواسعة .

ومثله قوله تعالى : ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦] فصورت الآية الكريمة هبوط مكانتهم المعنوية بصورة النزول من المكان الحسي ، أذ يقول شيخ زادة : ((ويكون الهبوط الآتي بمعنى النزول من مكان عال إلى ما هو أسفل منه وان صح انه يراد به مع ذلك سقوط المنزلة ، فانه قد كثر في كلامهم استعمال الوقعة والصعقة في المراتب المعنوية كاستعمالها في الأماكن الحسية إلا ان الابتلاء بالخروج من الجنة ، لما كان راجعاً إلى

(١) الحاشية : ١٦٧/٢ .

(٢) الحاشية : ٣٧٦/٣-٣٧٧

الابتلاء بالخروج مما كان لهما في الجنة من الكرامة والنعيم صرح بالمقصود على طريق الاستعارة المكنية والتخييلية ، حيث شبه ما كانا فيه من الكرامة والنعيم بالمكان الحسي ، وجعل تعلق الإخراج به استعارة تخييلية دليلاً على الاستعارة المكنية))[1] .

فاستعار صورة الهبوط الحسي للهبوط المعنوي زيادة في التصوير والتأثير على خيال المتلقي ، ومن المعاني التي أعطيت بُعداً مكانياً هي (الذلة) في قوله تعالى : ﴿... قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ...﴾ [البقرة:٦١] إذ استعار للذلة وهي معنى في النفس صورة المكان الذي يحيط بصاحبه ، هذا ما بينه شيخ زادة بقوله : ((فأصل الكلام حاطت الذلة بهم بمعنى صارت حائطاً لهم ثم قيل أحاط الذلة بهم بمعنى جعلها حائطاً لهم ... بمعنى جعلت الذلة حائطاً بهم كتحويطهم بالقبة المضروبة عليهم من حيث إحاطتها بهم من كل جانب إحاطة القبة بمن ضربت هي عليه على سبيل الاستعارة بالكناية ، ولابدّ لها من قرينة تكون استعارة تخييلية ، وهي هاهنا إثبات ما هو من لوازم المشبه به وهي القبة للمشبه الذي هو الذلة فان الضرب من لوازم القبة واثبت للذلة))[2] .

فصورت الآية المباركة الحالة النفسية والشعور الخفي وهو الذل بالسجن الذي تحيط أسوارهُ بالسجين فتضيق به الأرض الفسيحة ، كذلك الذليل فأن شعوره بالضيق يشبه الذي ضُربت عليه قبة محسوسة أو ضُيِقَ عليه بمكان ، فيكون أسير ذلك الضيق أو المكان فقربت الآية المباركة معنى الذلة بهذه المشاهد المصوّرة والمؤثرة .

وقد يُعطى للمعنى المجرد أو الصور غير الحاصلة بُعْدٌ زماني وصورة مخزونة ومثل شيخ زادة لذلك بقوله تعالى:﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:١٧] إذ أعطت لفظ (تذكرون) بُعداً تصويرياً زمانياً ، يوضحه شيخ زادة بقوله : ((ان قوله تعالى (أفلا تتذكرون) ... استعارة مكنية ، شبهت الصورة الجلية غير الحاصلة

(١) الحاشية : ٢٦٦/١ .

(٢) الحاشية : ٣١٢/١ .

بالحاصلة المخزونة تشبيهاً مضمراً في النفس وجُعلت نسبة التذكر إليه تخييلاً))[1] . فاستعار للصورة المخترعة للخلق – المشهود عليها بشهادة الفطرة السليمة – صورة أخرى حاصلة استجلبها للمتلقي بلفظ (تذكرون) .

ج- الاستعارة التمثيلية :

هي استعارة تركيب – وضع لمناسبة ما – لتركيب آخر لما بينهما من مناسبة ووجه شبه ، لذلك عدَها أغلب البلاغيين من الاستعارة التمثيلية التركيبية ، إذ تستعار صورة هيئة مركبة لأخرى على نحو المشابهة ، وقد حدّها شيخ زادة بقوله : ((الاستعارة التمثيلية وهي ان يُشَبه صورة منتزعة من عدة أمور بصورة أخرى مثلها ويدعى دخول الأولى في جنس الثانية للمبالغة فيطلق على الأولى اللفظ المركب الدال على الثانية فيعتبر التجوز في مجموع ذلك اللفظ المركب لا في مفرداته بل هي باقية على حالها من كونها حقيقة أو مجازاً))[2] .

فالاستعارة التركيبية ههنا ليست في المفرد بل بالصورة أو الهيئة المتخيلة والتي يرسم ملامحها التركيب بأكمله ، وأولى شيخ زادة للاستعارة التمثيلية عنايته الكُبرى ولا نبالغ إذا قلنا بأن نظرته لهذه الاستعارة كانت أوسع من نظرة البلاغيين لها ، إذ ان الاستعارة التمثيلية عنده أداة من أدوات التصوير لديه في القرآن الكريم ، ومن المواضع التي نبه فيها على الاستعارة التمثيلية قوله تعالى : ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء:١٠٧] إذ استعيرت صورة السجود بهيئة الخرور إلى الأذقان لصورة الانقياد لأوامر الله تعالى بغية تصويرها وتقريبها ، إذ يقول شيخ زادة : ((ليس المقصود من الآية بيان انهم يسجدون حقيقة إذا تلي عليهم القرآن بل المقصود بيان انهم ينقادون لما سمعوا ويخضعون له كمال الانقياد والخضوع فأخرج الكلام على سبيل الاستعارة التمثيلية ، بأن شبهت الهيئة الحاصلة من كمال الانقياد والخضوع بهيئة من يخص الخرور بالذقن من حيث ان هيئة الخرور على الوجه أقصى هيئات الخضوع ثم ان الذقن مع كونه أبعد شيء من الأرض من أجزاء وجه من خرّ على وجهه إذ خصّ

(١) الحاشية : ١٧٢/٣ .

(٢) الحاشية : ٥١٧/٤ ، وينظر : ٢١٤/٤ .

الخرور به كان وصول سائر أجزاء الوجه إلى الأرض أتم وأولى فعبر عن الهيئة المشبهة بما يعبر به عن المشبه بها تصويراً لغاية خضوعهم))[1] . فقرب النص صورة المطيع لأوامره تعالى إلى الذهن من خلال تصويرها بصورة حسية تمثيلية تصويرية وهي صورة من خرّ من السجود مذعناً وخاشعاً في أصدق حالاته وأخصها وهي صورة المذعن الخاشع إلى الذقن .

وقد وجد ان استعارة صورة منتزعة من متعدد لأخرى يأتي لأغراض وقف عندها شيخ زادة منها :

١-لتقريب المعنى حسياً :

وذلك باستعارة صورة محسوسة للمعنى أو الحادثة المجردة إذ يقول شيخ زادة : ((وكثر من مثل هذه الاستعارات في القرآن لأن المعاني التي في عالم الغيب لا يمكن ان يعبر عنها إلا بما يماثلها من عالم الشهادة))[2] . وبذلك كقوله تعالى : ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ [الأعراف:٥٠-٥١] والنسيان مستحيل في حقه تعالى ، ولكنه على نحو الاستعارة التمثيلية ، إذ يقول شيخ زادة : ((شبه معاملته تعالى مع الكفار بمعاملة من نسى عبده من الخير ولم يلتفت إليه وشبه عدم إخطارهم لقاء الله تعالى ببالهم وعدم مبالاتهم بحال من عرف شيئاً ونسيه))[3] . فاستعار لمعنى النسيان صورة محسوسة وهي صورة معاملة السيد مع عبده في حالة عقوق العبد لسيده .

وقد يتقرب المعنى الحسي بالاستعارة التمثيلية المشخصة فتستعار صورة ذات حياة وروح لهذه المعاني ، وذلك كقوله تعالى : ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ [الصافات:١٧٦-١٧٧] ، إذ استعار لصورة العذاب النازل عليهم صورة مماثلة محسوسة من عالم الموجودات ألا وهي صورة الجيش ، إذ يقول شيخ زادة :

---

(١) الحاشية : ٣/٢٤٥-٢٤٦ .

(٢) الحاشية : ٢/٢٤٣ .

(٣) الحاشية : ٢/٢٤٣ .

((ان قوله تعالى (فإذا نزل بساحتهم) استعارة تمثيلية ، شبه حال العذاب النازل بهم بعدما انذروا به فأنكروه ، بحال جيش أنذر بهجومه قومه بعض نصحائهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره حتى أناخ بفنائهم بغتة فأغارهم وقطع دابرهم فان ذلك التعبير حقيقة في هذه الهيئة المشبه بها فأطلق على الهيئة الأولى مجازاً على طريق التمثيل))[1] .

ومنها استعارة صورة المرأة التي كشفت ساقها للهروب من شدة الهول ، لصورة اشتداد الهول في يوم القيامة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[القلم:٤٢] ، إذ يقول شيخ زادة في بيان نوع السياق بلاغياً : ((انه استعارة تمثيلية في اشتداد الأمر وصعوبته ، فمعنى الآية يوم يشتد الأمر ويتفاقم ولا كشف ثم ولا ساق كما يقول للأقطع الشحيح يد مغلولة ولا يد ثمة ولا غل وإنما هو مثل في البخل ، بأن شبهت حال الشدة عليهم من الأمر في الموقف بحال المخدرات اللاتي اشتد عليهن الأمر فأحتجن إلى تشمير ساقهن في الهرب فاستعمل في حق أهل الموقف من الأشقياء ما يستعمل في حقهن من غير تصرف في مفردات التركيب بل التصرف إنما هو في الهيئة التركيبية))[2] . ففي قوله تعالى : (يوم يكشف عن ساق) استعارة تمثيلية شبهت صورتهم في أهوال يوم القيامة بصورة اشتداد الأمر على المخدرة التي مع شدة عفتها قد تكشف عن ساقها للهرب من شدة الهول والفزع فكذلك هم يوم القيامة .

وقد تستعار الصورة المجسمة مكانياً لمعنى من المعاني كقوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة:١٨٦] ، فلفظ (قريب) تصوير مُجَسَم لمعنى الرعاية والإحاطة وجيء به لتصوير هذه المعاني ، إذ يقول شيخ زادة : ((ان القرب حقيقته هو القرب المكاني وهو ممتنع في حقه تعالى بدلائل قطعية ... ولما تعذر القرب المكاني في حقه تعالى علمنا ان القرب ههنا مستعمل في الحالة التشبيهية بحال من قرب مكانه إلى مكان القوم من العلم بأحوالهم وأفعالهم والاستماع

(١) الحاشية : ١٦٩/٤

(٢) الحاشية : ٥٣٢/٤ .

لأقوالهم فيكون لفظ (قريب) استعارة تبعية تمثيلية))[1] .

ومنها قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨] ، فاستعيرت الصورة المكانية المجسمة من قوله (فوق) لمعنى العلو والغلبة والقهر بداعي المشابهة والتقريب بين الصورتين ، إذ يقول شيخ زادة : ((انه استعارة تمثيلية بأن صور قهره وعلو شأنه بالعلو الحسي فعبر عنه بالفوقية))[2] .

فبين شيخ زادة ملامح الاستعارة التمثيلية التصويرية عن طريق التشخيص والتجسيم ، ودورها في بث الروح والحياة في المعاني ، عبر تشبيهها بصورة ممثلة من عالم الحس ، إذ التصوير الفني يعد عند شيخ زادة – كما تبين – هو الغرض الأساس من الاستعارة التمثيلية .

٢-التنبيه :

وقد تستعار الصورة التمثيلية لغرض التنبيه عند شيخ زادة ، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزُّمَر:٦٧] ، إذ بين شيخ زادة غرض هذه الاستعارة بقوله : ((انه من قبيل الاستعارة التمثيلية ... فلا يراد بقوله (والأرض جميعاً قبضته) إثبات الطي واليمين له لا بحقيقيتها ولا بمجازهما ، بل الاعتبار إنما هو لمجموع الكلام وان المقصود منه التنبيه على عظمته تعالى والدلالة على ان تخريب العالم أهون شيء عليه كالشيء المقبوض بيمين أحد فأن التصرف فيه يسير))[3] . فاستعارة الصورة المحسوسة ألا وهي صورة القابض على الشيء بقوة واقتدار وتمكن لصورة قدرته تعالى على التحكم بهذا العالم والتنبيه على هذا الأمر .

٣-الترغيب :

إذ تستعار الصورة ذات وجه الشبه المركب والمتعدد لغرض الترغيب ، ومثل شيخ زادة لهذا الغرض بقوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ

(١) الحاشية : ٤٩٥/١ .

(٢) الحاشية : ١٥٦/٢ .

(٣) الحاشية : ٢١٤/٤-٢١٥ .

﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد:١٦-١٧] إذ استعار صورة إحياء الأرض بعد موتها لصورة تليين القلوب بعد قساوتها بغية الترغيب في أمر يريد تعالى التأكيد عليه ، إذ يقول شيخ زادة : ((ان قوله تعالى (يحي الأرض بعد موتها) استعارة تمثيلية، والمعنى تلين القلوب بالذكر بعد قساوتها ، شبه إحياء القلوب بالخشوع المسبب عن الذكر وتلاوة القرآن بإحياء الأرض الميتة بالغيث من حيث اشتمال كل واحد منهما على بلوغ الشيء إلى كماله المتوقع بعد خلوه عنه ثم أطلق اسم المشبه به على المشبه ، ترغيباً في الخشوع المذكور فأن التمثيل المذكور لتضمنه تشبيه قساوة القلب بموت الأرض وتشبيه طريان خشوعها المتفرع على الذكر والتلاوة بحياة الأرض الميتة ترغيب لا محالة في تحصيل الخشوع وترك القسوة))[1] . فغرض الاستعارة التمثيلية هنا الترغيب في الخشوع وترك قسوة القلوب . لذلك استعير لحالة لين القلب بعد القسوة صورة نابضة حية هي صورة الحياة بعد الموت بالنسبة للأرض لبعث النشاط والاطمئنان في النفوس .

٤-التهجين والتقبيح :

وذلك إذا كانت الصورة المحسوسة المستعارة صورة مستهجنة فيتحقق ذلك الغرض باستعارتها لصورة معنوية يُراد النهي عنها ، وذلك في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحُجُرات:١] ، إذا استعيرت صورة التقدم على من يجب التأخر عنه لصورة الحكم في الدين قبل حكم الله ورسوله ، ولعل ذلك ما أراده شيخ زادة بقوله : ((وإذا قيل بين يدي الله امتنع ان يراد به الجهة والمكان فيكون استعارة تمثيلية ، شبه حال ما وقع من بعض الصحابة من القطع في أمر من أمور الدين قبل ان يحكم به الله ورسوله بحال من يتقدم في المشي في الطريق مثلاً لوقاحته على من يجب ان يتأخر عنه ويقفوا أثره تعظيماً له، فعبر عن الحال المشبهة بما يعبر به عن المشبه بها والمراد من الاستعارة تهجين الحالة المشبهة ، فان الحالة المشبهة بها لما كانت قبيحة مستهجنة في العادة ومخالفة لمقتضى التعظيم والمبالغة

(١) الحاشية : ٤٥٣/٤ .

كانت ما شبه بها مستهجنة أيضاً وهذا التهجين هو النكتة من الاستعارة المذكورة))[1]. فاستعيرت الصورة الحسية المستقبحة للحادثة المجردة بغية التنفير عنها .

٥-المبالغة :

وذلك كاستعارة صورة الصانع الحقيقي في قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ [يس:٧١] ، وذلك لغرض المبالغة في بيان اختصاصه تعالى بإبداع المخلوقات وإنشائها ، إذ يقول شيخ زادة في بيان غرض هذه الاستعارة : ((شبه اختصاص آثاره وتفرده في إحداثها باختصاص مصنوع بمن عمله بيده ، فان معمول الشخص بيده أخص به مما تملكهُ من معمول غيره فاستعمل فيه عمل اليد مع تنزهه عن الجوارح والعمل بها على سبيل الاستعارة التمثيلية ليفيد المبالغة في الاختصاص))[2] .

وأيضاً قد تبعث الاستعارة التمثيلية دلالة التعظيم إذ إن الصنع في الآية مسند إلى الله عز وجل ، فقد صَوّر العطاء بصورة محسوسة وهي صورة الكريم الواهب الذي يقوم بنفسه بالعمل والمداراة ، تكريماً للوافد على هذا الكريم ، ففيه تكريم وتليين لقلوب البشر . والله أعلم .

د- الاستعارة التهكمية :

عرفها شيخ زادة بقوله : ((هي عبارة عن تشبيه احد الضدين بالآخر من حيث التضاد ، ثم إطلاق اسم المشبه به على المشبه))[3] . أما الغرض فهو التهكم والاستهزاء، وأول من أشار إلى تلك الاستعارة وحدها هو السكاكي[4] (ت٦٢٦هـ)، وقد أشار شيخ زادة إلى وجودها في القرآن الكريم ، لذلك الغرض ألا وهو الاستهزاء والسخرية ، وذلك كاستعارة البشارة للعذاب وهما معنيان متضادان ، في قوله تعالى : ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١] .

---

(١) الحاشية : ٣٦٥/٤ .

(٢) الحاشية : ١٤٠/٤ .

(٣) الحاشية : ٤٤٣/٤ .

(٤) ينظر : المفتاح : ٤٨٣ .

أما الغرض من تلك الاستعارة فبينها شيخ زادة بقوله ((قيل ان البشارة اسم للخبر السار ، وقد جاء في القرآن فبشرهم بعذاب اليم ، أجاب عنه بأنه محمول على التهكم أي الاستعارة التهكمية وهي استعارة اسم احد الضدين للآخر ... لقصد التهكم والاستهزاء وزيادة غيظ الكفار))[١] .

ومنه قوله تعالى : ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة:٥٦] ، إذ يقول شيخ زادة في بيان نوع استعارته : ((قوله تعالى (هذا نزلهم) من قبيل الاستعارة التهكمية بأن شبه في الآية ما قدم للتعذيب بما اعدّ للتكرمة وهو النزل ثم أطلق اسم النزل على المشبه))[٢].

فاستعار اللفظ الموضوع والمُعد للإكرام لصورة الموضع المُعَد للتعذيب بجامع التضاد لقصد التهكم بهم . وتقترب كل الشواهد – التي ذكرها شيخ زادة لهذا النوع من الاستعارة – في الدلالة على التهكم .

هـ- الاستعارة التبعية :

يختلف اللفظ المستعار في صيغته ، فتارة يكون اسماً ، ((والأصل في الاستعارة ان تكون في أسماء الأجناس ، لأنها تقتضي إدخال المشبه في جنس المشبه به))[٣] . وتسمى هذه الاستعارة بالأصلية ولكن قد يعدل عن هذا الأصل فتجري الاستعارة في الأفعال والمشتقات والحروف ، وتسمى الاستعارة حينئذٍ بالتبعية ، إذ تسري الاستعارة فيها تبعاً أي بعد سريانها في المصدر إذا كانت فعلاً أو مشتقاً ، وبعد سريانها في متعلقات معانيها إذا كانت الاستعارة في الحروف ، وكان جهد عبد القاهر الجرجاني[٤](ت٤٧١هـ)، والرازي[٥](ت٦٠٦هـ) والسكاكي[٦] (ت٦٢٦هـ) ، متعاقباً على إرساء قواعد هذه الاستعارة ، وقد اهتم شيخ زادة في بيان صور الاستعارة التبعية في الفعل والمشتق والحرف مبيناً بلاغة ورود كلٍ منها ومن ذلك:

---

(١) الحاشية : ٢٠٥/١ .

(٢) الحاشية : ٤٤٣/٤ .

(٣) الصور البيانية : ٣٤٣ .

(٤) ينظر : أسرار البلاغة : ٣١ .

(٥) ينظر : نهاية الإيجاز : ٢٤٤ .

(٦) ينظر : المفتاح : ٤٨٩ وما بعدها .

المستعار فعلاً :

فيعدل بالاستعارة عن الأصل أي عن كونها أسماً إلى الفعلية (التبعية) لأغراض بلاغية عند شيخ زادة منها :

١-الدلالة على الحدوث :

وذلك كقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ [نوح:١٧-١٨] ، إذ أُستعير لفظ (أنبتكم) بصيغة الفعل لإنشاء بني آدم وإيجادهم ، أما دلالة تلك الاستعارة فيقول شيخ زادة في بيانها : ((اشتق من الإنبات المستعار لفظ (أنبتكم) فصار استعارة تبعية ، حمل الكلام على الاستعارة لتعذر حمله على الحقيقة ، لأن الإنبات إخراج فروع ما رسخ عروقه في الأرض ولاشك ان إيجاد الإنسان ليس على هذا الوجه وإنشاء بني أدم من الأرض أما بواسطة إنشاء أبيهم آدم عليه السلام منها أو من ... النطفة المتولدة من الغذاء المتولد من النبات المتولد من الأرض والنكتة في العدول إلى المجاز ، كون الإنبات أدل على الحدوث ، لأنهم إذا كانوا إنباتاً كانوا محدثين لا محالة حدوث النبات))[١] . فعبرت صيغة الفعل المستعار عن الحدوث ، الذي لا يعبر عنه الاسم فاستعير الفعل بدلاً من الاسم لذلك.

٢-للمبالغة :

كالاستعارة التبعية للفظ (تنسون) في قوله تعالى : ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤] ، ويبين شيخ زادة دلالة الاستعارة على المبالغة بقوله : ((ان قوله تعالى : (وتنسون) استعارة تبعية بمعنى تتركونها عن حملها على ما فيه صلاحها ونفعها كالشيء المنسي بناء على تشبيه ترك أنفسهم عن الحمل على الخير بالنسيان من حيث ان كل واحد منها يستلزم إهمال متعلقه وعدم رعاية حقه فاستعير اسم النسيان ثم اشتقت منه تنسون بمعنى تتركون...وفائدة الاستعارة المبالغة والإيذان بأنهم تركوا تذكير أنفسهم ترك المنسي الذي لا يخطر بالبال))[٢] . فلفظ الفعل أدل على تجدد النسيان واستمراره والمبالغة فيه من لفظ الاسم،

(١) الحاشية : ٥٥١/٤ .

(٢) الحاشية : ٢٩٢/١ .

لذلك استعير للدلالة على المعنى .

المستعار مشتقاً :

يوفر الاسم المشتق كلفظ مستعار صورة مشخصة بفضل دلالته على القيام بالحدث ، وذلك كقوله تعالى : ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٥-٦] ، إذ استعيرت صورٌ إنسانية (كالطغيان والعتو) وبصيغة اسم الفاعل لتجسيد العذاب وإضفاء الحياة عليه، لإظهاره في مظهر المشاهد المحسوس، ويبين شيخ زادة نمط هذه الاستعارة بقوله : ((قوله تعالى (عاتية) استعارة تبعية، بأن شبهت شدة عصف الريح بعتوها على خزانها ، فسميت باسمه ثم اشتق منه لفظ (عاتية)، حملها على المجاز لتعذر الحقيقة، لأن حقيقة العصيان من صفات العقلاء))[١] .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ [النازعات:١-٤] ، فقد استعيرت أوصاف آدمية للملائكة وبصيغة الاسم المشتق بداعي تصوير ما تقوم به وإيصال ذلك التصوير إلى ذهن المتلقي ، ومن تلك الأوصاف قوله : (والسابحات سبحاً) إذ يقول شيخ زادة في بيان نوعها البلاغي الاستعاري : ((ان قوله تعالى : (والسابحات سبحاً) استعارة تبعية ، شبه إخراجهم لأرواح المؤمنين برفق ولطف بإخراج الغواص ما التقطه من قعر البحر فكما ان من سبح في الماء يتحرك بلطف ورفق بحيث لا يتأذى نفسه ... فكذلك الملك الذي ينشط روح المؤمن يخرجه برفق لئلا يصل إليه ألم وشدة فأطلق اسم المشبه به على المشبه واستعار منه لفظ (السابحات)))[٢] . فاقتضى السياق القرآني استعارة الأسماء المشتقة وهي (النازعات ، الناشطات ، السابحات ، والسابقات) وبصيغة اسم الفاعل ، لتصوير قيامها بالحدث ورسوخها في المداومة عليه والاعتناء به .

المستعار حرفاً :

وأوضح شيخ زادة طريقة هذه الاستعارة بقوله : ((ان الاستعارة في الحرف تقع أولاً

(١) الحاشية : ٤/٥٣٥ .

(٢) الحاشية : ٤/٦١٠-٦١١ .

في متعلق معناه ، كالاستعلاء والظرفية والابتداء مثلاً ثم تسري إلى الحروف بتبعيته ، فيُشَبه شيء من المعاني بذلك المتعلق ثم يطلق اسم المشبه به على المشبه على طريق الاستعارة الأصلية ثم يعبر عن الاسم المستعار بلفظ الحرف فيكون استعارة تبعاً))[1] .

وهو بذلك يوافق السكاكي[2] (ت٦٢٦هـ) في طريقة الاستعارة بالحروف . ومن ذلك استعارة معنى متعلق (على) ألا وهو الاستعلاء الحقيقي لمعنى التمكن والاستقرار المعنويين في قوله تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة:٥] ، إذ سرت الاستعارة في الحرف من المعنى الحقيقي إلى آخر مستعار بيّنه شيخ زادة بقوله : ((صور تمكنهم من الهدى وتمسكهم به واستقرارهم عليه بصورة استعلاء الراكب على مركوبه في التمسك والاستقرار فاستعير له الحرف الموضوع للاستعلاء كما شبه استعلاء المصلوب على الجذع واستقراره عليه باستقرار المظروف في الظرف فاستعير له الحرف الموضوع للظرفية في قوله تعالى حكاية عن فرعون : ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١]))[3] .

فاستعير الحرف (على) الدال على الاستعلاء الحسي والركوب الحقيقي للاستعلاء المعنوي وهو التمكن والاستقرار ، فظهر إيمان المؤمنين وهم متمكنون منه ومستقرون عليه بصورة الراكب الحقيقي لمركوب سهل الانقياد وكذلك استعير الحرف الموضوع لبيان الظرفية المكانية المحسوسة في قوله تعالى : (لأصلبنكم على جذوع النخل) ، للظرفية المعنوية ، لبيان شدة التصاقهم بالجذوع فكأنهم من شدة امتزاجهم بها أصبحوا من محتوى هذه الجذوع .

وقد يستعار الحرف (على) لتصوير الاستيلاء والتمكن المعنويين ، كما في قوله تعالى : ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [البقرة:١٨٤] ، فجيء باللفظ (على) ليس على حقيقته ، إذ تُجِوَز فيه لإعطاء دلالة الاستيلاء الحسي ، إذ يقول شيخ زادة:

---

(١) الحاشية : ١٠٢/١ .

(٢) ينظر : المفتاح : ٤٨٩ .

(٣) الحاشية : ١٠٣/١ .

((وكلمة (على) فيه استعارة تبعية ، شبه تلبسه بالسفر باستعلاء الراكب واستيلائه على المركوب يتصرف فيه كيف يشاء))[١] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [الكهف:١٤] ، إذ استعير (على) الدال على الاستعلاء الحقيقي لصورة معنوية أراد النص القرآني تصويرها ، ألا وهي صورة استيلاء هذا الرباط المعنوي على القلوب استيلاءً محكماً ، ويوضح شيخ زادة الغرض من وراء استعارة صورة الاستعلاء الحقيقي للاستعلاء المعنوي بقوله : ((للمبالغة والدلالة على كون الرابط والتقوية مستولياً على قلوبهم مستقراً عليها))[٢].

و- الاستعارة الترشيحية والمجرّدة :

تقتضي الاستعارة إدخال المشبه في جنس المشبه به إذ يقترن بإحدى لوازمه وصفاته فيتلبس بها ويدّعي إنها من جنس صفاته ، وهو ما سمّاه البلاغيون بالترشيح وعرفه شيخ زادة بقوله : ((ان يؤتى بصفة أو تنويع كلام يلائم المستعار منه الذي هو المعنى الحقيقي للفظ))[٣] . وهو كذلك عند البلاغيين ، ومثل لهذه الاستعارة بقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة:١٦] .

إذ شبهت الآية حال الكافرين الذين استبدلوا الفطرة السليمة بالكفر ، بحال من خسر تجارته لسوء تدبيره ، فاستعيرت الصورة المحسوسة للصورة المعنوية التي رسمها القرآن ، وذكر من قرائن الصورة الحسية لفظ (فما ربحت تجارتهم) ، فيبين شيخ زادة الترشيح في الآية بقوله :: ((ولما استعمل الاشتراء فيها بطريق الاستعارة التبعية بقرينة ذكر الضلالة والهدى اتبع هذا الاستعمال والاستعارة بما يشاكله أي بما يلائم الاشتراء الحقيقي ويناسبه ... تصويراً لخسارتهم أي لما فات عنهم من فوائد الهدى بصورة خسّار التجارة في معاملتهم المتعلقة بالأعيان))[٤] .

والغرض الأول من أي ترشيح عند شيخ زادة هو المبالغة إذ يقول : ((ان الترشيح

---

(١) الحاشية : ٤٩١/١ .

(٢) الحاشية : ٢٥١/٣ .

(٣) الحاشية : ١٥١/١ ، وينظر : ٢٠٣/٣ .

(٤) الحاشية : ١٥١/١ .

حيثما وقع تحققت المبالغة في التشبيه ، من حيث ان الاستعارة تفيد المبالغة في التشبيه ، فترشيحها بما يلائم المستعار منه يحقق تلك المبالغة ويقويها))[1] . فحذف المشبه به مع ذكر قرينة من قرائنه وإسنادها إلى المشبه يحقق تلك المبالغة ، وذلك كقوله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢] ، إذ شبه الجهلاء بالأموات وذكر ما يلائم الأموات من أوصاف فقال :(من في القبور) ، فإسناد المقبورية إلى الجهلاء دل على المبالغة في بيان إنقطاعهم عن الحياة الإنسانية النابضة بالتدبر والتفكر . ولعل ذلك ما أراده شيخ زادة بقوله : ((ولما استعير لفظ (الأموات) من معناه الحقيقي للكفار ، وهو كونه موصوفاً بمن في القبور رشح بما يلائم معناه الحقيقي وهو المقبورية ووجه كون الترشيح المذكور مبالغة في إقناط الرسول الله (صلى الله عليه وسلم) من اهتدائهم بدعوته ، ان الترشيح حيث ما وقع تحققت المبالغة في التشبيه))[2] .

ومن الاستعارة المرشحة قوله تعالى : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١٨] ، إذ استعار للصورة المعنوية لانتصار الحق على الباطل ، صورة محسوسة مشاهدة ومُصّورة أدق تصويراً وأكمله ، وهي صورة انقضاض الجرم الصلب والثقيل على جرمٍ صغير ورخو وتمكنه منه تمكن المنتصر على فريسته ، وتتلاحق الصور في هذا النص حتى ينبعث من كل لفظ صورة موحية ، ومشهد معبر ، وذكر لفظ (زاهق) لترشيح الاستعارة ، لكونها مما يلائم المستعار منه في قوله تعالى : (فيدمغه) إذ يقول شيخ زادة : ((وقرنت الاستعارة بما يلائم المستعار منه ، فان ذهاب الروح إنما يلائم المعنى الأصلي للدمغ، فأن الدماغ مجمع الحواس فإذا بلغت الشجة إليه يموت الحيوان))[3] .

وبفضل هذا الترشيح المذكور للاستعارة أعطيت الصورة البيانية تشخيصاً وحياة، فليست الصورة قذف أجرام وحسب ، بل ان هذه الأجسام ذات حياة وإرادة فهي القائمة

(١) الحاشية : ١٠٨/٤ .

(٢) الحاشية : ١٠٨/٤ .

(٣) الحاشية : ٣٤٤/٣ .

بالحدث إذ عبر باللفظ المصوّر (فيدمغه) ، وكأن للحق إرادة لمحو الباطل ، وإذا بالباطل كائن ضعيف وعديم المقاومة ، فهو (زاهق) بالصيغة الثابتة التي ليس فيها معنى الاستمرار والتجديد في المقاومة . فكانت الاستعارة بالفعل وبالاسم المشتق لها دلالتها ، كما ان ترشيح هذه الاستعارة بليغ أيضاً .

ومن الاستعارة المرشحة قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة:١٠٩] ، إذ شبه المعتقد الذهني الصحيح بالقاعدة القوية التي تسند البناء الصحيح ، كما انه شبه المعتقد الزائف بحافة الوادي الزلق وذكر ترشيحاً للاستعارة التصريحية ، وهو لفظ (الانهيار) ، وفصّل شيخ زادة في بيان الصورة البيانية في السياق الاستعاري بقوله : ((شبه النفاق بشفا جرفٍ هارٍ أي بطرف جانب الوادي ، الذي ذهب أصله بالسيل وانصدع فمال إلى السقوط في قلة الثبات وسرعة الانطماس فاستعير شفا الجرف للمشبه ، وقرينه الاستعارة وضع (شفا جرف) في مقابلة التقوى ، فأن التقوى حق وصواب فينبغي ان يراد بما ذكر في مقابلتها الباطل المستقبح وقوله: (فانهار به) ترشيح للاستعارة فأنه ملائم للمستعار منه، وهو المعنى الأصلي لشفا الجرف وهو طرف الوادي الذي حفر أصله بالماء وانصدع))[1] .

أما الاستعارة المجردة ، فهي كما يرى شيخ زادة : ((ما قرنت بما يلائم المستعار له))[2] . لتظهره بصورة جلية وترسم ملامحه الظاهرة لذهن المتلقي ، وقد أشار إلى ذلك حين وقف عند قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢] ، فقد ذكر ان التعبير القرآني قد ((جعل الذوق مستعاراً لإدراك أثر الضرر بأن شبه إدراك الإنسان أثر ما يضره بإحساس طعم الشيء المر بالفم الذي هو الذوق ... وجعل اللباس مستعاراً لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف ، بأن شبه ما يغشى الإنسان ويلتبس به من أثر الجوع والخوف باللباس

(١) الحاشية : ٢/٣٥٣-٣٥٤ .

(٢) الحاشية : ٣/٢٠٣ .

الحقيقي ، والجامع بينهما كونهما مشتملين على الإنسان وغاشيين له ثم أطلق اسم اللباس على ما يغشى الإنسان من أثرهما وجعل إضافته اليهما قرينة صارفة عن إرادة المعنى الحقيقي ، فكل واحد من الإذاقة واللباس استعارة مغايرة للاستعارة الآخرة ثم أوقعت الإذاقة المستعارة على اللباس المستعار ... ان الإذاقة بمعنى الإصابة والإيصال وان لم تكن ملائمة للمعنى الذي استعير منه اللباس لكنها ملائمة للمعنى الذي استعير له اللباس وهو أثر الخوف والجوع الذي يغشى الإنسان كما يغشاه اللباس ، فأوقعت الإذاقة بمعنى الإصابة على اللباس فإطلاق الإذاقة بمعنى الإصابة أو الإيصال على اللباس بالمعنى المجازي بطريق التجريد))[1] .

ومن ذلك كله يتبين لنا ان شيخ زادة لم يشغل نفسه بما شغل البلاغيون أنفسهم به من تقسيم وتقعيد وتشعيب للاستعارة، بل تعامل معها وفق منظور بلاغي ذوقي، إذ ان الاستعارة القرآنية لها خصائص جمالية فهي تقرب المعنى وتوصله إلى ذهن المتلقي بأجمل صورة وأكثرها تأثيراً ، لذلك تطرق شيخ زادة إلى الأدوات التصويرية للاستعارة من تشخيص وتجسيم وتمثيل ، ثم بحث الأغراض من وراء هذه الاستعارات ، إذ لم يكتفِ ببيان عناصر الروعة في الاستعارة القرآنية بل بحث فيما وراء هذا الجمال البلاغي من أغراض فتطرق إلى عددٍ منها .

المحور الرابع : الكناية والتعريض عند شيخ زادة :

١-الكناية في اللغة والاصطلاح :

ذهب اللغويون إلى ان دلالة الكناية في اللغة هي الاستتار ، إذ قالوا في دلالتها : ((والاكنان ما أضمرت في ضميرك قال الله عز وجل ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٥] ... والاكنان إخفاء الشيء بالشيء))[2] . فهي إذاً الانتقال إلى الدلالة المخفية والمستترة بوساطة ذكر لفظ معناه لازم للمعنى الكنائي .

أما في الاصطلاح فالكناية : ((ضربٌ من إخفاء المعاني وتخبئتها وراء روادفها لتحقيق أغراض يقصد إليها المتكلم حيث يترك التصريح بالمعنى الذي يريده ويعمد إلى

(١) الحاشية : ٣/٢٠٢-٢٠٣ .

(٢) العين مادة (كنَّ) : ٥/٢٨٢ .

ردافه وتوابعه فيوميء بها إليه))[١] . فهي طريقة وأسلوب عقلي يُثير المتلقي ، ويستجلب انتباهه إلى المقصود من خلال التوصل إلى المعنى المُكنى عنه عن طريق سلسلة من الارتباطات الذهنية المعنوية التي يكشفها الذهن الناضج والقريحة الصافية، ولها في القرآن الكريم وظائف متعددة ، إذ ((تقوم الكناية القرآنية بنصيبها كاملاً في أداء المعاني وتصويرها خير أداء وتصوير ، وهي حيناً راسمة مصوّرة موحية وحيناً مؤدبة موجزة تنقل المعنى وافياً في لفظ قليل ولا تستطيع الحقيقة أن تؤدي المعنى كما أدته الكناية))[٢] .

كما أن للكناية القرآنية أثرها النفسي على المتلقي فقد ((كان القرآن الكريم حريصاً كل الحرص على إيصال مفاهيمه إلى الجميع دون جرح العواطف أو خدش المشاعر أو اشمئزاز النفوس وكان الطريق إلى ذلك هو الكناية بما تمتلك من قدرة على التعبير الموحي والمهذب بوقت واحد))[٣] .

فالكناية بكل أقسامها تتميز بكونها أسلوباً عقلياً مؤثراً من جانب خاصيتها التأثيرية المهذبة ، وهي أيضاً من أساليب العرب التي تبلغ بها ((إرادتها بوجه هو ألطف وأحسن من الكشف والتصريح))[٤] . فالكناية إذاً لغة خاصة ، تستعمل المعاني وتعبر عمّا خُفي بين طرفين الواسطة بينهما قرائن دالة على المقصود .

تطرق شيخ زادة إلى حدّ الكناية في معالجاته التفسيرية لآيات الذكر الحكيم ، فأوضحها بقوله : ((الكناية إثبات الشيء ببينة))[٥] . وأوضح ما أراد بهذا القول في موضع آخر بقوله : ((فان الكناية لما كانت عبارة عن ذكر اللازم المساوي للشيء ، لينتقل منه إلى ذلك الشيء الملزوم له ، وكان وجود اللازم دليلاً على ملزومه ، كان سلوك الكناية بمنزلة إثبات الملزوم ببينة))[٦] .

---

(١) من بلاغة النظم القرآني ، د. بسيوني عبد الفتاح فيود : ٣٠٣ .

(٢) من بلاغة القرآن : ١٧٣ .

(٣) أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم ، الصغير : ١٤٦ .

(٤) تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة : ١٦٣ .

(٥) الحاشية : ٣٢٠/١ .

(٦) الحاشية : ٢٠٠/١ .

وهو بذلك يوافق البلاغيين[١] ،الذين بينوا ماهية الكناية ، كالجرجاني (ت٤٧١هـ)، والسكاكي (ت٦٢٦هـ) ، والقزويني (ت٧٣٩هـ) الذين اعتمدوا علاقة اللزومية في تفسير الكناية .

٢-أقسام الكناية :

اختلفت تقسيمات الكناية مثل كل الفنون البلاغية عند العلماء ، ولكن أبرز التقسيمات كانت باعتبار معيارين الأول المعنى المكنى عنه ، فقد اعتمد الجرجاني (ت٤٧١هـ) عليه في تقسيمه للكناية إلى ثلاثة أقسام ، كناية عن صفة وكناية عن موصوف وكناية عن نسبة[٢] .

ثم اعتمد على هذا التقسيم السكاكي[٣] (ت٦٢٦هـ) الذي وسع في أقسامه. ثم فصَّل القزويني[٤] (ت٧٣٩هـ) في المعيار الثاني لتقسيم الكناية ألا وهو معيار اعتماد السياق الكنائي ولوازمه ، فقسم الكناية إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة بحسب المسافة الفاصلة بين اللفظ والمعنى المكنى عنه ، فإذا كانت هذه المسافة متباعدة لكثرة الوسائط يُسمى هذا القسم من الكناية (التلويح) أما إذا كانت الدلالة خارجة عن اللفظ ومتركزة في المفهوم فهي (تعريض) أما إذا كانت مخفية في السياق فهو (رمز) وغير ذلك هو (إيماء وإشارة) .

ولم يعتمد شيخ زادة على التقسيم الأول في الكناية وأخذ بتقسيم الكناية بحسب السياق فذكر الكناية والتعريض ودلالة كل منهما من غير اعتبار لتقسيم آخر ، إذ كان اهتمامه منصباً على السياق القرآني وما فيه من فنون بلاغية يمكن أن يكشف عنها بما أُعطي من كفاءة بلاغية .

٣-الكناية القرآنية وأغراضها البلاغية عند شيخ زادة :

من خلال التأمل في نصوص شيخ زادة ، نجد انه قد يكون بينة الشيء المكنى عنه صورة محسوسة إذ كان الملزوم معناً مجرداً وذلك كقوله تعالى : ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ

(١) ينظر : دلائل الإعجاز : ٧٢ ، والمفتاح : ٥١٢ ، والإيضاح : ٢٧٣ .
(٢) ينظر : التفسير البلاغي لشواهد عبد القادر الجرجاني (أطروحة دكتوراه) : ٢٥٠ .
(٣) ينظر : المفتاح : ٥١٣ .
(٤) ينظر : الإيضاح : ٢٨٠ .

﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٖ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠] ، فكنى النص القرآني عن شدة ذلك اليوم الذي هو من عالم الغيب بصورة محسوسة من عالم الشهود ألا وهي التفاف الساق بالساق الذي يستدعي صعوبة المسير وهول المنظر .

وأوضح شيخ زادة صورة الكناية بقوله : ((ان التفاف الساق بالساق كناية عن تتابع الشدة والصعوبة فإن الساق كثيراً ما يكنى به عند الشدة ويجعل مثلاً فيه كما في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٖ﴾ [القلم: ٤٢]))[١] .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يونس: ١٠٥] ، فكنى عن معنى الإخلاص وتوجه النفس بالكلية نحو الدين ، بصورة القاصد لوجهة معينة أو طريق مستقيم ، فان توجهه إليه باستقامة من غير التفات ولا تشتت يوصُلُهُ إليه ، فكذلك من يلتزم ديناً ، فكنى عن هذا المعنى بتلك الصورة المحسوسة وهي بينة ظاهرة ، ولعل هذا ما أراده شيخ زادة بقوله : ((إن إقامة الوجه للدين كناية عن توجه النفس بالكلية إلى عبادة الله تعالى والإعراض عما سواه ، فإنّ من أراد أن ينظر إلى شيء نظر بالاستقامة أو بالاستقبال فانه يقيم وجهه في مقابلته بحيث لا يلتفت يميناً ولا شمالاً فانه لو التفت إلى جهة بطلت تلك المقابلة واختل النظر المراد ولذلك كنى بإقامة الوجه عن صرف الفعل بالكلية إلى الدين))[٢].

وقد تكون البينة إسناداً عقلياً في النسبة وذلك كقوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠] .

فأسند الشر إلى مكانهم وهو في الحقيقة لهم ، لكون شر المكان من لوازم شر أهله ، فكنى عن الثاني بالأول إذ يقول شيخ زادة : ((ولما كانت شرارة المكان من لوازم شرارة أهله كان إثبات الشرارة لمكان الشيء كناية عن إثباتها لنفس ذلك الشيء بطريق

(١) الحاشية : ٥٨٤/٤ .

(٢) الحاشية : ٣١/٣ .

الكناية وهو أبلغ من ذكره صريحاً))[1] . ولعل الأبلغية ، لكون التعبير بشر المكان فيه مبالغة في بيان تلبسهم بالشر حتى سرى منهم إلى المكان لشدته .

وقد تكون الكناية القرآنية أبلغ من الحقيقة في تصوير المشهد تصويراً يبعث معاني متكاثرة من النص وذلك كقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٢٤] ، إذ يقول شيخ زادة في بيان دقة الكناية في النص : ((فان الأصل في التستر ووقاية النفس من المخاوف هو الترس فمن لم يجده يتستر ويتقي بيده ، أي يقي بها وجهه لكون الوجه أعز الأعضاء عليه ... حتى كأن الإنسان عبارة عنه ، ومن يلقى في النار يلقى مغلولة يداه إلى عنقه فلا يتهيأ له ان يتقي النار إلا بوجهه الذي كان يتقي المخاوف بغيره وقاية له ... فيكون ذلك كناية عن انه لا قدرة له على الاتقاء البتة ولا وقاية له أصلاً))[2] .

فكنى النص القرآني عن عدم قدرة الهاوي في جهنم اتقاء عذابها بصورة المحارب الذي ليس معه تُرس أو درع حصين يتقي به السوء فيكون عرضة للتقتيل، وكذلك الهاوي إلى جهنم لا قدرة له على دفع ضررها فيتقي عذابها بوجهه الذي جعله كآلة للاتقاء بعد أن كان مركز الشرف لديه .

إنّ العدول عن التصريح بالمعنى إلى إخفائه والكناية عنه إنما يكون لأغراض ذكر شيخ زادة عدداً منها :

تقرير المكنى عنه وتهويله :

أما تقريره فلكون الكناية بمنزلة ذكر الشيء ببينة ، فيتقرر لذلك ، وتهويله يدل عليها حال السياق ، ومثّل شيخ زادة لهذا الغرض بقوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤] ، فيبين شيخ زادة الغرض الأول من الكناية في النص بقوله : ((سلوك الكناية بمنزلة إثبات الملزوم ببينة فكان تقريراً للمكنى عنه فكان قوله فاتقوا النار أبلغ من أن يقال فآمنوا، لكون

(١) الحاشية : ١٢١/٢ .

(٢) الحاشية : ٢٠١/٤ .

إيجاب الاتقاء إيجاباً للإيمان التزاماً لامتناع تحقق الاتقاء بدون الإيمان))[1] .

أما الغرض الثاني فيوضحه بقوله : ((انه لما أمر بالإيمان بالمنزل وترك العناد في حقه في صورة اتقاء النار وعبر به عنه فهم منه ان العناد وعدم الإيمان بمنزلة الاحتراق بالنار بحيث إذا أريد ان يعبر عنه يعبر بمقاساة عذاب النار وفي ذلك تهويل لشأن العناد وتخويف عظيم منه))[2] .

المبالغة والتنبيه :

وذلك كالكناية التي في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ [الأعراف:١٧٦] .

إذ يقول شيخ زادة في بيان سياقها الدال على التنبيه والمبالغة : ((فكان الظاهر ان يعلق الرفع بفعل العبد إلا انه عُلق بمشيئتهِ تعالى ، تنبيهاً على ان السبب الحقيقي هو المشيئة ، حيث انها سبب للأفعال الموجبة لرفع الدرجة وان الأفعال المذكورة وسائط في حصول رفعها فكما يصح تعليق الرفع بالوسائط المعتبرة فيه يصح تعليقه بالمشيئة التي هي سبب لتلك الوسائط والأفعال ... الملائم حينئذٍ ان يستدرك بما يقال لكنا لم نشأ رفعه ... فعدل عنه وأوقع موقعه أخلد إلى الأرض لما ذكره من المبالغة والتنبيه ، ووجه المبالغة ان الإخلاد إلى الأرض كناية عن الإعراض عن الآيات ، والكناية أبلغ من التصريح))[3] .

وقد تكون الكناية في قوله تعالى : (أخلد إلى الأرض) تعبيراً عن حالة المخاطب المعرض والذي لا يرتقي بمداركه إلى الأفق السماوي بل هو دائم الانحدار والتنزل فكأنه أخلد في الأرض لأنعدام تفكرهُ في العالم العلوي وآلاءه وآياتهِ فتفكيره منحصر في عالم المادة فقط .

لزيادة التصوير :

وذلك كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ

(١) الحاشية : ٢٠٠/١ .
(٢) الحاشية : ٢٠٠/١ .
(٣) الحاشية : ٢٨٥/٢ .

﴿ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ [آل عمران:٩١] ، إذ صورت الكناية في قوله تعالى : (ملء الأرض ذهبا) كثرة الفدية ، إذ يقول شيخ زادة في بيان ذلك : ((ان عدم قبول ملء الأرض ذهبا كناية عن عدم قبول فدية ما ، وعدل عن التصريح به إلى الكناية ، تصويراً للتكثير لأن ملء الأرض غاية الكثرة))[١] . ولكون الذهب من النفائس وكونه ملء الأرض غاية في كثرة ومبالغة في حجمه ، فجاءت بذلك الصورة التي رسمها الله تعالى للفدية معبرة عن قطع رجاء من ارتجى شفاعة المال فصورت هذه الكناية ذلك المعنى خير تصوير .

الاحتراز عن ذكر اللفظ المستقبح :

وذلك كالكناية في قوله تعالى :﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [الأحزاب:٤] ، إذ بين شيخ زادة طريقة الكناية في الآية بقوله : ((كنى عن البطن بالظهر احترازاً عن ذكر البطن الذي ذكره قريب من ذكر الفرج .. ووجه الكناية التي هي ذكر اللازم وإرادة الملزوم كون الظهر عمود البطن ولازماً في قيامه))[٢] .

فكنى النص القرآني وبصورة مؤدبة عن الحرمة بقوله (اللاتي تظاهرون) كناية عن بيان حرمتهم للتزويج من بعض النساء فجعلوهن كأمهاتهم في الحرمة فكنى عن هذا التحريم ، بتحريم ظهورهن أي بطونهن عليهم ، كناية مؤدبة في بيان المقصود.

٤-التعريض عند شيخ زادة :

هو نوع من أنواع الكناية ، ولكنه أخصُّ منها في الوظيفة ، فهو أخفى منها في التستر على المعنى المقصود في السياق التعريضي ، ولذلك عرفهُ شيخ زادة – بوصفه بلاغياً – بالقول : ((والتعاريض ان يشار بالكلام إلى جانب والغرض منه جانب آخر))[٣] . ويفهم هذا الغرض من سياق الحال ، وهو يوافق بحده الزمخشري[٤] (ت٥٣٨هـ) الذي عرفه تعريفاً يقرب مما ذكره شيخ زادة ، وقد افترقت الكناية عن

(١) الحاشية : ٦٤٨/١ .
(٢) الحاشية : ٥٢/٤ .
(٣) الحاشية : ١٣٨/١ .
(٤) ينظر : الكشاف : ٦٠/١ .

التعريض عند ابن الأثير[1] ، إذ يعّد أدق من فصل بينهما ، من ثلاثة أوجه :

الأول : إن الكناية لفظ دال على معنى يجوز حمله على الحقيقة أو على المجاز في حين أن التعريض دلالته من خلال مفهومه بعيداً عن الحقيقة أو المجاز إذ يعتمد على السياق .

الثاني : ان الكناية تكون في اللفظ المفرد والمركب أما التعريض فبالمركب فقط.

الثالث : ان التعريض أخفى من الكناية ، لأن دلالة الكناية لفظية في حين دلالة التعريض تكون من جهة المفهوم . وخفاء التعريض يجعل منه أسلوباً عميق الدلالة ويحتاج إلى دراية المتلقي وفهمه ، لكونه مشتركاً في عملية التلقي والتواصل ، فالتعريض ((يعين صاحبهُ على إخفاء ما يريد من عتاب أو نقد أو سؤال أو شكاية على الحاضرين حتى لا يفهم مراده إلا من يقصده ، لما عُلِمَ من ان التعريض إنما يفهم من أحوال خارجة عن اللفظ))[2] . والى هذه الوظيفة التفت شيخ زادة ، إلى ان النص القرآني نصٌ مهذب لا يصرح بالتقريع والتعنيف مع بعض المؤمنين بل يُعرض بهم لفهم المراد . وذلك كقوله تعالى في قصة داود (عليه السلام) مع الخصمين اللذين اختصما لديه : ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣] فيوضح شيخ زادة بلاغة التعريض في بيان المراد بقوله : ((ان مقصود الملكين مما فعلا ليس حقيقة التحاكم والتخاصم بل المقصود إبراز أنفسهما في صورة المتخاصمين في واقعة تشبه واقعة داود (عليه الصلاة والسلام) مع اوريا في انه (عليه الصلاة والسلام) أراد أن تكون امرأة أوريا له على الوجه المشروع مع ان عنده أمثال تلك المرأة ... فلما كان المقصود من تحاكمهما التعريض بحاله (عليه الصلاة والسلام) كان المناسب ان يكنى عن المرأة لا ان يصرح بها لأن الكناية عنها أدخل في التعريض والتورية من التصريح ، واختيار طريق التعريض ، لكونه أبلغ في التوبيخ من حيث انه إذا تنبه للمعرض به كان أوقع في نفسه وأجلب لخجالتهِ وحيائهِ مع ما فيه

(١) ينظر : المثل السائر : ٢/١٧٥-١٧٦ .

(٢) البيان في ضوء أساليب القرآن : ٢٨٦ .

من مراعاة حسن الأدب))[1] .

والتعريض بذكر الكلام والمراد جانب آخر من مفهومه يكون لأغراض بلاغية ودلالية يؤديها هذا الفن خصوصاً في الجدالات والحوارات القرآنية ، كقوله تعالى حكاية عن إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام:٧٥-٧٨] .

فاستعمل إبراهيم الخليل (عليه الصلاة والسلام) أسلوب التعريض في المحاججة في قوله تعالى : (هذا ربي) ولم يصرح بما أراد لكي يتوصل المتلقي إلى اليقين بنفسه، فهو كعامل إثارة ودعوة إلى التفكير ، وأوضح شيخ زادة غرض هذا التعريض بقوله: ((قوله : (هذا ربي) كلام على سبيل التنزل والغرض إرخاء العنان مع الخصم في المحاورة كأنه يعرض بربوبيتهِ تنبيهاً على خطأهم واتخاذهم المتغير الحادث رباً))[2]. فاستعمل أسلوب التعريض لذلك .

ومن التعريض قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ ﴾[المائدة:٤٤]، فعلى الرغم من كون صفة الإسلام هي لجميع الأنبياء ، إلا ان النص خصّ أنبياء الله من بني إسرائيل بهذه الصفة للتعريض باليهود وإخراجهم من هذا الحكم ، ويوضح شيخ زادة دلالة التعريض بقوله : ((قصد المدح من اتصف بها من المسلمين من حيث اتصافهم بما يوصف به الأنبياء وهو الإسلام وتعريضاً باليهود بإشعار انهم ليسوا من دين النبيين في شيء وانهم بعدوا عن ملة الأنبياء كلهم ووجه التعريض ، انه تعالى لما وصف النبيين بقوله : (الذين أسلموا) وقال في حقهم انهم

(١) الحاشية : ١٧٩/٤ .

(٢) الحاشية : ١٣٨/١ .

يحكمون بالتوراة لأجل الذين هادوا فيما بينهم قابل اليهود بالذين أسلموا فأشعر ذلك ان اليهود بمعزل عن الإسلام والانقياد لأمر الله تعالى ، فكان قوله (الذين أسلموا للذين هادوا) كالبيان للتعريض بهم بأنهم لا يهتدون بهدي الأنبياء ولا يتدينون بدينهم))[1] . فعرض النص القرآني بالتركيب الجملي في قوله تعالى (الذين أسلموا) بالمخاطبين من اليهود إذ أحال النص الدلالة إلى أخرى تفهم من مضمون سياق الجملة المعرض بها ، إذ أكد على صفة الإسلام المخصوصة بهؤلاء الأنبياء ليعرض بكونهم على غير ملة الإسلام .

(١) الحاشية : ١١٥/٢ .

الفصل الثاني : علم البديع في حاشية شيخ زادة :

توطئة : البديع في اللغة والاصطلاح :

هو الفن الثالث من فنون البلاغة العربية ، ويُعنى بتزيين الألفاظ والتراكيب وتحسينها بعد أن تنتظم وفق علاقات وروابط خاصة للنظم البليغ في علم المعاني وبعد أن تكتمل الصور الفنية لتلك الألفاظ والسياقات وتتوضح دلالتها في علم البيان يبدأ دور علم البديع في تحسين الألفاظ بزخارف البديع وألوانه التي تُزين الصورة والشكل والمضمون لتلك التراكيب والألفاظ .

وللتعرف على هذا العلم لابد أن نتطرق وبعجالة إلى مرحلة تطوره من اللغة إلى الاصطلاح والاستعمال البلاغي .

فالبديع لغةً هو الابتكار والابتداء من غير احتذاء مثال إذ يقول الخليل ((البْدعُ إحداث شيء لم يكن له من قبل خلقٌ ولا ذكر ولا معرفة ، والله بديع السماوات والأرض ابتدعهما ولم يكونا قبل ذلك شيئاً يتوهمهما متوهم ، والبدعُ الشيء الذي يكون أولاً من كل أمرٍ ... ونقول : لقد جئت بأمر بديع أي مبتدع عجيب))[1]. فالبديع هو الأول والعجيب من كل شيء كما انه كل مبتدع من الأشياء .

أما في الإصلاح فقد مرّ هذا الفن بتطور أوصله في نهاية المطاف إلى كونه فناً مكملاً لفني المعاني والبيان فقد اقترن مصطلح (البديع) في باديء الأمر بالدلالة اللغوية وهي الجدة والابتكار ، إذ كان العلماء يطلقونه على كل معنى مُستحسن يستجلبه الشعراء في صورهم الشعرية ، وعلى كل فن يُقدِم المعنى بصورة مبتكرة ويقوم بتجميل المعاني وتحسينها ، من استعارة وتجنيس ومطابقة وغيرها ، إذ لم يكن البديع علماً مختصاً كاليوم عند الأوائل كالجاحظ[2] وابن المعتز[3] . وغيرهم ممن تبع أثر هذين العَلَمين.

ثم عرف هذا التخصص لدى السكاكي ، فبين حده وأقسامه بقوله : ((وجوه

---

(١) العين مادة (بدع) : ٥٤/٢ .

(٢) ينظر : البيان والتبيين : ٥٥/٤-٥٦ .

(٣) ينظر : البديع : ١-٢ .

مخصوصة كثيراً ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام ... وهي قسمان ، قسم يرجع إلى المعنى وقسم يرجع إلى اللفظ))[١] وألحقه ابن مالك بعلمي المعاني والبيان بقوله في حد البديع ((هو معرفة توابع الفصاحة))[٢] . ووجد القزويني (ت٧٣٩هـ) الطريق معبداً أمامه ليضع حد علم البديع ويبين أقسامه ، وهو الحد المعتمد فيما بعد إذ يقول فيه : ((هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة))[٣] . فاستوى البديع عند القزويني علماً تابعاً للمعاني والبيان وظيفته تزيينة للمعاني والألفاظ . وقد بحث هذا العلم في نوعين من المحسنات ، الأولى المحسنات المعنوية والأخرى المحسنات اللفظية ، أما حدّ المحسنات المعنوية فقد اتفق البلاغيون في كونها : ((التي يكون التحسين فيها راجعاً إلى المعنى أولاً وبالذات ويتبعه تحسين اللفظ ثانياً وبالعرض))[٤] . بعكس المحسنات اللفظية ((التي يكون المحسن فيها راجعاً إلى اللفظ أولاً وبالذات ويتبعه تحسين المعنى ثانياً وبالعرض))[٥] .

ولعل هذا التقسيم للفظ والمعنى غير منطقي فاللفظ المحسن هو ما كان معناه حسناً ، وكذلك يَجمُل المعنى بجمال اللفظ فلا يُمكن الفصل بينهما في منطق الواقع اللغوي ، ومن خلال التأمل في نصوص شيخ زادة نجد انه لم يتطرق بالتفصيل إلا للمحسنات المعنوية التي هي :

١-المشاكلة

٢-الالتفات

٣-التجريد

٤-اللف والنشر

٥-الاستخدام

٦-المبالغة

---

(١) المفتاح : ٥٣٢ .

(٢) المصباح : ١٥٩ .

(٣) الإيضاح : ٢٨٧ .

(٤) البديع في ضوء أساليب القرآن : ٢٠ .

(٥) المصدر نفسه : ٢٠ .

٧-الاستطراد

٨-العكس والتبديل

٩-التهييج والالهاب

ولعل اهتمامه المنصب على المحسنات المعنوية نابع من كونه مفسراً للقرآن الكريم ، ونظرة المفسر تكون موجهة للمعاني وما يحصل لها من تحسين وإبداع يساعدهم على فهم القرآن وتأويله ، فالألفاظ لديهم من اللسان العربي الذي يتداوله فصحاؤهم ، لذلك كانت المعاني محط اهتمامهم ، من غير تقليل من شأن الألفاظ التي هي قوالب المعاني وصورها المُزَينة .

المحسنات المعنوية عند شيخ زادة :

١-المشاكلة

لغة مأخوذة من شاكل أي شابه إذ ان الشَّكلُ هو الشبه والمِثل والمشاكلة أيضاً الموافقة[١] . أما في الاصطلاح ، فقد عرّفها البلاغيون بالقول : ((وهي ان تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته))[٢] .

وفصّل شيخ زادة في حدها بالقول : ((المشاكلة ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوع ذلك الشيء في صحبة ذلك الغير أما بحسب المقال المحقق أو المقدر ، بأن لا يكون ذلك الغير مذكوراً حقيقة ويكون في حكم المذكور ، لكونه مدلولاً عليه بقرينة الحال))[٣] .

ويتضح من خلال تعريف شيخ زادة للمشاكلة انها نوعان ، تشاكل تحقيقي ، يكون اللفظ المشاكل به مذكوراً صراحة في السياق ، والنوع الآخر تشاكل تقديري ، إذ يكون اللفظ المشاكل به مقدراً يدل عليه سياق الحال ، فمن أمثلة النوع الأول وهو التحقيقي قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق:١٧] ، إذ عبر النص القرآني عن مجازاة الله تعالى كيد الكافرين بلفظ (الكيد) لوقوعه في صحبته في النص القرآني ، ويوضح شيخ زادة ذلك بقوله : ((وتسمية ما كان من قبله تعالى في حق

(١) ينظر : لسان العرب مادة (شكل) : ١٧٦/٧ .

(٢) مفتاح العلوم : ٥٣٣ ، وينظر : الإيضاح : ٢٩٥ ، والمطول : ٦٤٨ .

(٣) الحاشية : ٤٤٠/١ .

المشركين من استدراجهم والانتقام منهم من حيث لا يجتنبون كيداً من باب المشاكلة لوقوعه في مقابلة كيدهم وجزاء له ... وذلك لأن الكيد وهو المكر والاحتيال لا يجوز إسناده إليه تعالى))[1] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة:١٤-١٥] ، إذ قابل لفظ الاستهزاء بلفظ مشاكل له على الرغم من اختلاف المعنيين لكون استهزائه تعالى مغايراً لاستهزائهم ، إذ يقول شيخ زادة في بيان ذلك ((ان الذي اسند إليه تعالى ليس نفس الاستهزاء بل المجازاة عليه إلا انها سميت استهزاءً مجازاً على طريق تسمية جزاء الشيء باسمه وهو كثير في القرآن ، قال تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠] ، ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤] ، ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢] ، ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٥٤] ... لقصد مقابلة اللفظ باللفظ المجانس له مع اختلاف المعنى المقصود فيكون مشاكلة))[2] . فالنظر في معنى اللفظين ينتج كون احدهما مغايراً عن الآخر وههنا تكمن بلاغة المشاكلة ، فالناظر يتوهم ان المعنى الثاني هو عين الأول فإذا أدام النظر وحقق الفكر علم انه غير فيكون ذلك سبباً لاستقراره في الذهن ورسوخه في الفهم فيكون أدعى للثبوت وعدم التفلت[3] . وكذلك يعطي السياق البلاغي قوة دلالية ، فالاعتداء جزاؤه اعتداء أقسى منه ، والمكر جزاؤه مكر أخفى منه والكيد جزاؤه كيد أدهى منه فيكسب اللفظ المشاكل قوة في الدلالة لكونها دلالة مضاعفة .

ولم يكن بحث شيخ زادة للتشاكل خالياً من الغرض المراد من بعض سياقات التشاكلية في القرآن الكريم بل تطرق إلى الغاية البلاغية المقصودة من هذا الفن البديعي وذلك في معالجاته ، كقوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ

(١) الحاشية : ٦٤٧/٤ .

(٢) الحاشية : ١٤٦/١ .

(٣) ينظر : البديع في ضوء أساليب القرآن : ٧٨ .

﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩] ، إذ يبين شيخ زادة دلالة النص بقوله : ((إثبات المرتفق لأهل النار مع انه لا ارتفاق لهم مبني على المشاكلة لقوله تعالى في حق آرائك أهل الجنة : ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٣١] ، فإن الآية التالية المقابلة لهذه الآية لما كانت مفصولة بذكر الارتفاق جعلت هذه الآية أيضاً مفصولة بذكره لأجل المشاكلة ، لأن إثبات المرتفق للكفار مبني على التهكم))[١] .

وكذلك التهكم الذي يبعثه التشاكل اللفظي في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ:١٦] ، إذ شاكل بين لفظين (جنتيهم جنتين) وهما في معنيين مختلفين لغرض التهكم ، فالجنة الأولى حقيقية والأخرى واردة على نحو الاستهزاء .وقد وضح شيخ زادة تلك ذلك بقوله: ((انه تعالى بيّن دوام خراب بلادهم بعطف قوله (وبدلناهم بجنتيهم جنتين) على قوله : (فأرسلنا عليهم سيل العرم) فإن الرمل إذا دفن بيوت الناس وبساتينهم وآيس أصحابها من عمارتها وتركوها على حالها نبتت فيها الأشجار الخبيثة بدل ما كان فيها من الفواكه الطيبة الحاصلة بسبب العمارة ... وسمى ما كان بدلاً من الخارج جنة على طريق المشاكلة تهكماً بهم))[٢].

وقد يكون اللفظ المشاكل أوفى في تأدية المراد من غيره من الألفاظ ، لكونه طاقة تعبيرية وإيحائية وذلك كقوله تعالى : ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الأعراف:١١٥-١٢٠] فشاكل بلفظ (فألقى السحرة ساجدين) ما قبله في قوله (ألقوا ما انتم ملقون) ، لكون هذا اللفظ يُصور عملية سجودهم إلى الأرض أكثر من (خروا ساجدين) ويوضح شيخ زادة ذلك بقوله: ((ان المعنى خروا وسقطوا ساجدين لكن عدل إلى هذا القول ، للمشاكلة لقوله (ألقوا ما انتم

(١) الحاشية : ٣/٢٦٠ .

(٢) الحاشية : ٤/٨٦ .

ملقون) ، فألقوا حبالهم فألقى موسى عصاه ، وليدل على انهم لم يتمالكوا أنفسهم حين ما شهدوا أمراً خارجاً عن السحر فخروا بدون الاختيار ، كأن ملقياً أخذهم وألقاهم على وجوههم))[1] .

أما النوع الآخر من التشاكل فهو التقديري ، أي ان اللفظ المذكور مشاكلاً للفظ مقدر يفهم من سياق الحال ، ومثّل شيخ زادة لهذا النوع من التشاكل بقوله تعالى : ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة:١٣٦-١٣٨] ، فعبر النص عن تطهير الله تعالى المؤمنين ، بلفظ (صبغة الله) لوقوعها في صحبة تطهير النصارى أنفسهم بالماء الأصفر ، تشاكلاً للمعنيين لإظهار أقوى الصبغتين وأطهرهما ، فيوضح شيخ زادة دلالة الآية على التشاكل بقوله : ((قوله تعالى (صبغة الله) أي تطهير الله ، فان التطهير وقع بلفظ الصبغ لوقوعه في صحبة الصبغ تقديراً ، وذلك ان النصارى كانوا يزعمون ان غمس أولادهم في ماء أصفر يسمى بالمعمورية تطهيراً لهم ، فأُمِرَ المسلمون بأن يقولوا لهم : آمنا بالله وطهرنا الله بالإيمان تطهيراً حقيقياً منجياً لا مثل صبغتكم بالماء الأصفر ، فأنها ليست من التطهير في شيء فظهر ان التطهير وقع في صحبة الصبغ تقديراً حيث سيق الكلام رداً عليهم وإبطالاً لأمرهم))[2] .

فعلى الرغم من تشاكل الصبغتين اللفظي ، إلا ان صبغة النصارى زائلة وعارضة وحادثة ، بعكس صبغة الإيمان التي هي دائمة وغير زائلة ، لأن الأولى تكون من الخارج ، بعكس الإيمان الذي ينبع من داخل الإنسان ويفيض في كل آن فهو داخلي ودائم فصبغته أطهر وأدوم وان كانا متشاكلين في اللفظ .

ومن التشاكل التقديري قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ﴾ [البقرة:٢٦] ، فجيء بلفظ (يستحي) مشاكلاً لقول الكافرين في حقه (عزّ ذكره) ، إذ

(١) الحاشية : ٣/٤٧٠ .

(٢) الحاشية : ١/٢١٨ .

يقول شيخ زادة : ((فأن الكفار لما قالوا أما يستحي ربُّ محمد ان يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت مع ان ملوك الأرض يأنفون من ذكر أمثال ذلك ، اجيبوا بأن الله (لا يستحي) على سبيل المقابلة لكلامهم وتطبيق الجواب على السؤال فعبارة (الاستحياء) الواقع في كلام الله تعالى من قبيل المشاكلة المذكورة في علم البديع))[١].

وفي تشاكل لفظ (الاستحياء) في حقه تعالى إظهار لوقاحتهم وجرأتهم في حواراتهم الهزيلة التي تنم عن قلة العقل والحكمة ، وفي إرجاع اللفظ نفسه عليهم ردعٌ لهم وتهويل . فان كان أقصى ما يمكن ان يقولون في حقه تعالى هيناً عليه رده وبالحجج الظاهرة فان بطلانهم وخسارتهم صارت واضحة ، إذ ان الملك العادل والقوي لا يخشى الضعيف الواهن في محاورة كذلك الله سبحانه وتعالى ههنا أظهر وهنهم بمشاكلة وإعادة لفظهم عليهم ، وحاججهم بحجج واضحة وداحضة على ما أساؤا فهمه .

٢-الالتفات

الالتفات في اللغة ، هو الانصراف من أمر إلى أمر آخر ، إذ يقول صاحب العين فيه : ((لَفْتُ فُلاناً عن رأيهِ أي صرفهُ عنه ومنه الالتفات))[٢] .

اما في الاصطلاح فالمشهور فيه انه ((الانتقال بالأسلوب من صيغة المتكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى صيغة أخرى من هذه الصيغ بشرط ان يعود الضمير الثاني على نفس الذي يعود عليه الضمير الأول))[٣] . فهو بذلك ظاهرة أسلوبية تهدف إلى تعزيز الدلالة من خلال الانزياح والتلون في الاستعمال اللغوي ، وقد اختلف البلاغيون في ما يختص به هذا الفن، فقد ذهب أغلبهم، كابن مالك[٤] (ت٦٨٦هـ)، والسكاكي[٥] (ت٦٢٦هـ) ، والقزويني[٦] (ت٧٣٩هـ) ومن تبعهم إلى ان ميدان دراسة هذا الموضوع هي الضمائر ، والانتقالات فيما بينها ، وخصصوا منها ضمائر (الخطاب والتكلم

(١) الحاشية : ٢١٨/١ .
(٢) العين (لفت): ١٢١/٨ .
(٣) المعاني في ضوء أساليب القرآن : ٢٥٩ .
(٤) ينظر : المصباح : ٣٠ وما بعدها .
(٥) ينظر : المفتاح : ٢٩٦ وما بعدها .
(٦) ينظر : الإيضاح : ٨٣ وما بعدها .

والغيبة) ، فيما عارض ابن الأثير[١] (ت٦٣٧هـ) ، والعلوي[٢] (ت٧٤٩هـ) أغلب هؤلاء البلاغيين في تخصيص الالتفات بالضمائر فقد كانت نظرتيهما أوسع ، إذ ان الالتفات عند العلوي يكمن في كل عدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر ، فلم يقصرا بحثيهما على الضمائر ، بل شمل ثلاثة أمور :

الأول : ما يرجع العدول فيه إلى الانتقال في الضمائر كالغيبة والخطاب والتكلم فيما بينها .

الثاني : ما يرجع العدول فيه إلى الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر ، وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر .

الثالث : ما يرجع العدول فيه إلى الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل وعن المستقبل بالماضي[٣] .

فقصر أغلب البلاغيين الالتفات في تنقلات الضمائر فيما توسعت هذه النظرة عند العلوي وابن الأثير ، ونجد شيخ زادة في هذا الخلاف يقف مع جمهور البلاغيين ، إذ يرى أن الالتفات مصطلح مختص بالضمائر ، وعدّ صوره الأخرى التي ذكرها ابن الأثير هي من العدول كما سيتوضح ، والجانب الآخر من الخلاف في موضوع الالتفات ، هو موقعه من فنون البلاغة ، فقد ذهب أصحاب البديعيات كابن المعتز[٤] (ت٢٩٦هـ) ، وابن أبي الأصبع المصري[٥] (ت٦٥٤هـ) إلى عَدّ هذا الفن من الفنون البديعية ، في حين فصّل السكاكي[٦] (ت٦٢٦هـ) ، والقزويني[٧] (ت٧٣٩هـ) ، والعلوي[٨] (ت٧٤٩هـ) في الالتفات ضمن علم المعاني .

أما شيخ زادة فهذا الالتفات يحدث عنده من خلال التنقل بالأدوات اللغوية

---

(١) ينظر : المثل السائر : ٤٠٨/١ وما بعدها .

(٢) ينظر : الطراز : ٢٦٥ .

(٣) ينظر : المثل السائر : ٤٠٨/١ وما بعدها ، والطراز : ٢٦٦-٢٦٨ .

(٤) ينظر : البديع : ٥٨ .

(٥) ينظر : بديع القرآن : ٦٩ .

(٦) ينظر : المفتاح : ٢٩٦ .

(٧) ينظر : الإيضاح : ٨٣ .

(٨) ينظر : الطراز : ٢٦٥ .

كالضمائر ، إذ فصّل شيخ زادة في صور الالتفات العائدة على الضمائر ، مبيناً أغراض مجيئها ، لأن القرآن الكريم تعبير فني مقصود ، فكل انتقالة في أسلوبه يكمن وراءها سرٌ بلاغيٌ ، حاول شيخ زادة الكشف عنه بما أُوتي من موهبة التذوق البلاغي للنص المقدس ، وآثرنا ان نضع هذا الفن ضمن فنون البديع لكون الالتفات من الفنون التي يكون التغيير والعدول فيها على مستوى السطح او الشكل اللغوي الذي يكون كتحويلات توليدية لتنشيط ذهن المتلقي وإفاضة السياق بالدلالة اذ أنه تغيير على مستوى اللفظ يتبعه تحسين وتعميق للدلالة والمضمون .

صور الالتفات عند شيخ زادة

من صور الالتفات التي وقف عندها شيخ زادة في التعبير القرآني :

أ-الالتفات من الغيبة إلى الخطاب :

وذلك كالالتفات الواقع في قوله تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٢-٥] .

إذ انتقل السياق القرآني من أسلوب الغيبة في الكلام في قوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين) وما بعدها إلى الخطاب في قوله (إياك نعبدُ وإياك نستعين) وكان السياق يقتضي ان يقال إياه نعبدُ وإياهُ نستعين ، وهذا الالتفات في السياق له دلالته التي أوضحها شيخ زادة بقوله : ((انه أدل على اختصاص العبادة والاستعانة به تعالى ، فانه لو قيل إياهُ نعبدُ وإياه نستعين لاستفيد الاختصاص من مجرد تقديم ما حقه التأخير فانه موضوع لإفادة الاختصاص عرفاً والالتفات إلى الخطاب يؤكد المعنى المستفاد من التقديم ويقويه ... فيكون الالتفات مع التقديم أدل عليه من مجرد التقديم))[1] . فوفر الخطاب المباشر بعد الغيبة دلالة الاختصاص وكذلك فأن هذا السياق يوفر دلالة التنبيه على حصر العبودية والاستعانة به ، فهو تعالى شرف المخاطبين بكرم المكاشفة والتجلي في الخطاب في هذا المقام ليقصروا عبادتهم إليه إذ إنه تعالى حاضر معهم في مقام الخطاب دائماً في هذين الموردين : العبادة والاستعانة .

وقد ينتقل الأسلوب من الغيبة إلى الخطاب ، لكون الخطاب أبلغ في التوبيخ من

(١) الحاشية : ٣٩/١ ، وينظر : ١٧٦/١-١٧٧ .

التوبيخ في الغيبة ، إذ تكون المواجهة كعنصر ردع ، وذلك كقوله تعالى : ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد:٢١-٢٢] ، إذ يبين شيخ زادة الغرض من هذا الالتفات بالقول : ((وقد نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في التوبيخ))[١] . فأقبل تعالى عليهم يخاطبهم في قوله (فهل عسيتم إن توليتم) بعد الغيبة في قوله : (فلو صدقوا الله لكان خيراً أهم) لاقتضاء المقام ذلك الخطاب .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأعلى:١٥-١٦] ، فقد انتقل سبحانه وتعالى من أسلوب الغيبة في (ربه) إلى الخطاب في (تؤثرون) وكان الأصل ان يقال (يؤثرون) ولهذا الالتفات دلالة أوضحها شيخ زادة بالقول : ((ونكتة الالتفات المبالغة في الذم ، فان الذم مواجهة أبلغ في الذم مما يكون في الغيبة))[٢] .

وقد يكون الغرض من الالتفات من الغيبة إلى الخطاب هو التشريف والتكريم الذي يحصل من خلال المخاطبة المباشرة ، وذلك كقوله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾ [آل عمران:١٤-١٥] ، إذ انتقل السياق القرآني من أسلوب الكلام على الناس بصورة الغيبة إلى الخطاب في (أؤنبئكم) ، لغرض بينه شيخ زادة بقوله : ((قوله : (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم) التفات من الغيبة في قوله : (للناس) إلى الخطاب تشريفاً لهم))[٣] .

ب-الالتفات من الخطاب إلى الغيبة :

يُعدل في السياق القرآني عن ضمير الخطاب إلى الغيبة لغرض بلاغي يتطلبهُ النظم البليغ ، ومن أكثر هذه الأغراض وروداً في حاشية شيخ زادة ، هو غرض

(١) الحاشية : ٣٤٩/٤ ، وينظر : ٣٤٠/١-٣٤١ .
(٢) الحاشية : ٦٥١/٤ ، وينظر : ٤٦٦/٣ .
(٣) الحاشية : ٦١٠/١ .

التحقير والإبعاد عن ساحة الخطاب ، وذلك كقوله تعالى : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الدخان:٨-١٠] ، إذ انتقل السياق القرآني من الخطاب في قوله تعالى (ربكم ورب آبائكم الأولين) إلى الغيبة في قوله (بل هم في شك يلعبون) ، أما غرض هذا الالتفات فيوضحه شيخ زادة بقوله : ((تحقيراً لشأنهم وإبعاداً لهم عن موقف الخطاب لكون شأنهم التزلزل والامتراء وكون أفعالهم الهزوأ واللعب لعدم التفاتهم إلى البراهين القاطعة))[١] .

ومنه قوله تعالى : ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [النجم:٢٣] ، إذ انتقل السياق من المخاطبة في (انتم وآباؤكم) إلى الغيبة في قوله (ان يتبعون إلا الظن) ، أما غرض هذا الالتفات فيوضحه شيخ زادة بالقول : ((العامة قرأوا بياء الغيبة ، التفاتاً من خطابهم إلى الغيبة تحقيراً لهم كأنه قطع الكلام معهم وقال لنبيهِ (صلى الله عليه وسلم) انهم لا يتبعون إلا الظن فلا تلفت إلى قولهم))[٢] .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٩٢-٩٣] ، إذ التفت من الخطاب في (أنا ربكم فاعبدون) إلى الغيبة في قوله تعالى (وتقطعوا أمرهم) ، أما دلالة هذا الالتفات فيقول فيها شيخ زادة: ((صرف الكلام إلى طريق الغيبة على الالتفات ، كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم ويقول لهم : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء حيث جعلوا أمرهم فيما بينهم قطعاً))[٣] . فكان اختلاف أسلوب الكلام ذا دلالة وغرض بلاغي .

وقد يكون الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة لغرض التعجب كقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) الحاشية : ٣١١/٤ .
(٢) الحاشية : ٤١٣/٤ .
(٣) الحاشية : ٣٦٧/٣ .

﴿ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا﴾ [البقرة:١٦٨] قال بعد ذلك : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة:١٧٠] ، إذ عدل السياق عن مخاطبتهم في قوله : (يا أيها الناس) إلى الغيبة في قوله : (وإذا قيل لهم اتبعوا) أما الغرض فأوضحه شيخ زادة بقوله : ((فيكون التفاتاً من الخطاب إلى الغيبة والنكتة انهم ابرزوا في صورة الغائب الذي يُتعجب من فعله حيث دُعي إلى الله والنور والهدى فأجاب بإتباع أبيه))[1] .

وقد يبحث شيخ زادة في غرض الالتفات في القراءة القرآنية ، لا بنفس النص القرآني كقوله تعالى : ﴿...قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١] ، إذ يقول في دلالة الالتفات في النص القرآني على قراءة الغيبة في الأفعال (تجعلونه وتبدونها وتخفون) ، ((ومن قرأ الأفعال الثلاثة بصورة الغيبة حمل الكلام على الالتفات فان قوله تعالى : (ما أنزل الكتاب) لما كان جواباً لهم كان المطابق له (تجعلونه) على لفظ الخطاب إلا انه التفت إلى طريق الغيبة تبعيداً لهم عن ساحة الحضور والخطاب بسبب فعلتهم ثم التفت ثانياً من الغيبة إلى الخطاب في قوله (وعلمتم) ، تنبيهاً على ان الغائبين هم المخاطبون وما أحسن هذين الالتفاتين حيث أعرض عنهم عند إرادة نسبة القبح اليهم حتى لا يواجهوا به وحيث نسب اليهم الحسن وهو (علم ما لم يعلموا) خاطبهم به))[2] . ومن خلال هذا النص يتضح ولع شيخ زادة بالتفسير البلاغي إذ لم يقتصر على النص بل جاوزه إلى تفسير قراءاته وبحث ما في السياق القرآني من أنواع الالتفاتات .

ومن الالتفات من المخاطبة إلى الغيبة لأجل تحقير المخاطب قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ [الزُّخرُف:٧٨-٧٩] ، إذ انتقل السياق من أسلوب الخطاب في قوله تعالى (قد جئناكم بالحق ولكن أكثرهم للحق

(١) الحاشية : ٤٧٨/١ .

(٢) الحاشية : ١٨٧/٢ ، وينظر : ٣٠٤/١ .

كارهون) إلى أسلوب الغيبة في قوله : (أبرموا أمراً) ، أما غرض هذا الالتفات فأوضحه شيخ زادة بالقول: ((انه تعالى خاطب كفار قريش حال نسبة كراهة الحق اليهم وأخبر عنهم بطريق الغيبة حال نسبته إبرام المكر اليهم ، للإشعار بأن الثاني أقبح من الأول ، لأن الالتفات إلى الغيبة في مقام المخاطبة يكون لتحقير المخاطب وإسقاطه عن صلاحية المخاطبة معه فلما أوثرت هذه الطريقة في نسبة الإبرام إليه أشعر ذلك بكونه أسوأ من كراهتهم))[1] .

ج-الالتفات من الغيبة إلى التكلم :

تطرق شيخ زادة إلى هذه الصورة من الالتفات في قوله تعالى : ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه:٥٣] ، إذ تحول السياق من الغيبة في قوله : (وسلك لكم فيها سبلاً) إلى التكلم في قوله عزّ من قائل : (فأخرجنا به أزواجاً) ، اما دلالة هذا الالتفات فيبينها شيخ زادة بالقول : ((هذا العدول أدل على كمال القدرة والحكمة بالنسبة إلى ان يقال (فأخرَج به) وأيضاً لما كان هذا العدول مشتملاً على وضع ضمير الجمع موضع المفرد كما هو عادة الملوك في التعبير عن أنفسهم وعلى وصف النبات الخارج به بالاختلاف والتشتت دل الكلام على انه ملك مطاع تنقاد المخلوقات على اختلافها وتفرقها لإراداته ... وعلى كون العدول من لفظ الغيبة إلى صيغة المتكلم للتنبيه والإيذان المذكورين ، قوله تعالى : ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر:٢٧] ، وقوله : ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ [النمل:٦٠] بلفظ التكلم بعد التعبير بلفظ الغيبة والوجه في كون العدول إلى التكلم في مثل هذا المقام دالاً على كمال القدرة والحكمة ، ان من اشتهر بالقدرة الفائقة والحذاقة الظاهرة إذا قال من يفعل كذا يفهم منه ان أكثر القدرة الباهرة لا يقدر عليه غير المتكلم والأمر كذلك ههنا ، فان الماء واحد والأرض واحدة والمخرج مختلف ألونها ، فلا يكون ذلك إلا بإيجاد قادر مختار لا يمتنع شيء من إرادته ومشيئته))[2] فالتكلم أولى للمقام والتعبير عن القدرة فلذلك عُدل إليه من الغيبة .

---

(١) الحاشية : ٣٠٥/٤ .

(٢) الحاشية : ٣٢٠/٣ .

د-الالتفات من التكلم إلى الغيبة :

أشار شيخ زادة إلى هذه الصورة في قوله تعالى : ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١] ، إذ انتقل تعالى من التكليم في قوله (ولقد اصطفينا) إلى الغيبة في (إذ قال له ربه) لنكتة دلالية أوضحها شيخ زادة بقوله : ((كان مقتضى الظاهر ان يقال : (إذ قلنا له) ، إلا انه التفت من التكلم إلى الغيبة للإشعار بأن ذلك القول أي الإلهام والإخطار إنما هو بطريقة التربية والتكميل))[١] .

وهذه صور الالتفات التي تطرق اليها شيخ زادة ، مبيناً أغراض ما تطرق إليه من شواهد التنزيل ، ولم يكتفِ ببيان الانتقالات ، والاعتماد على ما جاء به العلماء من ان هذا الأسلوب ، لتطرية السامع وشد ذهنه ودفع السأم والملل ، بل لأغراض أسلوبية تضفي على السياق الوارد فيه بلاغة عالية المستوى ، وأسراراً دلالية كشف عن عدد منها .

ومن صور الالتفات التي لم يُسمِها شيخ زادة التفاتاً (التعبير عن الماضي بصيغة المستقبل) .

إذ نبه على هذا الأسلوب في مواضع من حاشيته مبيناً أغراض مجيئها في تلك السياقات القرآنية ، كقوله تعالى : ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [سبأ:٥٣] ، إذ عدل السياق عن الماضي إلى صيغة المستقبل ، أما غرض هذا العدول فيبينه شيخ زادة بقوله : ((فكان الظاهر ان يقال وقُذِفُوا بالغيب إلا انه جيء بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية بأن قدر إن ذلك الفعل الماضي واقع في حال المتكلم كأنك تحضره للمخاطب يتعجب منه))[٢] .

ومنه قوله تعالى : ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم:١٢] وكان الظاهر ان يقال (ما رأى) وهذا العدول له دلالته وغرضه إذ يقول شيخ زادة في بيانها : ((الظاهر ان يقال افتمارونه على ما رأى بصيغة الماضي لأنهم إنما جادلوه بعدما أسري به فما الحكمة

---

(١) الحاشية : ٤٢٧/١ ، وينظر : ٢٨٧/٢ .

(٢) الحاشية : ٩٨/٤ .

في إيراده بصيغة المضارع فالجواب على حكاية الحال الماضية إحضاراً للحالة البعيدة في ذهن المخاطبين وتعجيباً لهم))[1] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ ﴾ [فاطر:٩] ، إذ يقتضي النظم ان يكون لفظ الفعل في (فتثير) ماضياً ، إلا أنه جيء به ههنا مضارعاً ، أما دلالة هذا الانتقال فيوضحه شيخ زادة : ((وإنما يفعل هذا في الفعل المشتمل على نوع غرابة كأنك تحضره للمخاطب وتصوره له ليتعجب منه))[2] .

ومنه قوله تعالى : ﴿فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧] ، إذ عدل عن الماضي إلى المضارع ، لدلالة أوضحها شيخ زادة بقوله : ((وإنما يفعل هذا في الفعل المستغرب كأنك تحضره للمخاطب وتصوره له في النفوس وإظهاره لشناعته))[3] فالعدول إلى صيغة المضارع في هذه النصوص القرآنية لخاصيته في استجلاب الحدث آنياً وتصويره بفضل دلالته على الحدوث والتجدد الاستمراري فيجعل النص مصوراً تصويراً آنياً .

وقد يُعدل ببعض السياقات القرآنية التي تقتضي نوعاً خاصاً من الجمل إلى نوع آخر وعلة ذلك العدول معاني عميقة وأغراض رصينة تستنبط من هذه الإنزياحات في التلون الخطابي للجمل القرآنية إذ يقول شيخ زادة : ((وقد تقرر في علم البلاغة ان كل مقام استحق إيراد لفظ لو عدل عنه إلى لفظ آخر فلابد أن يكون العدول لفائدة))[4] .

والعدول عن الجملة الاسمية إلى الجملة الفعلية عند شيخ زادة له أغراضه التي يبعثها ذلك العدول ومنها :

١-لاستحضار الحال :

وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [إبراهيم: ٤٩-٥٠] ، إذ وُصِفت الأقران والسرابيل بالجملة

(١) الحاشية : ٤١٠/٤ .

(٢) الحاشية : ١٠١/٤ .

(٣) الحاشية : ٣٤٧/١ .

(٤) الحاشية ٥/٣ .

الاسمية ، وَصُورَ تجدد العذاب والغشيان ، بالجملة الفعلية إذ يقول شيخ زادة: ((وأوثر الفعل المضارع في قوله (وتغشى) ولم يجعل اسمية ، كما قبله لاستحضار الحال والدلالة على تجدد الغشيان حالاً فحالاً))[1] .فالفعل أولى ههنا لتصوير الحدث .

ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨] ، ويبين شيخ زادة سياق العدول وغرضه بالقول : ((فان قوله تعالى (إنا سخرنا الجبال) إخبار عما مضى ، فالمناسب بحسب الظاهر ان يقال مسبحات ولكنه عدل عنه إلى يسبحن لحكاية الحال الماضية واستحضارها في نظر السامع حتى يشاهد حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء ويتعجب من القدرة الربانية))[2] . فالفعل (يسبحن) يستجلب ذهن السامع ويشدهُ إلى هذا الحدث إذ يصورهُ آنياً .

٢-للدلالة على الطاريء على الأصل :

تعبر الجملة الاسمية عن الصفات الثابتة لأنها ((تفيد بأصل وضعها ثبوت شيء لشيء))[3] . والثبوت من لوازم الأصل أما إذا أُريد التعبير عن عوارض الصفات فيؤتى بالجملة فعلية لتفيد حدوثاً وتجدداً ، ويتضح ذلك في الاستعمال القرآني للفعل في معرض التعبير عن الطاريء من الصفات في قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩] ، فجيء بـ(صافات) على نحو الاسمية التي صورة هيئة الطائر وصفاته الثبوتية وعدل إلى الفعلية لبيان حركته الطارئة عليه ويبين شيخ زادة دلالة الفعل على المعاني الطارئة قائلاً : ((قوله تعالى : (ويقبضنّ) عطف على (صافات) عطف الفعل على الاسم ، لكونه بمعنى قابضات إلا انه عدل به إلى صيغة الفعل ، للدلالة على ان الهواء للطائر بمنزلة الماء للسابح فكما أن الأصل في السباحة هو مدّ الأطراف ببسطها وقبضها وقتاً بعد وقت لا يقصد بذاته ، وإنما يفعل ليتوصل إلى ما هو الأصل في السباحة وهو البسط فكذا الطيران فان الأصل فيه هو صفة الأجنحة والقبض يطرأ على الأصل للاستظهار به

(١) الحاشية ١٤٣/٣ .

(٢) الحاشية ١٧٧/٤ .

(٣) علم المعاني – البيان – البديع ، د. عبد العزيز عتيق : ٤٥ .

على التحرك فجيء بما هو طارىء غير أصل بلفظ الفعل لأن الفعل يدل على التجدد وقتاً بعد وقت والمعنى انهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة))[1] . فقد راعى السياق القرآني الحالات الطارئة والمتجددة في خِلقه الطائر فذكره بلفظ الفعل الدال عليه .

٣-لإيهام التجدد :

كقوله تعالى : ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يس: ١٠] ، فأوثر الفعل في (تنذرهم) على الاسم لإعطاء معنى عدم إفادة تجديد الفعل لعدم النفع من ذلك التجدد إذ يقول شيخ زادة : ((إنما عدل هاهنا عن المصدر إلى الفعل ... ففي لفظ الفعل إيهام تجدد الإنذار ووقوعه وعدم نفع ذلك أصلاً وهو أدل على إفادة اليأس وقطع رجاء الإيمان منهم بالكلية ولو قيل سواء عليهم إنذارك وعدم إنذارك لم يفهم منه المعنى المذكور وإنما يدل على عدم نفع الإنذار في الجملة))[2] .

وقد يكون التعبير بالفعل أبلغ ، لأن فيه دلالة على استمرار دعوة الرسول ﴿ ﷺ ﴾ وتجددها لإصلاحهم وحرصه الشديد على هذه الأمة ، بخلاف ما لو عبر بالاسم فثبتت الدعوة له ﴿ ﷺ ﴾ بطريق واحد وبحالة ثابتة ، ففي لفظ الفعل إظهار لكون تجدده في الإنذار لا ينفع . ولو كان التجدد في الإنذار بطرق وأساليب مختلفة.

العدول إلى الجملة الاسمية

يعدل إلى الجملة الاسمية لإعطاء دلالات وأغراض متعددة منها :

١-للدلالة على ثبوت المعنى ورسوخه :

وذلك كقوله تعالى : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢-٣] ، فعبر النص عن الخبر تارة بلفظ الفعل (صدقوا) وتارة بلفظ اسم الفاعل (كاذبين) ووجد شيخ زادة أن هذا التعبير المتغاير يعطي غرضين متغايرين ، إذ يقول : ((وفي قوله (صدقوا) بصيغة الفعل ، وقوله (الكاذبين) بلفظ اسم الفاعل فائدة مع الاختلاف في اللفظ أدل على

(١) الحاشية : ٥٢٣/٤ .

(٢) الحاشية : ١١٢/١ .

الفصاحة ، وهي أن اسم الفاعل يدل في كثير من المواضع على ثبوت المصدر في الفاعل ورسوخه فيه والفعل الماضي لا يدل عليه ... وإذا ثبت هذا فنقول وقت نزول الآية كانت حكاية عن قوم قُرَبى العهد بالإسلام في أوائل إيجاب التكليف وعن قوم مستمدين للكفر مستمرين عليه فقال في حق المؤمنين : صدقوا بلفظ الفعل أي وجد منهم الصدق ، وقال في حق الكافرين الكاذبين بالصيغة المنبئة على الثبات والدوام))[1] . فلفظ (الكاذبين) أدل على إفادة معناه من الفعل ، لأنه يُصور الحالة الثابتة فيهم ويرسخها . فيما يكون التعبير بلفظ الفعل في جانب المؤمنين ، لكونه كالمتحقق منهم والواقع فيما مضى وعُهدَ من الزمان .

٢-الدلالة على المبالغة في الاستمرار :

كقوله تعالى : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٨-١٩] إذ عدل في التعبير عن الفعل في (يسبحنّ) إلى الاسم في قوله (والطير محشورة) ، أما غرض ذلك العدول فيبينه شيخ زادة بقوله : ((ولم يراعِ المطابقة بين الحالين ، أي لم يقل والطير يحشرن بلفظ الفعل ليطابق يسبحنّ لأن الأصل في الموضعين أن يؤتى بهما على لفظ الاسم ليطابق قوله (سخرنا) إلا أنه عدل في التسبيح إلى لفظ المضارع للدلالة على حدوث التسبيح من الجبال [شيئاً] بعد شيء وهذه الدلالة غير مقصودة في الحشر فجيء به على لفظ الاسم على الأصل وذلك انه انه لو قيل وسخرنا الطير يحشرن لدل على ان الحشر يوجد من حاشرها [شيئاً] فشيئاً والحاشر هو الله ولا نكتة في اعتبار التدريج ، لأن حشرها جملة واحدة أدل على القدرة ... ان هذه الجملة الاسمية كما تدل على موافقتها لداود في التسبيح تدل أيضاً على دوام موافقتها له فيه وثباتها عليه لأن أواب صيغة مبالغة وهي إنما تكون بالدوام والثبات على التسبيح بخلاف قوله يسبحنّ معه فانه إنما يدل على مجرد الموافقة))[2] فعدل النص القرآني إلى الجملة الأسمية في (والطير محشورة) للدلالة على القدرة في الحشر ، وعلى ثبات الطير ورسوخه على التسبيح مع أيوب عليه . وهذا التفصيل

(١) الحاشية : ٤/٤ .

(٢) الحاشية : ١٧٧/٤ .

تفتقر إليه كتب التفاسير كالكشاف مثلاً[1] .

٣-الدلالة على الاعتياد والمداومة :

كقوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣] .

فجيء بالتعبير بلفظ الفعل ، لبيان الحالة التي عليها المؤمنون فيما عُدل إلى الاسم ، لبيان إعراض الكافرين ، ولإعطاء دلالة المداومة ، إذ يقول شيخ زادة في دلالة ذلك : ((معنى الاعتياد مستفاد من اسمية الجملة فأنها تدل على الثبات والاستمرار فكأنه قيل فان توليتم وأعرضتم عن الوفاء بما أخذته عليكم من العهد والميثاق فلا عجب لأنكم قومٌ عادتكم التولي))[2] .

فجيء بالفعل معبراً عن حالة التجدد في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فيما جيء بالاسم لمناسبته الحالة النفسية والفكرية الثابتة التي عليها الكافرون .

ومما هو شديد الارتباط بالعدول (الأسلوب الحكيم) إذ عرفه بالقول : ((وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقبه))[3] . فهو بمثابة حافز إثارة وتدبر في خواص الأمور وعنصر تنبيه عمّا غاب عن ذهن الإنسان معرفته ، فيحفزه على السؤال عنه وذلك عن طريق الخروج بالسياق عن مقتضى الظاهر بوساطة الأسلوب الحكيم ، ومثل شيخ زادة لهذا الأسلوب بقوله تعالى : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ﴾ [البقرة:١٨٩] ، إذ أجيبوا عن غير ما سألوا عنه في حقيقة الأهلة ، وأوضح شيخ زادة هذا الأسلوب عن طريق تفسيره البلاغي لهذه الآية إذ يقول في بيانها : ((من باب أسلوب الحكيم وهو تلقي السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غير السؤال لينبهه على تعديه عن موضع السؤال الذي هو أليق بحاله واهم له إذا تأمله كأنهم سألوا عن الحكمة في اختلاف حال الأهلة قيل لهم اتركوا السؤال عن هذا الأمر الذي لا يعنيكم وارجعوا إلى البحث عما هو أهم

(١) ينظر : الكشاف : ٨١/٤ .
(٢) الحاشية : ٣٤١/١ .
(٣) الحاشية : ٢٥٣/٢ .

لكم فأنكم تظنون ان إتيان البيوت من ظهورها بر وليس الأمر كذلك))[1] .

ونحو هذا من الأسلوب الحكيم الذي كان غرضه التنبيه قوله تعالى : ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف:٧٦] ، فبين شيخ زادة نمط الأسلوب الحكيم وغرضه بالقول : ((ان السؤال عن إرسال صالح (عليه الصلاة والسلام) وانه هل هو مرسل من ربه أو لا فالجواب السوي المطابق له ان يقال نعم أو انه مرسل لكنهم عدلوا عنه إلى الإخبار عن أنفسهم بأنهم مؤمنون به وبما أرسل به ، تنبيهاً على ان إرساله أمر معلوم محقق ... فكأنهم قالوا لا كلام في إرساله إنما الكلام في الإيمان به فنحن مؤمنون به فهذا الجواب من أسلوب الحكيم))[2] .

فكانت إجابتهم غير مرتقبة ولا تطابق السؤال المطروح من قبل المتكلم ، وفي ذلك الخروج عن مقتضى الظاهر دلالة عميقة تنبه المتلقي وتعيدهُ إلى جانب الصواب في التفكير .

٣-التجريد :

التجريد لغة بمعنى الإزالة ، إذ بيّن ابن منظور دلالة التجريد اللغوية بقوله : ((جرّد الشيء يجرده جرْداً وجردّه قَشرهُ ... والتجريد التعرية من الثياب))[3] . فهو إذا الإزالة والكشف .

أما في الاصطلاح البلاغي فقد اختلف العلماء في توجيه حدّ التجريد ، فقد ذهب ابن الأثير[4] (ت٦٣٧هـ) ، والعلوي[5] (ت٧٤٩هـ) إلى إن التجريد : إخلاص الخطاب لغيرك وأنت تريد نفسك لا المخاطب نفسه . فخصصوا التجريد بالخطاب ، فيما جعل القزويني (ت٧٣٩هـ) ، التجريد فناً بديعياً يقصد به انتزاع صفة أو معنى من عاقل

(١) الحاشية : ٤٩٩/١ .
(٢) الحاشية : ٢٥٢/٢-٢٥٣ .
(٣) لسان العرب مادة (جرد) : ٢٣٤/٢-٢٣٦ .
(٤) ينظر : المثل السائر : ٤٠٢/١ .
(٥) ينظر : الطراز : ٤٣٤ .

وإسباغ الحياة عليها لتظهر في صورة محسوسة توازي بكاملها ما اشتقت منه ، إذ يقول القزويني : ((التجريد وهو ان ينتزع من أمر ذي صفة أمراً آخر مثله في تلك الصيغة مبالغة في كمالها فيه))[١] . ووافقه التفتازاني[٢] على هذا الحد ، وكذلك شيخ زادة إذ يبين حدّ التجريد بقوله : ((وهو ان ينتزع من أمر ذي صفة أمر يماثل للأول في الاتصاف بتلك الصفة ، لقصد المبالغة في كمال تلك الصفة في الأمر الأول حتى كأنه بلغ في اتصافه بتلك الصفة إلى حيث يصح ان ينتزع منه أمر آخر موصوف بتلك الصفة))[٣] .

ومن صور التجريد عند شيخ زادة قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف:٩-١٠] ، فقد وضح طريقة التجريد بقوله : ((فان جعلت كلمة (من) في الآية تجريدية يكون مطلوبهم ان يبلغ أمرهم في الرشد والهداية حداً يصح مع ذلك الحد ان يستخلص منه أمر آخر مثله في الرشد))[٤] . أي اجعل ما فاض علينا من الرشد في أمرنا رُشداً آخراً ، ليكون دليلاً لنا في رجعتنا وفي ذلك الاشتقاق التجريدي تصوير لهذا الفيض السماوي .

ومنه قوله تعالى : ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ [مريم:٥-٦] فقد انتزعت من الوارث الحقيقي وارثاً آخراً لكي يُوَرث ، لعظم ذلك الإرث ، فكأن اثنين في ذلك الوارث ليستطيع حمل تلك الوراثة ، لذلك انتزعت منه نفسٌ أخرى لحملها ، إذ يقول شيخ زادة : ((يتجرد من الولي وهو الوارث نفسه وارثاً آخر ، إيذاناً بكمال الوراثة فيه))[٥] . فهو لكمال استعداده لوراثة زكريا (عليه السلام) ، أصبح له طاقة على حمل وراثة آل يعقوب، بواسطة ما فاض من نفسه الوّارثة لزكريا(عليه السلام)، فالآية من جهة تبين عِظم الوراثة ومن جهة أخرى تبين كمال الوارث من خلال أسلوب التجريد والله أعلم .

---

(١) الإيضاح : ٣٠٥ .
(٢) ينظر : المطول : ٦٦٢ .
(٣) الحاشية : ٢٦٠/٤ .
(٤) الحاشية : ٢٥٠/٣ .
(٥) الحاشية : ٢٧٩/٣ .

وقد يأتي التجريد لإعطاء دلالة في السياق الذي يرد فيه كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ [الزُّخرُف:٢٦-٢٩] ، إذ جرّد تعالى من ذاته الشريفة ذاتاً أخرى وخاطبها لكي يعاتبها على إحسانها لمن أساء إليه ، وهذا التجريد والاعتراض مجازي لا خلاف في ذلك ، إذ بين شيخ زادة صورة التجريد ودلالته بالقول : ((بأنه تعالى جعل تلك الكلمة باقية في عقبه ، لما حكم بذلك اعترض على ذاته بطريق التجريد على منوال قول امرئ القيس :

تطـــــاول ليلـــــك بالأثمـــــد ونـــــام الخلـــــى ولـــــم ترقـــــدِ[1]

فقال : بل متعت هؤلاء وآباءهم بطول العمر وسعة الرزق فشغلهم ذلك على استماع قول الناصح وأراد بذلك الاعتراض المبالغة في تعييرهم من حيث ان التمتع بزيادة النعم ينبغي ان يجعل سبباً للشكر والتوحيد لا للشرك واتخاذ الأنداء ونظير هذا الأسلوب ان يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه ثم يقبل على نفسه فيقول أنت السبب في ذلك بإحسانك إليه وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقبيح فعله))[2].

فعمل التجريد بوصفه فناً تصويرياً بلاغياً على تصوير ما غاب عن حس الإنسان ، ففيه تأثير على الوجدان لذلك استعمله عز ذكره – تعالى وتقدس – لإظهار عتبه بهيئة مصورة فجرد من ذاته ذاتاً أخرى يعاتبها .

وقد يكون التجريد للتعجب من شدة هول العذاب فيجرد منه عذاباً آخر ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس:٥٠] ، إذ جرد من العذاب عذاباً آخر يستعجله المجرمون ، إذ يقول شيخ زادة في بيان ذلك : ((تكون كلمة (من) في (منه) .. للتهويل فالمعنى أي شيء هائل شديد يستعجلون منه، (فمن) حينئذٍ تجريدية جرّد من العذاب شيء هائل شديد يتعجب منه ومن شدة هوله ، كل من يراه أو يسمعه وهو العذاب نفسه لا الفرد منه أو النوع))[3] .

---

(١) ينظر : ديوان امريء القيس : ٥٣ .

(٢) الحاشية : ٢٩٥/٤ .

(٣) الحاشية : ١٨/٣ .

٤-اللف والنشر :

يدل اللف في اللغة على الجمع ، أما النشر فعلى البسط[١] فاللف والنشر لغة هما الجمع والبسط .

أما في الاصطلاح فقد عرفه القزويني بالقول : ((وهو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يرده إليه))[٢] . ووافقه شيخ زادة على هذا الحد[٣] . وفي هذا الفن إثارة وتشويق للسامع إذ يأتي الشيء مجملاً ثم بعد هذا الخفاء يُفصل فيه ، ليُحدِث في النفس حالة ارتواء بعد ظمأ ومعرفة بعد جهل .

ولهذا الفن صورتان الأولى صورة ذكر المتعدد على سبيل التفصيل وهذه تنقسم إلى:

أ-نشر على ترتيب اللف (نشر مرتب) .

ب- نشر على غير ترتيب اللف (نشر غير مرتب) .

والصورة الثانية ، صورة ذكر المتعدد على سبيل الإجمال[٤] ، وقد بحث شيخ زادة في كلا القسمين . فمن أمثلة النشر المرتب قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[الروم:٢١] ، فجيء بحكمة التزويج مرتبة في نشرها ، فالمودة أولاً ثم الرحمة ثانياً ، إذ يقول شيخ زادة: ((لفّ ونشرَ على ترتيب قوله (مودة ورحمة) فأن كل واحد من الزوجين يود صاحبه حال شبابهما وعليه شهوتهما ويعطف عليه ويرحمه حال كبرهما رعاية لحق قدِم المصاحبة وإن انقطعت صاحبة نفسه إليه))[٥] .

أما النشر غير المرتب فقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ

(١) ينظر : لسان العرب مادة (نشر) : ١٤١/١٤ ، وينظر : مادة (لفَفَ) : ٣٠٤/١٢ .

(٢) الإيضاح : ٣٠٠-٣٠١ .

(٣) ينظر : الحاشية : ٣٩٠/١ .

(٤) ينظر : الإيضاح : ٣٠٠-٣٠١ .

(٥) الحاشية : ٢٣/٤ .

﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٦-١٠٧] ، ويبين شيخ زادة الفن البلاغي في الآية ودلالته بقوله : ((قدم ذكر الذين أبيضت وجوههم في التقسيم على الذين أسودت وجوههم وعكس هذا الترتيب في تفصيل أحوالهم ومآلهم وجعل الكلام من اللف والنشر الغير المرتب تنبيهاً على ان إرادة الرحمة أكثر من إرادة الغضب ، وأيضاً قد استحسن الفصحاء والشعراء ان يكون مطلع الكلام ومقطعه شيئاً يسير الطبع ويشرح الصدر ، فلذلك ابتدأ بتذكر أهل الثواب وختم بذكرهم))[١] .

فبين شيخ زادة إن النشر غير المرتب في السياق القرآني يكون لأغراض كالغرض المتقدم وهو التنبيه ، أو كرعاية الفاصلة كقوله تعالى : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:١٨] ، إذ لفّ النواهي المجملة في قوله تعالى : (لا تصعر خدك للناس) وقوله : (ولا تمش في الأرض مرحاً) ، ثم نشرها وفصلّ في علتها بقوله : (ان الله لا يحب كل مختال فخور) من غير رعاية للترتيب في حكمها ، ويوضح شيخ زادة سرّ ذلك الترتيب بقوله : ((ان الآية من قبيل اللف والنشر ، فان عدم محبته تعالى المختال علة لقوله (لا تمش في الأرض مرحاً) وعدم محبته الفخور علة لقوله (ولا تصعر خدك) إلا انه لم يراع في النشر ترتيب اللف رعاية لفواصل الآي))[٢] .

والصورة الثانية من هذا الفن ، هي ذكر المتعدد مجملاً كقوله تعالى : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٨] ، فيبين شيخ زادة سرّ الإجمال في المتعدد بقوله : ((وأصل الكلام يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن مؤمنة قبل إيمانها بعد ولا نفساً لم تكسب في إيمانها خيراً قبل ما تكسبه من الخير بعد إلا انه لفّ الكلامين فجعلهما كلاماً واحداً إيجازاً وبلاغةً))[٣] .

---

(١) الحاشية : ٦٥٩/١ .

(٢) الحاشية : ٣٨/٤ .

(٣) الحاشية : ٢٢٥/٢ .

فبين شيخ زادة ان بعض اللف إيجازاً إذ يُجمل المعنى وتدمج المتشابهات منه في سياق واحد .

ومن النشر المتعدد المجمل قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة:١١١] إذ أجمل في قوله تعالى (قالوا) ذكر الفريقين ثم ما لبث ان فصل في ذلك القول ، من غير اعتبار للترتيب في هذا النوع ، وأوضح شيخ زادة طريقة هذا الفن البديعي بقوله : ((ان الآية من قبيل اللف والنشر حيث ذكر فيها متعدد على الإجمال ، لأن ضمير (قالوا) لفريقي أهل الكتاب اليهود والنصارى إلا انهما ذكرا بالإجمال حيث عبر عنهما ضمير الجمع ، ثم ذكر مقالة كل واحد من هذين الفريقين من غير ان يُعين ان كل مقالة اعتماداً على ان السامع يرد إلى كل فريق مقالته))[١] . فهو بذلك فنٌ يرتقي بمدارك المتلقي ويوسع آفاقه الذهنية بوساطة جعله نبهاً لما في السياق من أمور تحتاج إلى ذهن يميز بين المتصلات منها ، ويوجد هذا الرابط الدلالي لينسب كل لف إلى نشره .

٥-الاستخدام:

الاستخدام لغةً من الخِدمة[٢] ، أما في الاصطلاح فقد اختلف في توجيهه البلاغيون ، فقد ذهب ابن أبي الأصبع المصري (ت٦٥٤هـ) ، إلى انه ((ان يأتي المتكلم بلفظة لها محملان ثم يأتي بلفظتين تتوسط تلك اللفظة بينهما تستخدم كل لفظة منهما أحد مَحْملي اللفظة المتوسطة))[٣] . فالاستخدام لديه استعمال معنيي لفظٍ مذكور في السياق ، فيما خالف القزويني (ت٧٣٩هـ) ، صاحب البديع في حده ، إذ ذهب إلى ان الاستخدام ((وهو ان يراد بلفظ له معنيان أحدهما ثم بضميره معناه الآخر))[٤] .

ووافقه شيخ زادة على هذا الحد إذ يقول : ((الاستخدام وهو ان يراد بلفظ له معنيان أحدهما وبضميره معناه الآخر كقوله[٥] :

---

(١) الحاشية : ٤٣٥/١ .

(٢) ينظر : القاموس المحيط مادة (خِدمة) : ١١١١ .

(٣) بديع القرآن : ١٥٠ .

(٤) الإيضاح : ٣٠٠ .

(٥) البيت لجريد بن عطية التميمي . ينظر : لسان العرب : ٣٩٩/١٤ وللفرزدق في تاج العروس : ٥٣٧/١٩ .

إذا نـــزل الســـماء بـــأرض قـــومٍ

رعينـــــاه وإن كـــــانوا غضـــــاباً

فانه أراد بلفظ السماء المطر وبضميره النبات))[1] .

فالاستخدام عند شيخ زادة والقزويني ان تستعمل لفظاً ذا معنيين الأول يشار إليه باللفظ ويستعمل المعنى الآخر بالضمير العائد إلى اللفظ المذكور ، ولم يخالف شيخ زادة معنى الحد الذي ذكره للاستخدام بل فسر به شواهد التنزيل التي تحوي على هذا الفن البديعي وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [فاطر:٩] ، إذ ذكر السحاب بمعناه ثم أُعيد الضمير إليه بمعنى آخر ألا وهو المطر ، فاستعمل بمنعيين، إذ يقول شيخ زادة : ((ان المطر كأنه من معاني لفظ السحاب من حيث انه يصح إطلاق السحاب عليه مجازاً بطريق إطلاق اسم السبب المادي على المسبب فيكون إرجاع ضمير به إلى المطر المدلول عليه بلفظ السحاب من قبيل الاستخدام))[2] .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ...﴾ [البقرة:٢٥] ، إذ استخدم لفظ (جنات) الأولى بمعنى الأرض الطيبة أو دار الثواب ، ثم استعمل الضمير العائد عليها بمعنى آخر وهو ، الأشجار الكائنة فيها التي تجري من تحتها الأنهار وهي الوصف الدال على تلك الدار ، إذ يقول شيخ زادة: ((اسم الجنة في عرف الشرع إنما يطلق على دار الثواب وهي عبارة على مجموع العرصة وما عليها من الرياض والأشجار والغرف ولاشك ان توصيف هذا المجموع بكونه بحيث تجري من تحته الأنهار إنما هو لبيان بهجته وحسنه ولا حسن يعتد به في جري الأنهار تحت العرصة فوجب ان يكون المعنى من تحت ما فيها من الأشجار والغرف العالية وهذا المعنى لا يحصل إلا بتقدير المضاف أو حمل الكلام على الاستخدام بأن يراد بالجنة دار الثواب ويعود ضمير تحتها إلى الأشجار الكائنة فيها

(١) الحاشية : ٢٠٨/١ .

(٢) الحاشية : ١٠١/٤ .

على طريق الاستخدام))[١] .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم:١٢] ، إذ استعمل النص القرآني لفظ (الفرج) بمعنيين مختلفين كما بين شيخ زادة بقوله : ((قوله تعالى (فيه) من باب الاستخدام ، لأن الظاهر ان المراد بلفظ الفرج في قوله تعالى (أحصنت فرجها) هو العضو وأريد بضميره معنى آخر للفرج وهو جيب القميص فأن كل خرق في الثوب يُطلق عليه لفظ الفرج ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق:٦]))[٢] .

ولم يحمل الزمخشري[٣] (ت٥٣٨هـ) ، النص على الاستخدام ، وبين ان النص محمول على الحقيقة في قوله (أحصنت فرجها) أما قوله (فنفخنا فيه) فلديه من قبيل إسناد الفعل إلى السبب الآمر ، بينما رجح شيخ زادة دلالة الاستخدام مستعيناً بتفسير القرآن بالقرآن للفظ فروج ولا يستبعد ذلك الترجيح ولعله الأقرب خصوصاً مع وجود فن يقصد به استعمال معنيين للفظ الواحد .

٦-المبالغة :

المبالغة في اللغة الاجتهاد في الأمر ، إذ يقول ابن منظور : ((بالغَ يُبالغ مُبالغة وبلاغاً إذا اجتهد في الأمر))[٤] .

أما في الاصطلاح ، فقد عرفها الرماني (ت٣٨٦هـ) بالقول : ((هي الدلالة على كبر المعنى))[٥] . أما القزويني فقد بين حدّها بالقول : ((المبالغة ان يُدعى لوصفٍ بلوغه في الشدة أو الضعف حداً مستحيلاً أو مستبعداً لئلا يظن انه غير متناه فيه))[٦].

---

(١) الحاشية : ٢٠٨/١ .

(٢) الحاشية : ٥١٦/٤ .

(٣) ينظر : الكشاف : ٤٢٩/٤ .

(٤) لسان العرب مادة (بلغ) : ٤٢٠/٨ .

(٥) النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل) : ١٠٤ .

(٦) التلخيص في وجوه البلاغة : ٣٧٠ .

وبين الرماني[1] وجوهاً للمبالغة في الصيغ الصرفية المعدولة ، وبالصيغ العامة في موضع الخاصة كقوله تعالى : ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأنعام:١٠٢] ، وإخراج الكلام على مخرج الأعظم الأكبر ، وفي إخراج الممكن إلى الممتنع ، وإخراج الكلام مخرج الشك في الحجاج ، وحذف الأجوبة .

أما القزويني[2] (ت٧٣٩هـ) ، فقد قسم المبالغة إلى ثلاثة أقسام ، التبليغ إذا كان المدّعى ممكناً عقلاً وعادة ، والاغراق إذا كان المدعى ممكناً عقلاً لا عادة ، والغلو غير ممكن عادةً .

ومن عرض آراء أبرز العلماء الذين تطرقوا للمبالغة القرآنية، فان شيخ زادة قد يقترب بنظرته من الرماني ، في بيان دور الصيغة الصرفية في بيان المبالغة، ولكنه يتوسع لغوياً في ذلك، فالمبالغة لديه فنٌ بديعي تنتجه سياقات متعددة من خلال أدوات لغوية كالصيغة، أو أدوات بيانية كالتجسيم في النظم وأدوات نحوية كالتوصيف بالمصدر والإضافة فالمبالغة وإن كانت غاية لوحدها في علم البديع إلا ان تلك الغاية لها وسائلها اللغوية .

فمن المواضع التي أشار شيخ زادة إلى وجود غرض المبالغة في نظمها من خلال التوصيف بالمصادر قوله تعالى : ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾ [البقرة:١٠] إذ وصف العذاب بكونه أليماً مع انّ الأليم هو الشخص المتألم نفسه ، لغرض المبالغة إذ يقول شيخ زادة في بيان تلك المبالغة : ((فالمؤلَّم هو المعذب الذي تعلق به الألم وصار محلاً له فهو بمعنى الأليم ... فكيف وصف به العذاب ، ووجه المبالغة ان التوصيف به المذكور ، على ان الألم المتعلق بالمعذب بلغ في القوة والكمال إلى حيث سرى من المعذب في العذاب العارض له وانه من شدته يتألم بنفسه وهذا نهاية المبالغة))[3].

ومنها قوله تعالى : ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ﴾ [فُصِّلَت:١٧] ، ففي هذا النظم ثلاث مبالغات من الاستعارة والإضافة والوصف ، إذ يقول شيخ زادة في بيانها :

---

(١) ينظر : النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل) : ١٠٤ .

(٢) ينظر : التلخيص في وجوه البلاغة : ٣٧١ وما بعدها .

(٣) الحاشية : ١٣٧/١ .

((إضافة الصاعقة إلى العذاب الموصوف بالمصدر للمبالغة في كونه مهيناً ليدل على شدة وقوع الصاعقة وقوتها ، فان إضافتها إليه من إضافة النوع إلى الجنس بتقدير (من) والمعنى فأخذتهم من جنس العذاب المهين الذي بلغ في إفادة الهوان العذاب حيث صار كأنه عين الهوان ما كان شديد الوقع كأنه صاعقة مهلكة ، والهون مصدر بمعنى الهوان والذلة وصف به العذاب للمبالغة أي عذاب مهين كأنه عين الهوان ، فالمبالغة استفيدت من ثلاثة أوجه : الأول من استعارة لفظ (الصاعقة) للعذاب ، والثاني من إضافة الصاعقة إلى العذاب والثالث من وصف العذاب بالهون))[1] .

فاستعارة هذه الصورة المحسوسة للعذاب وإظهاره في مظهر الآخذ القوي الذي يصعق المأخوذ ويجره جرّ الهوان ، فيه مبالغة من جانب التصوير الفني لهذا العذاب ، ولهذه المبالغة وظيفة دلالية ، إذ بين د. بسيوني عبد الفتاح وظيفة مثل هذه الصور المبالغ في تقريبها للأذهان بالقول : ((المراد بها إظهار البعد في الوصف وإبراز ما يراد إبرازه من أهوال وشدائد وفزع ورعب فيحُذر ويتقى))[2] .

وقد تدل الصيغة الصرفية بحروفها على المبالغة واستشهد شيخ زادة على ذلك بقوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:١٩] ، فلفظ (الصيب) أوجب للسياق مبالغة وأي مبالغة في كل حركة وسكنة وحرف لإعطاء دلالة قوة هذا الصيب أو العذاب وأثره، إذ يقول شيخ زادة في تفسيره البلاغي للمبالغة : ((في صيب من المبالغة ، فأن فيه مبالغة من ثلاث جهات من جهة الأصل أي المادة فان للصيب مادتين كل واحدة منها تدل على المبالغة مادته الأولى هي الحروف التي يتركب هو منها وهي الصاد التي هي من المستعلية المطبقة والياء المشددة والباء التي هو من الشديدة وقوة صيغة المادة تدل وتنبئ عن المبالغة في مدلول الكلمة ومادته الثانية هي مأخذ هذه الصيغة وهي الصوب فانه نزول شديد له وقع وتأثير والجهة الثالثة من جهة المبالغة جهة البناء أي الصورة فان فيعلاً صفة مشبهة دالة على الثبوت بخلاف الصائب فانه يدل على

(١) الحاشية : ٢٥٨/٤ .

(٢) من بلاغة النظم القرآني : ٣٥٢ .

الحدوث))[1] .

ومن الصيغ الدالة على معنى المبالغة (هماز) أي فعّال في قوله تعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم:١٠-١١] ، فقد توالت دلالة المبالغة في (حلاّف – همّاز – مشاء) من خلال تركيب الصيغة ، إذ بين شيخ زادة دلالة المبالغة بقوله : ((فان (الهماز) صيغة مبالغة من الهمز وهو في اللغة الضرب طعناً باليد أو العصا أو نحوهما ، أو استعير للمبالغ الذي يذكر الناس بالمكروه ويظهر عيوبهم تشبيهاً للطعن باللسان بالطعن بنحو اليد أو العصا))[2] . فلتجاوز أوصاف (الحلف والهمز والسعي بالإثم) أوصاف العادة ، أُظهرت في صورة المبالغة .

٧-الاستطراد :

الاستطراد في اللغة كما يرى ابن منظور من ((طَرَدت الرجل طرداً إذا أبعدتهُ وطردت القوم إذا أتيت عليهم وجزتهم .. واطّرد الشيءُ تبع بعضهُ بعضاً وجرى واطرد الأمر استقام واطّردت الأشياء إذا تبع بعضها بعضاً واطّرد الكلام إذا تتابع))[3] فهو إذاً التجاوز والإبعاد أو هو التتابع في الكلام .

أما في الاصطلاح ، فقد عرفه البلاغيون[4] بكونه الانتقال من معنى إلى معنى آخر متصل به ، وهو كذلك عند شيخ زادة إذ يقول : ((والاستطراد ان يكون المتكلم في فنٍ من الكلام فيسنح له فنٍ* آخر يناسبه))[5] . فهو بذلك فسحة وترويح للمتلقي لكي يتشوق للكلام ، كما انه يأتي في القرآن الكريم – كما يرى شيخ زادة – لأغراض يقتضيها السياق القرآني ، وإن كان ابن أبي الأصبع المصري[6] (ت٦٥٤هـ) أشار إلى موضع واحد للاستطراد في القرآن الكريم ، فان شيخ زادة نبه على مواضع منها في قوله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ

(١) الحاشية : ١/١٦٥-١٦٦ .

(٢) الحاشية : ٤/٥٢٧ .

(٣) لسان العرب مادة (طرد) : ٨/١٣٩ .

(٤) ينظر : الإيضاح : ٢٩٦ ، والطراز : ٤٠٤ .

* الأصوب : فناً .

(٥) الحاشية : ١/٦٦٠ .

(٦) ينظر : بديع القرآن .

لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [فاطر:١٢] ، إذ بين تعالى صورة المؤمن وإيمانه والكافر وكفره بالبحرين العذب بسائغ شرابه والأجاج بمالح شرابه ، بصورة التمثيل البليغ ثم استطرد تعالى لبيان صفات البحرين وفوائدها لغرض بلاغي أوضحه شيخ زادة ، بقوله : ((ولما ضرب الله تعالى مثلاً للمؤمن والكافر ثم ذكر على سبيل الاستطراد صفات البحرين وما فيهما من النعم ليستدلوا بها على وجوده تعالى ووحدانيته وكمال قدرته))[١] .

وقد يكون الاستطراد في القرآن الكريم لغرض الإنكار كما في قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴾ [الزُّخرُف:١٦] .

إذ يبين شيخ زادة غرض الاستطراد بذكر (البنين) في مقام المحاججة ورد إدعاء المشركين باتخاذ (الله تعالى) أولاداً وخصوصاً البنات منهم ، فبين سرّ ذكر البنين بقوله : ((ان الكلام اقتضى تقديم البنات لأن الكلام إنما سيق لتوبيخهم وإنكار انهم اثبتوا له تعالى أخس الأولاد ولأنفسهم أشرفها فكان ذكر البنات هو الذي سيق له الكلام أصالة وذكر البنين وقع استطراداً لمزيد من الإنكار والتعميم))[٢] . وقد نبه شيخ زادة على مواضع[٣] أخرى للاستطراد ، إلا انه لم يبين غرضها ، لذا فلا حاجة لذكرها ، لأن الاستطراد فنٌ يراد به غرض ، وان لم يبين هذا الغرض فلا بلاغة في بيان الفن .

٨-العكس والتبديل :

العكس في اللغة : ((ردك آخر الشيء على أوله))[٤] . أما في الاصطلاح ، فهو أحد فنون البديع الذي يقصد به ((عكس الكلمات في نظامها وترتيبها))[٥] . وذلك بأن يأتي المتكلم بكلام ثم يعكسه فيقدم ما أُخر ويؤخر ما قُدم بحيث يحصل عن هذا التعكيس في الكلام نكتة بلاغية وزيادة في المعنى[٦] .

---

(١) الحاشية : ١٠٤/٤ .

(٢) الحاشية : ٢٩٢/٤ .

(٣) ينظر : الحاشية : ٣٣٣/٣ ، و٢٢٨/٤ .

(٤) العين مادة (عكس) : ١٩١/١ .

(٥) الطراز : ٤٤٦ .

(٦) ينظر : العقد البديع في فن البديع ، الجوّاد الخوري : ٦٦ .

وتنبه شيخ زادة إلى وجود هذا الفن البديعي في مواضع القرآن الكريم ، فبينها موضحاً فيها سرّ هذا التعكيس في الكلام ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البيّنة:٦-٨] ، إذ ذكر سبحانه وتعالى جزاء الكافرين قبل ذمهم ، وعكس ذلك مع المؤمنين فمدحهم أولاً ثم بين جزاءهم ، وهذا التعكيس له غرضه عند شيخ زادة أوضحه بقوله : ((في الكلام المسوق لبيان مآل المؤمنين الموصوفين مبالغات في إعلاء قدرهم وإجلال شأنهم ، منها تقديم مدحهم على بيان مآلهم فان الكلام لما كان مسوقاً لبيان مآل الفريقين كان الظاهر ان يقدم بيان مصيرهم على قوله : (أولئك هم خير البرية) كما قدم بيان مصير الكفار على قوله : (أولئك هم شر البرية) ، فلما عكس هذا الترتيب ، احتجنا إلى طلب النكتة في ذلك وكانت المبالغة المذكورة صالحة لأن تكون نكتة فحكمنا بأنها هي النكتة فيه ، ومنها جعل المثوبة الموصوفة جزاء ، فانه يتضمن الاعتناء بشأن ما وصفوا أنه من الإيمان والأعمال الصالحة ومنها الحكم على ذلك الجزاء بأنه من عند ربهم فانه يدل على علو قدرة الجزاء وذلك يدل على علو قدر صاحبه عند ربه ومنها جميع جنات فانه يدل على إن لكل واحد منهم جنات))[1] . فلم يقتصر شيخ زادة على بيان (فن العكس) بل تجاوز ذلك إلى سياق وروده وما فيه من المبالغة ، فهو ينظر إلى النص القرآني كنص متكامل فيه المفرد كالمركب السياقي كلاهما فعّال ومتماسك لأداء الغرض المساق لأجله نظم الجملة .

وجعل شيخ زادة من هذا الفن قوله تعالى : ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦] ، إذ عكست ابنة شعيب (عليه السلام) في كلامها عن موسى (عليه السلام) في قولها : (ان خير من استأجرت القوي الأمين) لنكتةٍ بلاغية كشف عنها شيخ زادة بقوله : ((فإنّ الظاهر ان تجعل (القوي الأمين) اسم إنّ

(١) الحاشية : ٦٨٥/٤ .

استأجرت ، (وخير من استأجرت) خبرها وإن يؤتى بلفظ المضارع بدل استأجرت ، فعكس جميع ذلك ... للمبالغة في الدلالة على انه حقيقي بالاستئجار وذلك لأن ما هو أعنى فهو للتقديم أولى ، فان شدة العناية والاهتمام لما كانت متعلقة بالخيرية قدمت وجعلت اسم إن ونظيره قول الشاعر[1] :

إلا ان خيــر النــاس حيــاً وهالكــاً

أسـير ثقيـفٍ عنـدهم فـي السلاسـل

يعني ان المناسب للمقام بيان ان موسى (عليه الصلاة والسلام) بخصوصه حقيق بالاستئجار ، لقوته وأمانته لكونها في صدد تعليل طلبها لاستئجار موسى بخصوصه وذكرت حقيق بالاستئجار لتستدل بهذه المقدمة الكلية على مدعاها وهو استحقاق موسى للاستئجار))[2] .

فبين شيخ زادة غرضين للتعكيس في الكلام الأولى تتعلق بالمبالغة بالاهتمام بالخيرية والأخرى الاستدلال على الاستحقاق من خلال ضرب المثل عاماً ، فكل من وجدت فيه تلك الخصلتان هو أحق بالاستئجار وموسى (عليه السلام) قوي أمين فهو أولى لذلك .

وقد يكون الغرض من التعكيس في الكلام القرآني التنبيه على جهالة القياسات عند مغيبي العقول الذي لا يدركون حقائق الأمور ، ومثل ذلك قياسهم الأصل الموجود على العدم ، إذ حكى تعالى في كتابه الحكيم ، قول منكري الخالق إذ قال (عزّ من قائل) : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل:١٧] ، وبين شيخ زادة الغرض من وراء هذا التعكيس في الكلام إذ يقول : ((كان الظاهر ان يقال (افمن لا يخلق كمن يخلق) ، ليتم الإلزام والتجهيل في جعلهم العاجز كالقادر إلا انه تعالى عكس هذا النظم للتنبيه على كمال جهالة المشركين ، فانه لاشك في انحطاط شأن من لا يخلق شيئاً وهم يُخلَقُون بالنسبة إلى خالقهم فمن سلك سبيل الإشراك يلزمه ان يجعل الخالق القادر مماثلاً لهؤلاء المخلوقات العجزة وهو غاية الجهالة والغواية فأنكر عليهم في هذه

(١) البيت لأبي الشغب العبسي يمدح فيه خالد القسري . ينظر : وفيات الأعيان : ٢/٢٣٠ .

(٢) الحاشية : ٣/٥١٠ .

الجهالة فقال : (أفمن يخلق كمن لا يخلق)))[1] .

فنبه أسلوب التعكيس على خطأ القياس والاعتقاد والتفكير ، إذ استعمل القياسات المعكوسة ومنه أيضاً قوله تعالى حكاية عن المتجاوزين : ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة:٢٧٥] ، إذ عكسوا في كلامهم على طريق القياس الباطل ، لغرض أوضحه شيخ زادة بقوله : ((كان حق النظم ان يقال : إنما الربا مثل البيع ، لكنهم عكسوه ، للمبالغة في استحلاله ، حيث رمزوا بإبراز محل النزاع في صورة المشبه به إلى امتناعهم عن تشبيهه بمحل الاتفاق عادلين إلى إدعاء التشابه والتماثل بينهما في جميع الوجوه المطلوبة وعدم جواز تخصيص أحد المثلين بالحل والآخر بالحرمة))[2].

٩-التهييج والإلهاب :

تدل مادة (هيج) في اللغة على الثوران والإثارة ، أما الإلهاب فمأخوذ من لهب النار إذا أُوقدت ولهبها حرّها[3]. فالتهييج والالهاب لغةً هو الإثارة والتأجج .

أما في الاصطلاح البلاغي فهو: ((كل كلام دال على الحث على الفعل لمن لا يُتصور منهُ تركهُ وعلى ترك الفعل لمن لا يُتصور منه فعله ولكن يكون صدور الأمر والنهي ممن هذه حاله على جهة الإلهاب والتهييج له على الفعل أو الكف لا غير))[4].

وان كان شيخ زادة لم يُعرف هذا الفن فانه قد بيّن أغراضه وسر مجيئه في السياق القرآني وذلك كقوله تعالى : ﴿ٱلٓمٓصٓ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف:١-٢] ، فالنهي الذي في الآية الكريمة – كما يرى شيخ زادة – ليس نهياً حقيقياً ولكنه على نحو التهييج والإلهاب أما غرضه فيبينه بالقول : ((والنهي من باب التهييج والإلهاب ، ليداوم على اليقين ويزيد فيه))[5] . وقد يكون الخطاب من قبيل الخاص الموجه إلى العام ، إذ ان الأمة قد تكون أحق بهذا الخطاب من

(١) الحاشية : ١٧٢/٣ .

(٢) الحاشية : ٥٨٨/١ .

(٣) ينظر : لسان العرب مادة (هيج) : ١٧٤/١٥ ، ومادة (لهب) : ٣٣٨/١٢ .

(٤) الطراز : ٤٧٧ .

(٥) الحاشية : ٢٢٦/٢ .

الرسول﴿ ﷺ﴾ ولكنه لما كان واسطة الفيض الإلهي خُوطب بهذا الخطاب .

ومن الأوامر التي تكون على سبيل الإلهاب والتهييج قوله تعالى : ﴿فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء:١٠١] ، فأمرهُ تعالى بالسؤال في قوله : (فسئل بني إسرائيل) وكان هذا السؤال له غرضه ، إذ أوضح شيخ زادة انه ((من باب التهييج والإلهاب وزيادة التثبيت والطمأنينة على أسلوب قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤] والمعنى ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات إذ جاءه بني إسرائيل أو فرعون وملأه فاسأل عن ذلك من مسلمي أهل الكتاب يخبروك به كما أخبرت))[١] .

ففي حثه على السؤال زيادة تثبيت وقطع الشك في حصول الأمر ، إذ جيء به تهييجاً وإلهاباً له (عليه الصلاة والسلام) ومنه قوله تعالى ناهياً رسوله الكريم في ظاهر السياق : ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٤٥] ، إذ ان الغرض من السياق ليس نهيه ، لأن غير المشتغل بالإثم كالرسل لا ينهون عما لا يفعلونه ولكنه كما يرى شيخ زادة : ((لتهييجهم على الثبات على إتباع الحق واستقباح صدور المعصية منهم مع كونهم في أقصى مراتب استكمال القوة النظرية والعملية ومهذبين عن الأدناس الطبيعية والبهيمية))[٢] .

ومن الملاحظ على هذا الفن توجهه بالخطاب إلى من لا يُتصور منه الفعل ، وفي ذلك إشارة وإيحاء إلى المتلقي للكف عن مثل هذا الفعل لأنه لو جاء من عظماء الدين لحُوسُبُوا عليه فكيف إذا كان هذا الفعل من العاصي ، فتكون وظيفة هذا الفن إبراز المنهيات بصورة تحد وتسد باب الجدل في حرمتها ، كما انها تُظهر العاصي الحقيقي وجزاءه .

وفي نهاية المطاف لابد من الإشارة إلى ان شيخ زادة تطرق في علم البديع إلى فنون أُخرى ، ولكنه لم يفصل فيها ، فاستشهد عليها مرة واحد ، كالطي[٣] ، وتناسب

(١) الحاشية : ٢٤٤/٣ .
(٢) الحاشية : ٤٥٨/١ .
(٣) ينظر : الحاشية : ٦٥٣/١ .

عجز الكلام وصدره[١] . وفي المحسنات اللفظية تطرق إلى شاهد في التجنيس المحرف[٢] .

(١) ينظر : الحاشية : ٤/٢٤٥ .

(٢) ينظر : الحاشية : ٤/٢٤٥ .

الخاتمة

الخاتمة

الحمد لله الذي جعل الأعمال بخواتيمها ، متجاوزاً بذلك عن النقصان والعجز في أولها ، والذي أوصلنا إلى مسك الختام في هذا البحث بمنةٍ منهُ وتسديد ، وبعد رحلةٍ تمخض عنها نتائج وأفكار عامة تخص المنهج العام وأسسه النظرية وأخرى خاصة تبين ملامح الخصوصية في بحث شيخ زادة ، فمن النتائج العامة :

١-إنَّ شيخ زادة وإنْ كان قد وضع حاشيته لشرح تفسير البيضاوي الذي هو تفسير مختصر لكشاف الزمخشري ، إلا انه لم يكن تبعاً لهما بالكامل ، إذ جاء بحثه مكملاً ومستدركاً متميزاً في الكشف والتوضيح عن كثير من دقائق المعاني القرآنية والصنوف البيانية والروائع البديعية .

٢-جاءت أسسه النظرية في العلوم الثلاثة للبلاغة متميزة ففي علم المعاني يذهب شيخ زادة مع الجرجاني والزمخشري في دراسة بلاغة التراكيب وما يطرأ عليها من تقديم أو تأخير أو ذكر أو حذف أو فصل ووصل أو إيجاز وإطناب كل ذلك بحسب قرائن السياق فيدرس شيخ زادة نظم التراكيب وعلاقاته ، لا لغاية بيان علاقاته النحوية أو الاسنادية بل للكشف عمّا وراء هذه الارتباطات والانسجامات السياقية من أغراض ، ولأن معرفة علائق السياقات وفق نظام نحوي يكشف عن أن الانزياحات أو العدولات التي تحدث فيها لا تخلو من دلالة سياقية أو غرض يريد المتكلم البليغ إيصاله إلى المتلقي عبر أدوات لغوية واستعمالات أسلوبية فوقف شيخ زادة في علم المعاني كثيراً لبيان أحكام الجملة القرآنية الاسنادية وما يجري عليها من تفانين أسلوبية ترتقي بالمتلقي البليغ إلى سماء البلاغة القرآنية .

أما في علم البيان ، فان شيخ زادة يختلف في منهجه مع كبار البيانيين كالزمخشري مثلاً ، إذ انه بحث في علم البيان صوراً جمالية تظهر بلاغة التصوير المعجز للنص البياني القرآني ، فيما بين د. مصطفى الصاوي الجويني منهج الزمخشري في علم البيان بقوله : ((والزمخشري في معالجاته الجمالية لصور البيان القرآني أخضع هذه المعاني لرأي المعتزلة اللغوي ... ثم عرض لصور من البيان القرآني وتتبع مزاياها الجمالية ، إلا اننا رأيناه في أسلوب المجاز القرآني يفسره

ويبسط معناه ولا يبحث فيه من الناحية الجمالية إذ أن الناحية العقدية مستأثرة باهتمامه))[١] . فيما بين البحث حس شيخ زادة البلاغي في الكشف عن مواطن الجمال من خلال البحث عما وراء التصوير البياني القرآني من أغراض إذ كشف عن بعض هذه الأغراض مما لم يتطرق اليها صاحب المنهج البياني القرآني وهو الزمخشري كما انه اختلف عن الجرجاني (ت٤٧١هـ) في اهتمامه بنوع من أنواع الاستعارة ألا وهي (الاستعارة التمثيلية) ففصل فيها شيخ زادة القول وفق منظور قرآني فيما أُخِذ على الجرجاني أنه لم يبسط القول في الاستعارة التمثيلية وانه أدخلها في التمثيل أي (تشبيه التمثيل)[٢] .

أما منهج شيخ زادة في علم البديع فيختلف عما جاء به الزمخشري في تفسيره ، إذ أن ((الزمخشري حين يرى أن القرآن مختصٌ بعلمين هما المعاني والبيان فهو في هذا يتأثر بعبد القاهر الجرجاني الذي يرى مزية الكلام الجمالية في معناه وأما اللفظ فهو خادم للمعنى ولهذا ، فلن نظفر هنا بأكثر من ثلاثة ضروب من أضرب البديع على كثرتها))[٣] .

فيما جعل شيخ زادة علم البديع من العلوم التي لابد للمفسر أن يتسلح بمعرفتها لذلك نجده تطرق إلى تسعة* فنون مفصلاً في دورها الجمالي والبلاغي التي تضفيه هذه الفنون على السياق البليغ .

أما في بيان النتائج التي تخص البحث البلاغي عند شيخ زادة للبلاغة فهي :

١-إن نظرته لبلاغة القرآن في صلب اعتقاده بأنه معجز بها ، وقد استعمل مصطلحات البلاغة بعد أن نضجت لإيضاح ذلك الإعجاز .

٢-استعمل شيخ زادة مصطلح (الخبر البلاغي) بمعناه اللغوي فقيده بأمور ثلاثة:

الأول : بكونه نبأً وليس خبراً .

الثاني : فائدته الإعلام والمعرفة لا لازمها .

---

(١) منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه : ٢٩٩ .

(٢) ينظر : البلاغة تطور وتاريخ : ٢١٨ .

(٣) منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه : ٢٥٩ .

* ينظر : ص٢٥٦ وما بعدها من الرسالة .

الثالث : مطابقة تلك الأنباء للواقع .

٣-قسم شيخ زادة الخبر إلى حقيقي : يخرج لإفادة المخاطب وإعلامه بالنبأ وآخر مجازي يخرج بدلالات ومعاني ثانوية تتضمنها السياقات الواردة بصورة الخبر.

٤-قسم شيخ زادة الخبر بحسب مقتضى حال المخاطبين إلى ابتدائي وطلبي وإنكاري ، وقد يخرج الخبر عن هذا المقتضى لأغراض بلاغية .

٥-لم يقصر شيخ زادة بحثه على ما ذكره البلاغيون في تأكيد الجملة الخبرية ، وأضاف إلى بيانهم أغراضاً أخرى يقتضيها السياق القرآني منها التأكيد على صدق الرغبة ووفور النشاط من المتكلم والتهديد والمبالغة والإيذان بتحقق الوعيد والدلالة على التدرج في شدة الإنكار .

٦-بحث في أقسام الجملة الخبرية وقسمها إلى فعلية واسمية ودلالة كل منهما بمعونة المقام وقرائنه ، وتطرق الى موضوع العدول الذي يطرأ على الجملة الخبرية في موضوع الالتفات إذ فصّل في دلالات الجملة الفعلية عندما يُعدل اليها في المقام الذي يقتضي الجملة الاسمية وبين أغراض هذا العدول ، وبحث في دلالات الجملة الاسمية عندما يُعدل اليها في المقام الذي يقتضي الجملة الفعلية وهذا النوع من البحث قلما نجده عند غيره من مفسرين وبلاغيين.

٧-اهتم شيخ زادة ببيان أساليب الإنشاء الطلبي منبهاً على بلاغتها في السياقات المجازية التي تكمن فيها مقاصد المتكلم ويظهر من خلالها التفنن بالقول وبلاغته كاشفاً عن المعاني الثانوية التي يوفرها السياق المجازي للأسلوب الطلبي ، ومتميزاً عن البلاغيين بالتنويع في بيان الأغراض المقصودة من أساليب الطلب ، كالأمر والنهي والاستفهام والنداء . في حين لم تلق الأساليب غير الطلبية هذا الاهتمام .

٨-اهتم شيخ زادة في بحث الجملة الاسنادية القرآنية فتتبع أحوال أركانها ، وعلاقة مفرداتها مع بعضها البعض في النظم ووفق هذا المنظور بحث ظاهرة التقديم والتأخير وفصّل في نوعين منها ، الأول ما يختصُ بدلالة الألفاظ على المعاني ولو أخر المقدم أو قدم المؤخر لتغير المعنى وبحث ضمن هذا

الضرب ثلاثة أشكال للتقديم :

الأول : تقديم المسند إليه الذي لم يحظ بعناية البلاغيين لكونه الحالة الطبيعية للتركيب الإسنادي ، إلا أن شيخ زادة أوضح أن لهذا التقديم أسراراً في السياق القرآني إذ يكون هذا التقديم مقصوداً لتأدية أغراض بلاغية كالتخصيص والتعظيم وتقوية الحكم المنفي وتقريره .

الثاني : تقديم المسند على المسند إليه ، الذي يكون لتقديمه أغراض بلاغية ، والشكل الثالث هو تقديم المتعلقات على عاملها في الجملة القرآنية ، إذ بحث في هذا الضرب تقديم المفعول على عامله تارة وأخرى على المفعول الثاني مبيناً الأغراض البلاغية من وراء هذا التقديم ، كما بحث أيضاً تقديم (شبه الجملة) والأسرار البلاغية في تقديمها ومثل هذا البحث لا نجده عند البلاغيين الذين صبوا جلّ اهتمامهم بالأركان الإسنادية الأساسية في الجملة من (مسند ومسند إليه) .

وبحث في نوع آخر من التقديم لا يصحبه تغير المعنى ، ولكنه يكون لمقتضيات بلاغية ودلالية ، إذ تُقدم بعض الألفاظ لاعتبارات في السياق القرآني كتقديم لفظ البشرى على الإنذار والموت على الحياة وتقديم لفظ النساء على البنين وغيرها .

٩-وَضح شيخ زادة إنّ لذكر أحد أركان الجملة الإسنادية القرآنية أو حذفها سواء كان مسنداً أو مسنداً إليه أو من متعلقات الجملة ، أغراضاً بلاغية كشف عنها مهتماً بذكر المتعلقات وما لها من أثر في تكوين الدلالة السياقية.

١٠-بحث شيخ زادة في طرق التعريف وأغراضه وكذلك التنكير في المسند والمسند إليه ، ولم يقصره على ذلك بل ، تتبع النص البلاغي تتبعاً ذوقياً فوجد أن متعلقات الجملة لها دور في إيصال الكلام إلى قمة البلاغة عن طريق تعريفها أو تنكيرها ، فكشف عن الأغراض البلاغية وراء هذا الاستعمال الأسلوبي . والبحث في أسرار المتعلقات لم يكن ضمن اهتمام البلاغيين .

١١-في موضوع الفصل والوصل بحث شيخ زادة هذا الموضوع بطريقة مغايرة لبحث البلاغيين وإن كان قد التقى معهم في بيان المواضع الموجبة للفصل والوصل إلا أن ما يميز بحثه أمور ثلاثة :

الأول انه تجاوز بحث المواضع الواجبة للفصل والوصل إلى البحث عن بلاغة

الفصل والوصل والأغراض التي يبعثها هذا الأسلوب خصوصاً في موضع (الاستئناف) إذ استحدث لهذا الموضع أغراضاً لم تكن مطروقة عند البلاغيين .

الثاني : انه استحدث نوعاً من العطف لم يكن شائعاً في أوساط البلاغيين سماه (عطف القصة على القصة) ولا يقتضي هذا النوع من العطف المناسبة بين المتعاطفات خبراً أو انشاءً وإنما يعتمد على التناسب الموضوعي بينها .

والثالث : انه لم يقتصر في بحثه على بيان بلاغة العطف بالواو ، بل تجاوزها إلى بلاغة العطف بـ (ثم والفاء) خصوصاً في السياقات المجازية .

١٢-في أسلوب (الإيجاز والإطناب) تميز شيخ زادة عن البلاغيين في بحثه ، إذ لم يكتفِ بتعيين الأسلوب وحسب وإنما على ما يبعثه من أغراض ودلالات بلاغية فضلاً عن بحثه في صور الإيجاز والإطناب .

١٣-لم يتعرض شيخ زادة إلى (المساواة) .

١٤-بحث شيخ زادة في فنون علم البيان بحثاً بلاغياً وذوقياً إذ لم يبحث في أقسام الفنون البلاغية بل لما يؤديه كل فن من أغراض ووظائف بلاغية عن طريق تصويره الفني .

١٥-بحث شيخ زادة في نوعين من التشبيه بالتفصيل الأول التشبيه البليغ لتلاحق دلالته على المبالغة والآخر التمثيلي مبيناً أن لتلاحق الصور البيانية التمثيلية وظائف بلاغية ترتقي بالنص إلى قمة الإعجاز .

١٦-في أسلوب المجاز نجد أن شيخ زادة بحثه لأمرين الأول للدفاع عن عقيدته ضد المعتزلة ، والآخر تابع لنظرته إلى الإعجاز القرآني ، إذ يرى انه إعجاز بلاغي بالدرجة الأولى والمجاز من أساليبه البلاغية .

١٧-وافق شيخ زادة البلاغيين في تقسيمهم للمجاز إلى لغوي وعقلي ، والذي ميز بحثه هو بيانه للأغراض البلاغية التي يبعثها المجاز العقلي ، كما انه أضاف إلى علاقات صاحبيه (الزمخشري والبيضاوي) علاقات أخرى للمجاز اللغوي .

١٨-في بحث (الاستعارة) لم يطنب شيخ زادة في التقسيم والتشعيب على أنواعها ، كما هو ديدن البلاغيين ، بل أوجد للاستعارة القرآنية مجالاً آخر للدراسة وهو مجال دراسة خصائصها الجمالية وأغراضها البلاغية ، فأخذ يكشف عن

خصوصية الصورة البيانية القرآنية ويُظهر عناصر الروعة فيها من خلال بيانه لما وراء هذه الاستعارات من تأثير وأغراض .

١٩-بحث شيخ زادة فن (الكناية) مبيناً طرق إيصال المعنى المكنى عنه من خلال قرائن سماها (البينة) كاشفاً عما تؤديه الكناية القرآنية من أغراض .

٢٠-في الفنون البديعية ، ركز شيخ زادة بحثه على المحسنات المعنوية ، ربما لكونه مفسراً وغالباً ما تكون نظرته إلى المعاني وما يحصل لها من تحسين وإبداع يساعده على فهم القرآن وتأويل إعجازه . فالألفاظ لديه في اللسان العربي الذي يتداوله فصحاؤهم ، وتميز بحثه للمحسنات المعنوية بتعليله لمجيء المحسن وما يؤديه من أغراض في توصيل الدلالة ، وهذا التعليل وبيان الأغراض قلما نجده في دراسة البلاغيين لفنون البديع المعنوية .

وفي نهاية المطاف نَحمدُ الله ونشكره على جزيل فضله ورحمته إذ جعل ختام حياتنا بلقائه فكان ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطفِّفين:٢٦] .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم

١- الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ٢٠٠٣م .

٢- أساليب البيان في القرآن : جعفر الحسيني ، مؤسسة الطباعة والنشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي ، طهران ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

٣- أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين: د. قيس إسماعيل الأوسي ، جامعة بغداد ، بيت الحكمة ، (د.ت) .

٤- أساليب المعاني في القرآن : جعفر باقر الحسيني ، مؤسسة بوستان كتاب ، قم المقدسة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٨هـ .

٥- أسرار البلاغة : للإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤١٧هـ) ، تحقيق هـ. ريتز ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩م .

٦- أسرار الوصل والفصل : د. صبَّاح عبيد دراز، مطبعة الأمانة ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦م .

٧- الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي: د. ابتسام أحمد حمدان ، دار القلم العربي ، حلب – سوريا ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧م .

٨- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة : ركن الدين محمد بن علي بن محمد الجرجاني (ت٧٢٩هـ) ، علق عليه إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢م .

٩- أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم : د. محمد حسين على الصغير، دار المؤرخ العربي ، بيروت– لبنان ، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

١٠- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الازرق (دراسة قرآنية لغوية وبيانية) ، د. عائشة عبد الرحمن ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣ ، د.ت .

١١- الإعجاز بين النظرية والتطبيق : السيد كمال الحيدري ، دار فراقد للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤م .

١٢- الأعلام (قاموس تراجم لأشهر النساء من العرب والمستعربين والمستشرقين) : خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان ، الطبعة السادسة عشر ، ٢٠٠٥م .

١٣- أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) : للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (ت٤٣٦هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧م.

١٤- الإيضاح في علوم البلاغة : جلال الدين القزويني (ت٧٣٩هـ) ، منشورات دار ومكتبة الهلال ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأخيرة ، ٢٠٠٠م.

١٥- البديع : ابن المعتز (ت٢٩٦هـ) ، علق عليه إغناطيوس كراتشقوفيسكي ، دار المسيرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٣م .

١٦- البديع في ضوء أساليب القرآن : د. عبد الفتاح لاشين ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٦م .

١٧- بديع القرآن : أبن أبي الأصبع المصري (ت٦٥٤هـ) ، بتحقيق د. أحمد مطلوب و د. خديجة الحديثي ، منشورات المجمع العلمي ، بغداد ، ٢٠٠٦م .

١٨- البرهان في علوم القرآن : للإمام بدر الدين الزركشي (ت٧٩٤هـ) ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠١م .

١٩- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة : عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب ، ١٩٩٩م .

٢٠- البلاغة تطور وتاريخ: د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، الطبعة الثانية عشر ، القاهرة .

٢١- البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها : عبد الرحمن حسن الميداني ، دار القلم ، دمشق ، الدار الشامية ، بيروت ، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م .

٢٢- البلاغة العربية قراءة أخرى : د. محمد عبد المطلب ، دار نوبار للطباعة ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٧م .

٢٣- البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني) : د. فضل حسن عباس ، دار

الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٩م .

٢٤- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية : د. محمد حسنين أبو موسى ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، (د.ت) .

٢٥- البلاغة والأسلوبية : محمد عبد المطلب ، دار نوبار للطباعة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٤م .

٢٦- البلاغة والتطبيق : د. احمد مطلوب و د. كامل حسن البصير ، مطابع بيروت الحديثة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩م .

٢٧- البيان في ضوء أساليب القرآن : د. عبد الفتاح لاشين ، دار المعارف ، القاهرة (د.ت) .

٢٨- البيان والتبيين : أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ٢٠٠٣م.

٢٩- تاج العروس من جواهر القاموس : للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، تحقيق مصطفى حجازي راجعه عبد الستار أحمد ، مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٦٩م .

٣٠- تأويل مشاكل القرآن : لأبي محمد مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٧م .

٣١- التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور : للإمام الشيخ حمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ ، بيروت – لبنان،الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠م.

٣٢- التصوير الفني : سيد قطب ، دار الشروق ، القاهرة – مصر .

٣١- التعبير الفني في القرآن الكريم : د. بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٤م .

٣٤- تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: لأبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي(ت٩٨٢هـ)، وضع حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩م .

٣٥- تفسير البحر المحيط : لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي

(ت٧٤٥هـ) ، تحقيق عادل احمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ، شارك في التحقيق د. زكريا عبد المجيد النوني و د. أحمد النجولي الجمل ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١م .

٣٦- تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل : للقاضي ناصر الدين البيضاوي (ت٦٨٥هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان ، الطبعة الرابعة ، ٢٠٠٨م .

٣٧- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن حسن بن علي التميمي الرازي الشافعي (ت٦٠٦هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط٤ ، ٢٠٠١م .

٣٨- التفسير والمفسرون : د. محمد حسين الذهبي ، دار الحديث ، القاهرة ، ٢٠٠٥م.

٣٩- التلخيص في علوم البلاغة : للإمام جلال الدين القزويني(ت٧٣٩هـ) ، دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى ، ١٩٠٤م .

٤٠- ثلاث رسائل في إعجاز القران الكريم : للرماني (ت٣٨٦هـ) والخطابي (ت٣٨٨هـ) وعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) ، تحقيق محمد خلف الله ود. محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، مصر، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٦م.

٤١- حاشية شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي : لمحيي الدين محمد بن مصطفى القوجوي الحنفي المشهور بـ (شيخ زاده) (ت٩٥٠هـ) ، المكتبة الإسلامية ، ديار بكر ، تركيا .

٤٢- الحذف البلاغي في القرآن الكريم : مصطفى عبد السلام أبو شادي ، مكتبة القران للطبع والنشر ، القاهرة ، (د.ت) .

٤٣- خصائص التراكيب (دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني) : د. محمد محمد أبو موسى ، أميرة للطباعة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٦م .

٤٤- دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) ، تعليق أبو فهر محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، مصر ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٢م.

٤٥- ديوان أمريء القيس ، ضبطه وصححه مصطفى عبد الشافي ، دار الكتب

العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الخامسة ، ٢٠٠٤م .
٤٦- الرسالة الفارسية في المجاز : لإبراهيم عصام الدين الاسفراييني (ت٩٥١هـ) ، دراسة وتحقيق د. علي رمضان الجربي ، منشورات جامعة ناصر الخمس ، ليبيا ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧م .
٤٧- رؤى في البلاغة العربية (دراسة تطبيقية لمباحث علم البيان) : د.زين كامل الخويسكي و د. أحمد محمود المصري ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٦م .
٤٨- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي (ت١٢٧٠هـ) ، إعداد إبراهيم شمس الدين ، سناد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١م .
٤٩-شذرات الذهب في أخبار من ذهب : أبن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ) ، دار إحياء التراث العربي .
٥٠- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها ، للإمام احمد بن فارس ، علق عليه أحمد حسن بسبح ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧م .
٥١- الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) ، إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق احمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، (د.ت) .
٥٢- الصناعتين الكتابة والشعر ، أبي هلال حسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت٣٩٥هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، د.ت.
٥٣- الصور البيانية بين النظرية والتطبيق : د. حُفني محمد شرف ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٥م .
٥٤- طبقات المفسرين :أحمد بن محمد الادنروي ، تحقيق سليمان بن صالح الخزي ، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧م.
٥٥- الطبيعة في القرآن الكريم : د. كاصد ياسر الزيدي ، دار الرشيد ١٩٨٠م.
٥٦- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز : للإمام يحيى بن

حمزة العلوي (ت٧٤٩هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥م.

٥٧- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح : للشيخ بهاء الدين السبكي (ت٧٧٣هـ) ، تحقيق د.عبد الحميد هنداوي ، المطبعة العصرية ، بيروت – صيدا ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣م .

٥٨- العقد البديع في فن البديع : الجوّاد الخوري بولس عواد ، المطبعة العمومية الكاثوليكية ، بيروت – لبنان ، ١٨٨١م.

٥٩- العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم :طاشكبري زادة (ت٩٦٨هـ) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٣٩٥هـ .

٦٠- على طريق التفسير البياني : د. فاضل صالح السامرائي ، النشر العلمي ، جامعة الشارقة ، الإمارات العربية المتحدة ، ٢٠٠٥م .

٦١- علم أساليب البيان : د. غازي ياموت ، دار الأصالة ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣م .

٦٢- علم البيان بين النظريات والأصول : د. ديزيره سقال ، دار الفكر العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧م .

٦٣- علم البيان (دراسة تحليلية لمسائل البيان) : د.بسيوني عبد الفتاح فيوّد ، مؤسسة المختار للنشر ، القاهرة الطبعة الثانية ١٩٩٨م .

٦٤- علم المعاني- البيان- البديع : د.عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، بيروت ، (د.ت) .

٦٥- علم المعاني (دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني) : د. بسيوني عبد الفتاح فيوّد ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٤م.

٦٦- علوم البلاغة (البيان والمعاني والبديع) :د. أحمد مصطفى المراغي ، المكتبة العصرية ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٩م .

٦٧- العين: للخليل بن احمد الفراهيدي ، تحقيق د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي ، دار الرشيد للنشر ج٢ /١٩٨١ ، ج١٩٨١/٣ ، ج١٩٨٤/٧ ، ج١٩٨٥/٨.

٦٨- الفوائد الغياثية في علوم البلاغة : للعلامة عضد الدين الايجي (ت٧٥٦هـ) ، تحقيق عاشق حسين الناشرون دار الكتاب المصري ، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١م .
٦٩- القاموس المحيط : الفيروز أبادي (ت٨١٧هـ) ، تحقيق مجدي فتحي السيد ، المكتبة التوفيقية ، مصر (د.ت) .
٧٠- قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة إلى عهد السكاكي (٥٥٥-٦٢٦هـ) ، د. علي محمد حسن العماري ، أميرة للطباعة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩م .
٧١- الكتاب : تأليف عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب بـ (سيبويه) ، علق عليه د. أميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩م.
٧٢- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ) ، شرحه وضبطه وراجعة يوسف الحمّادي ، دار مصر للطباعة ، (د.ت) .
٧٣- لسان العرب : للإمام أبن منظور (ت٧١١هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩م .
٧٤- اللغة في الدرس البلاغي ، د. عدنان عبد الكريم جمعة ، دار السياب للطباعة ، لندن ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٨م .

٧٥- المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري : د. احمد جمال العمري ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٩٠م .
٧٦- المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم دراسة مقارنة : د. محمد حسين علي الصغير ، (د.ت).
٧٧- المثل السائر في آدب الكاتب والشاعر : ضياء الدين أبن الأثير الجزري (ت٦٣٧هـ) ،تحقيق الشيخ كامل محمد عويضة ، دار الكتب العلمية ، بيروت

– لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨م .
٧٨– مجاز القرآن:لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي (ت٢١١هـ) ، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية،بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
٧٩– مجاز القرآن (خصائصه الفنية وبلاغته العربية) ، دار المؤرخ العربي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩م .
٨٠– المشاهد في القرآن الكريم (دراسة تحليلية وصفية) : د. حامد صادق قنيبي ، مكتبة المنار ، الأردن ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م .
٨١– المصباح في المعاني والبيان والبديع : للإمام أبي عبد الله بدر الدين بن مالك الشهير بابن الناظم (ت٦٨٦هـ) ، حققه : عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١م .
٨٢– المطول (شرح تلخيص مفتاح العلوم) : سعد الدين التفتازاني (ت٧٩٢هـ) ، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤هـ .
٨٣– المعاني في ضوء أساليب القرآن : د. عبد الفتاح لاشين ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٨م .
٨٤– معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : د. أحمد مطلوب ، مطبوعات المجمع العلمي ، جامعة بغداد ج١/١٩٨٣ ، ج٣ ١٩٨٧م .
٨٥– المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ٢٠٠٧م .
٨٦– مفتاح العلوم : لأبي يعقوب يوسف بن محمد السكاكي (ت٦٢٦هـ) ، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.
٨٧– من بلاغة القرآن : د. أحمد أحمد بدوي ، نهضة مصر للطباعة والنشر ، ٢٠٠٥م .
٨٨– من بلاغة النظم القرآني (دراسة بلاغية تحليلية لمسائل المعاني والبيان والبديع في آيات الذكر الحكيم) : د. بسيوني عبد الفتاح فيوّد ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٠م .

٨٩- منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه : د. مصطفى الصّاوي الجويني ، دار المعارف مصر ، الطبعة الثالثة ، (د.ت) .
٩٠- مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح : لأبي العباس المغربي (ت١١٢٨هـ) ، تحقيق د. خليل إبراهيم خليل ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣م .
٩١- نحو المعاني : د. أحمد عبد الستار الجواري ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ٢٠٠٦م .
٩٢- نظرية عبد القاهر في النظم : د. درويش الجندي ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٦٠م .
٩٣- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) ، تحقيق د. بكري شيخ أمين ، دراسة للعلم للملايين ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥م .
٩٤- هدية العارفين(أسماء المؤلفين وآثار المصنفين) : مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي (ت١٠٦٧هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢م.
٩٥- وفيات الأعيان ، وانباء ابناء الزمان لابن خلكان (ت٦٨١هـ) ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، لبنان ، د.ت .
٩٦- يتيمة الدهر: الثعالبي (ت٤٢٩هـ) ، تحقيق د. مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣م .

الرسائل والاطاريح :

١- الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم : محمد كريم الكواز ، أطروحة دكتوراه ، مقدمة إلى كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٩٠ .
٢- الإنشاء غير الطلبي في القرآن الكريم : سعاد كريم خشيف ، رسالة ماجستير ، مقدمة إلى كلية التربية ، جامعة بغداد ، ١٩٩٧ .

٣- التفسير البلاغي لشواهد عبد القاهر الجرجاني في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، أطروحة دكتوراه ، مقدمة إلى كلية التربية ، جامعة تكريت ، ٢٠٠٩ .